

الفصل الثاني

بيعة الحسن بن علي بن أبي طالب وأهم صفاته
وبعض مواقفه في الحياة الاجتماعية
ومشروعه الإصلاحية الذي توج بوحدة الأمة

المبحث الأول

بيعة الحسن بن علي عليه السلام

كانت بيعة الحسن بن علي عليه السلام في شهر رمضان من سنة 40هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي⁽¹⁾، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت علياً يقول: لتخضين هذه من هذا⁽²⁾، فما ينتظر بي الأشقي⁽³⁾. قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبي عترته⁽⁴⁾، قال: إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيت؟ قال وكيع⁽⁵⁾ مرة: إذا لقيته، قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم⁽⁶⁾، وفي رواية: أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم⁽⁷⁾.

وبعد مقتل علي صلي عليه الحسن بن علي وكبير عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله صلى الله عليه وسلم، وسنة نبيه، وقاتل المحلّين، فقال له الحسن عليه السلام: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء

(1) الطبقات (35/3 - 38) تحقيق د. إحسان عباس.

(2) أي لتخضين لحيته من دم رأسه.

(3) مجمع الزوائد (9/139) مسند أحمد (2/325) حسن لغيره.

(4) نبي عترته: نهلك أقباءه، لسان العرب (4/538).

(5) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التفریب 581.

(6) مسند أحمد (2/325) حسن لغيره الموسوعة الحديثية.

(7) كشف الأستار عن زوائد البزار (3/204).

كل شرط: فبايعه وسكت، وبايعه الناس⁽¹⁾، وقد اشترط الحسن بن علي أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمته، وتحاربون من حاربت⁽²⁾، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمته، وتحاربون من حاربت⁽³⁾، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي بن أبي طالب، وبايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضي به⁽⁴⁾.

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن عليه السلام في التمهيد للمصلح فور استخلافه والذي سيأتي تفصيله لاحقاً بإذن الله تعالى، ومن دراستنا لبيعة الحسن نستنبط دروساً وعبراً وفوائد، منها:

أولاً: بطلان قضية النص على خلافة الحسن:

عند حديثنا عن بيعة الحسن عليه السلام تبرز أمامنا قضية يروج لها الشيعة الإمامية بقوة، ألا وهي قضية النص على خلافة الحسن عليه السلام من قبل والده علي بن أبي طالب عليه السلام⁽⁵⁾، وهذا الأمر يعد من المفتريات على أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث لم يصح النقل عنه بذلك، إن الشيعة الإمامية يعتقدون أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنها مثلها لطف من الله تعالى، ولا يجب أن يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة منصوب من الله تعالى، وليس للبشر حق اختيار الإمام وتعيينه، بل وليس للإمام نفسه حق تعيين من يأتي بعده، وقد وضعوا على لسان أئمتهم عشرات الروايات في ذلك، منها ما نسبوه إلى الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: أترون أن هذا الأمر إلينا نجعله حيث نشاء؟ لا والله ما هو إلا عهد من رسول الله رجل فرجل مسمى حتى تنتهي إلى صاحبها⁽⁶⁾، ويعتقد الشيعة الإمامية أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد نص على الأئمة من بعده وعينهم بأسمائهم وهم اثنا عشر إماماً لا يتقصون ولا يزيدون وهم:

1 - علي بن أبي طالب عليه السلام المرتضى توفي 40 هـ.

(1) تاريخ الطبري (73/6).

(2) المصدر السابق نفسه (77/6).

(3) الطبقات، تحقيق د. محمد الصلبي (1/286، 287).

(4) المصدر السابق نفسه (1/316، 317).

(5) فرق الشيعة للتريختي، ص 34، مرويات خلافة معاوية.

(6) الإمامة والنص، فيصل نور، ص 8.

- 2 - الحسن بن علي عليه السلام الزكي توفي 50 هـ.
- 3 - الحسين بن علي سيد الشهداء توفي 61 هـ عليه السلام.
- 4 - علي بن الحسين - زين العابدين - توفي 95 هـ.
- 5 - محمد بن علي الباقر توفي 114 هـ.
- 6 - جعفر بن محمد الصادق توفي 148 هـ.
- 7 - موسى بن جعفر الكاظم توفي 183 هـ.
- 8 - علي بن موسى الرضا توفي 203 هـ.
- 9 - محمد بن علي الجواد توفي 220 هـ.
- 10 - علي بن محمد الهادي توفي 254 هـ.
- 11 - الحسن بن علي العسكري توفي 260 هـ.
- 12 - محمد بن الحسن المهدي توفي 256 هـ.

وأساس عقيدة الوصية هو ابن سبأ، وكان ينتهي بأمر الوصية عند علي عليه السلام، ولكن جاء فيما بعد من عمها في مجموعة من أولاده، وكانت الخلايا الشيعية الإمامية تعمل بصمت وسرية، فينفون ذلك نفياً قاطعاً، كما فعل جدهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولذلك اخترع أولئك المفترون على أهل البيت «عقيدة الثقية» حتى يسهل نشر أفكارهم وهم في مأمن من تأثير الأتباع بمواقف أهل البيت الصادقة والمعلنة للناس⁽¹⁾.

إن من أخطر الأمور التي ابتدعتها الشيعة: الوصية، وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بالخلافة بعد وفاته مباشرة إلى علي عليه السلام، وأن من سبقه معتصبون لحقه كما جاء في كتابهم «الكافي»: من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وكان علياً عليه السلام ولكن بالاستقراء التاريخي لتاريخ الخلفاء الراشدين، لا نجد للوصية ذكراً في خلافة أبي بكر، ولا في عمر عليه السلام، وإنما نجد بداية ظهورها في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان عليه السلام، عند بزوغ قرن الفتنة، وقد استنكر الصحابة هذا القول عندما وصل إلى أسماعهم، وبنوا كذبه، ومن أشهر هؤلاء علي بن أبي طالب، وأم المؤمنين عائشة عليها السلام، ثم نرى هذا القول يتلور في فكرة موجّهة، وعقيدة تدعو إلى الإيمان بها والدعوة إليها، وذلك في خلافة علي عليه السلام، وهذه الوصية التي تدعيها الإمامية فقد أثبت علماءهم أنها من وضع عبد الله بن سبأ كما ذكر ذلك النويختي والكشي، وقد فصلت ذلك في كتابي «أسمى المطالب في سيرة

(2) أصول الكافي (2/16 - 17)

(1) أصول الشيعة الإمامية (2/800).

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ويكفي في الرد على زعمهم الباطل ما ورد بالنقل الصحيح عن عدد من الصحابة - عليهم السلام - ومنهم علي عليه السلام نفسه والأدلة كثيرة منها :

1 - ذكر عند عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصى إلى علي ، فقالت : من قاله ؟ لقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإني لمسندته إلى صدري ، فدعا بالطست ، فأنخت ، فمات ، فما شعرت ، فكيف أوصى إلى علي ⁽¹⁾ ؟ وتصريح عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يوص لي من أعظم الأدلة على عدم الوصية ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توفي في حجرها ولو كانت هناك وصية لكانت هي أدرى الناس بها ⁽²⁾ .

2 - وعن ابن عباس قال : إن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجعه الذي توفي فيه ، فقال الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سوف يتوفي في وجعه هذا ، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله ، فلنساله فيمن هذا الأمر ، إن كان قينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمنا فأوصى بنا ، فقال علي : إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها ، لا يعطيناها الناس من بعده ، وإني والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ⁽³⁾ .

وفي قوله رضي الله عنه شهادة للصحابة - رضوان الله عليهم - على مدى التزامهم بتنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلو كانت هناك وصية لما تخلف أحد عنه ، ولما عبرت الانتصار عن رأيها في السقيفة بحرية وشجاعة وصدق : منا أمير ومنكم أمير ⁽⁴⁾ ، ولبايعوا من عهد إليه الوصية ، أو على الأقل سيذكر بعضهم ، ولو كان هناك نص قبل ذلك لقال علي للعباس : كيف نسأله عن هذا الأمر فيمن يكون وهو قد أوصى لي بالخلافة ، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفس اليوم ، فلما لم يوجد شيء من ذلك تبين ما يُدعى من النص دعوى لا أساس لها من الصحة ، وكل ما أوردوه من ذلك من التصيص على علي مردود ، لمخالفته هذا النص الصريح من علي رضي الله عنه ، لأن كل أدلتهم السمعية إما أنها لا تدل على المدعى - وإما نصوص تدل على ذلك ولكنها موضوعة ⁽⁵⁾ .

3 - سئل علي رضي الله عنه : أحصكم رسول الله بشيء ؟ فقال : ما خصنا رسول الله بشيء لم يعم به الناس كافة ، إلا ما كان في قراب سيفي هذا ، قال : فأخرج صحيفة مكتوب فيها : «عن

(1) البخاري رقم : 1471 ، كتاب : الوصايا .

(2) بذل المجهود في إثبات مشابهة الرفضة لليهود (1/190) .

(3) البخاري ، كتاب : المغازي رقم : 4447 .

(4) البخاري ، كتاب : الحدود رقم : 6830 .

(5) الإمامة والرد على الرفضة ، تحقيق علي ناصر ققيهي ، ص 238 .

الله من ذبح لغير الله، ولعن من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من أوى محدثاً⁽¹⁾. قال ابن كثير: وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما عن علي رضي الله عنه يرد على فرقة الرافضة من زعمهم: أن رسول الله أوصى إليه بالخلافة، ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة، فإنهم كانوا أطوع لله ورسوله في حياته، وبعد وفاته من أن يفتتوا عليهم فيقدموا غير من قدمه، ويؤخروا من قدمه بنصه، حاشا وكلا! ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطؤ على معاندة الرسول ﷺ، ومضادتهم لحكمه ونصه، مع ما أنزل الله من ثناء عليهم بالقرآن، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام⁽²⁾، قال النووي: فيه إبطال ما تزعمه الرافضة والشيعية الإمامية بالوصية لعلي وغير ذلك من اختراعاتهم⁽³⁾.

4 - وعن عمرو بن سفيان قال: لما ظهر علي يوم الجمل قال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا من هذه الإمارة شيئاً حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر، فأقام واستقام حتى مضى لسبيله⁽⁴⁾.

5 - روى أبو بكر البيهقي بإسناده إلى شقيق بن سلمة، قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا تستخلف علينا؟ فقال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبهم على خيرهم⁽⁵⁾. فهذا دليل واضح من أن دعوى النص عليه رضي الله عنه إنما هو من اختلاق الرافضة الذين ملئت قلوبهم بالبخس والحقد لأصحاب رسول الله ﷺ بما فيهم علي وأهل بيته، وإنما يدعون حبهم تستراً ليشنى لهم الكيد للإسلام وأهله⁽⁶⁾.

بهذه النصوص القطعية يتضح بجلاء: أن لا أصل للوصية المزعومة وأن ما اعتمد عليه الإمامية هو من وضع عبد الله بن سبأ الذي هو أول من أحدث الوصية، ثم وضعت بعد ذلك أسانيد وركبت متون نسبوها زوراً وبهتاناً إلى النبي ﷺ وهدفهم من ذلك الطعن في الصحابة رضوان الله عليهم لمخالفتهم أمر الرسول ﷺ، وإجماعهم على ذلك، ومن ثم الطعن ورد ما نقلوه إلى أجيال المسلمين من قرآن وحديث⁽⁷⁾.

(1) مسلم (3/1567) رقم: 1978. (2) البداية والنهاية (5/221).

(3) شرح، صحيح مسلم (13/151).

(4) الاعتقاد، ص 184، وقال البيهقي في دلائل النبوة: سنده حسن.

(5) الاعتقاد، ص 184، إسناده جيد.

(6) عقيدة أهل السنة في الصحابة (2/620).

(7) خلافة علي بن أبي طالب، علي عبد الحميد، ص 65.

قال ابن تيمية رحمته الله عن رده علي الحلبي: وأما النص على علي فليس في شيء من كتب أهل الحديث المعتمدة، وأجمع أهل الحديث على بطلانه، حتى قال أبو محمد بن حزم: ما وجدنا قط رواية عند أحد في هذا النص المدعى إلا رواية إلى مجهول يكنى أبا الحمراء لا نعرف من هو في خلق الله⁽¹⁾، وقال في موضع آخر: فعلم أن ما تدعيه الشيعة من النص هو مما لم يسمعه أحد من أهل العلم بأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله قديماً ولا حديثاً، ولهذا كان أهل العلم بالحديث يعلمون بالضرورة كذب هذا النقل، كما يعلمون كذب غيره من المنقولات⁽²⁾.

وقد جاء من الغلاة فيما بعد من أحيا نظرية ابن سبأ في أمير المؤمنين علي، ثم عمموها على آخرين من سلالة علي والحسين في إثارة مشاعر الناس وعواطفهم، والدخول إلى قلوبهم، لتحقيق أغراضهم ضد الدولة الإسلامية في ظل هذا الستار، وأول من بدأ يشيع القول بأن الإمامة محصورة بأناس مخصوصين في آل البيت، شيطان الطاق الذي تلقبه الشيعة مؤمن الطاق⁽³⁾، وأنه حينما علم بذلك زيد بن علي عليه السلام بعث إليه ليقف على حقيقة الإشاعة، فقال له زيد: بلغني أنك تزعم أن في آل محمد إماماً مفترض الطاعة؟ قال شيطان الطاق: نعم، وكان أبوك علي بن الحسين أحدهم، فقال: وكيف وقد كان يؤتى بلقمة وهي حارة فيبردها بيده ثم يلغمونها، أفترى أنه كان يشفق علي من حر اللقمة، ولا يشفق علي من حر النار؟ قال شيطان الطاق: قلت له: كره أن يخبرك، فتكفر، فلا يكون له فيك شفاعة⁽⁴⁾.

وهذه القصة المروية في أوثق كتب الرجال عندهم تبين أن هذه النظرية كانت سرية التداول لدرجة أنها خفيت على إمام من أئمة أهل البيت وهو الإمام زيد، وقد بين محب الدين الخطيب: أن شيطان الطاق هو أول من اخترع هذه العقيدة الضالة، وحصر الإمامة والتشريع وادعى العصمة لأناس مخصوصين من آل البيت⁽⁵⁾.

وقد شارك شيطان الطاق رجل آخر هو هشام بن الحكم المتوفى 179هـ⁽⁶⁾، ويبدو أن عقيدة حصر الإمامة بأناس معينين سرت في الكوفة⁽⁷⁾، بسمي مجموعة من أتباع هشام وشيطان الطاق، ففكرة حصر الأئمة بعدد معين قد وضع جذورها في القرن الثاني زمرة ممن يدعي الصلة بأهل البيت⁽⁸⁾، أمثال شيطان الطاق وهشام بن الحكم⁽⁹⁾.

(1) المنهاج (8/362)، (الفصل 4/161).

(2) المنهاج (7/50).

(3) أصول الشيعة الإمامية (2/800).

(4) رجال الكشي، ص 186.

(5) مجلة الفتح، ص 5، العدد 862 عام 1367 هـ.

(6) أصول الشيعة الإمامية (2/803).

(7) بحار الأنوار (1/259)، أصول الشيعة الإمامية (2/805).

(8) أصول الشيعة (2/806).

(9) المصدر السابق نفسه (2/806).

ولقد اختلفت اتجاهات الشيعة وتباينت مذاهبهم في عدد الأئمة، قال في مختصر التحفة: اعلم أن الإمامية قائلون بانحصار الأئمة، ولكنهم مختلفون في مقدارهم، فقال بعضهم: خمسة، وبعضهم سبعة، وبعضهم ثمانية، وبعضهم: اثنا عشر، وبعضهم ثلاثة عشر⁽¹⁾، والغريب أن القائلين بنظرية الإمامة الإلهية انقسموا إلى عدة فرق، كل فريق منهم ينقل روايات مناقضة للآخر في إمامة من يراه، ثم ينسبون ذلك لعلي عليه السلام. وكتب الشيعة الإمامية نقلت صورة هذا التباين والتناقض سواء كانت من كتب الإسماعيلية بمسائل الإمامة للناشئ الأكبر، أو الزينة لأبي حاتم الرازي، أو من كتب الاثني عشرية مثل: المقالات والفرق للأشعري القمي، وفرق الشيعة للنبوختي، وقضية الإمامة عندهم ليست بالأمر الفرعي الذي يكون فيه الخلاف أمراً عادياً، بل هي أساس الدين وأصله المتين، ولا دين لمن لم يؤمن بإمامهم ولذلك يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً⁽²⁾.

أما الاثنا عشرية فقد استقر قولها - فيما بعد - بحصر الإمامة في اثني عشر إماماً، ولم يكن في العترة النبوية بني هاشم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم من يقول بإمامة الاثني عشر⁽³⁾، إنما عرف الاعتقاد باثني عشر إماماً بعد وفاة الحسن العسكري⁽⁴⁾.

إن حصر الأئمة بعدد معين عقيدة فاسدة باطلة، وأمير المؤمنين علي وأولاده وأحفاده براء منها، ففي كتب الشيعة المعتمدة في نهج البلاغة، عن علي عليه السلام قال: دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول⁽⁵⁾، وإن الآفاق قد أغامت⁽⁶⁾، والمصححة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أحببتكم ركبت لكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم وعلي أسعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً⁽⁷⁾، فلو كانت إمامة علي منصوباً عليها من الله تعالى لما جاز لعلي بن أبي طالب تحت أي ظرف من الظروف أن يقول للناس: «دعوني والتمسوا غيري» ويقول: أنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً، كيف والناس تريده وجاءت تبايعه⁽⁸⁾.

ويقول في النهج كلاماً أكثر صراحة وأشد وضوحاً حين يقول: إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن

(1) مختصر التحفة، ص 193.

(2) أصول الشيعة الإمامية (2/ 807).

(3) منهاج السنة (2/ 11).

(4) أصول الشيعة الإمامية (2/ 808).

(5) لا تصير له ولا تطيق احتماله.

(6) أغامت: غطيت بالغيوم.

(7) نهج البلاغة، خطبة رقم: 92، ص 236.

(8) ثم أبصرت الحقيقة، ص 158.

يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل سمّوه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى⁽¹⁾، وقد أثار أمير المؤمنين بهذه العبارة حقائق جديرة بالاهتمام حيث جعل:

- الشورى للمهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ويدهم الحل والعقد.
- اتفاقهم على شخص سبب لمرضاة الله وعلامة لموافقة سبحانه وتعالى إياهم.
- لا تتعد الإمامة في زمانهم ودونهم وبغير اختيارهم.
- لا يرد قولهم ولا يخرج عن حكمهم إلا المتدع الباغي المنع غير سبيل المؤمنين، فأين هم الشيعة الاثني عشرية عن هذه التصريحات الهامة⁽²⁾؟

إن مسألة النص لا تثبت بأي وجه من الوجوه، ومسألة حصر الأئمة بعدد معين مردودة بالكتاب والسنة، كما أنه لا يقبلها العقل ومنطق الواقع، إذ بعد انتهاء العدد المعين هل تظل الأمة بدون إمام؟ ولذلك فإن عصر الأئمة الظاهرين عند الاثني عشرية لا يتعدى قرنين ونصف إلا قليلاً وهم من ذلك الوقت إلى الآن بدون إمام بشكل فعلي وواقعي مما ترتب على وضعهم هذا فقدانهم كل ما يزعمون من مبرر ضروري، أو مصلحة ضرورية من وجود إمام معصوم وهذا تناقض ظاهر، وقد اضطر الشيعة للخروج عن حصر الأئمة بمسألة نيابة المجتهد عن الإمام، واختلف قولهم في حدود النيابة، وفي هذا العصر اضطروا للخروج نهائياً عن هذا الأصل الذي هو قاعدة دينهم، فجعلوا رئاسة الدولة تتم عن طريق الانتخاب، ولكنهم خرجوا عن حصر العدد إلى حصر النوع فقصروا رئاسة الدولة على الفقيه الشيعي⁽³⁾، وهو فعلياً غير معصوم بالاتفاق ولا عنده نص يخوّله للإمامة وهم بهذا الأمر نسخوا فعلياً نظرية الإمامة التي شقوا بها صفوف الأمة، فأصبح الإنسان العادي حتى ولو كان من غير أهل البيت يستطيع أن يحكم ويقود بحجة أنه فقيه.

وقد فضل الأستاذ أحمد الكاتب تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، وتحدث عن أمير المؤمنين الحسن بن علي عليه السلام والشورى، وبيّن بوضوح أن الحسن بن علي لم يعتمد في دعوة الناس لبيعتة على ذكر أي نص حوله من الرسول صلى الله عليه وآله أو من أبيه أمير المؤمنين علي، وتحدث عن إيمان الحسن بن علي بنظام الشورى وحق الأمة في انتخاب

(1) نهج البلاغة، كتاب: إلى معاوية رقم: 8، ص 526.

(2) ثم أبصرت الحقيقة، ص 161.

(3) الحكومة الإسلامية للخميني، ص 248، أصول الشيعة (2/814).

إمامها، وقد تجلى هذا الإيمان مرة أخرى عند تنازله عن الخلافة إلى معاوية، واشترطه عليه العودة إلى نظام الشورى بين المسلمين، ولو كانت الخلافة بالنص من الله والتعيين من الرسول، كما تقول النظرية الإمامية، لم يكن يجوز للإمام الحسن أن يتنازل عنها لأي أحد تحت أي ظرف من الظروف، ولم يكن يجوز له بعد ذلك أن يبايع معاوية أو أن يدعو أصحابه وشيعته لبيعته، ولم يكن يجوز له أن يهمل الإمام الحسين، ولأشار إلى ضرورة تعيينه من بعده ولكن الإمام الحسن لم يفعل أي شيء من ذلك، وسلك مسلكاً يوحى بالتزامه بحق المسلمين في انتخاب خليفتهم عبر نظام الشورى، وقد ظل الشهيد الحسين عليه السلام ملتزماً ببيعة معاوية إلى آخر يوم من حياة الأخير، ورفض عرضاً من شيعة الكوفة بعد وفاة أمير المؤمنين الحسن بالثورة على معاوية، وذكر إن بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه، ولم يدع إلى نفسه إلا بعد وفاة معاوية الذي عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة بعده، حيث رفض الحسين البيعة له وأصرَّ على الخروج إلى العراق حيث استشهد في كربلاء عام 61هـ⁽¹⁾.

ثانياً: ما يحتاج به الشيعة الاثنا عشرية في أمر تحديد عدد الأئمة بما جاء في كتب السنة:

عن جابر بن سمرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يكون اثنا عشر أميراً». فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: «كلهم في قریش»⁽²⁾. وفي مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشرة خليفة». ثم قال كلمة لم أفهمها. فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: «كلهم من قریش»⁽³⁾. وفي لفظ: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيباً إلى اثني عشر خليفة»⁽⁴⁾، وفي لفظ آخر: «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم تجتمع عليهم الأئمة»⁽⁶⁾.

وأخرجه أبو داود أيضاً من طريق الأسود بن سعيد عن جابر بنحو ما مضى قال: وزاد: فلما رجع إلى منزله أتته قریش فقالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: «الهرج»⁽⁷⁾.

يتعلق الشيعة الاثنا عشرية بهذا النص ويحتجون به على أهل السنة، لا لإيمانهم بما جاء

(1) تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص 17، 18.

(2) البخاري، كتاب: الأحكام، باب الاستخلاف (127/8).

(3) مسلم، كتاب: الإمارة، باب الناس (1453/2).

(4) مسلم، كتاب: الإمارة، باب الناس (1453/2).

(5) مسلم، كتاب: الإمارة، باب الناس (1453/2).

(6) سنن أبي داود، كتاب: المهدي (471/4).

(7) سنن أبي داود (472/4)، فتح الباري (211/13).

في كتب السنة⁽¹⁾، ولكن للاحتجاج عليهم بما يسلمون به، وبالتأمل في النص بكل حيدة وموضوعية نجد أن هؤلاء الاثني عشر وصفوا بأنهم يتولون الخلافة، وأن الإسلام في عهدهم يكون في عزة ومنعة، وأن الناس تجتمع عليهم، ولا يزال أمر الناس ماضياً وصالحاً في عهدهم، وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعي الاثنا عشرية فيهم الإمامة، فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي والحسن، كما لم يقم أمر الأمة في مدة أحد من هؤلاء الاثني عشر - في نظر الشيعة أنفسهم - بل ما زال أمر الأمة فاسداً. ويتولى عليهم الظالمون بل الكافرون⁽²⁾، وأن الأئمة أنفسهم كان يسترون في أمور دينهم بالتقية⁽³⁾، وأن عهد أمير المؤمنين علي وهو على كرسي الخلافة عهد تقية، كما صرح بذلك شيخهم المفيد⁽⁴⁾، فلم يستطع أن يظهر القرآن، ولا أن يحكم بجملة من أحكام الإسلام، كما صرح بذلك شيخهم الجزائري⁽⁵⁾، واضطر إلى ممالأة الصحابة ومجاراتهم على حساب الدين، كما أقر بذلك شيخهم المرتضى⁽⁶⁾.

فالحديث في جانب، ومزاعم هؤلاء في جانب آخر، ثم إنه ليس في الحديث حصر للأئمة بهذا العدد، بل نبوءة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيزاً في عصور هؤلاء، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية عصر عزة ومنعة⁽⁷⁾، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم، ثم استشهد بحديث: «لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش». ثم قال: وهكذا كان، فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم تولى من اجتمع الناس عليه وصار له عز ومنعة، معاوية وابنه يزيد ثم عبد الملك وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل من النقص ما هو باق إلى الآن. ثم شرح ذلك⁽⁸⁾.

ثم إنه قال في الحديث: «كلهم من قريش»⁽⁹⁾، وهذا يعني أنهم لا يختصون بعلي وأولاده: ولو كانوا مختصين بعلي وأولاده لذكر ما يميزون به، ألا ترى أنه لم يقل: كلهم من ولد إسماعيل ولا من العرب، فلو امتازوا بكونهم من بني هاشم، أو من قبيل علي لذكروا بذلك، فلما جعلهم من قريش مطلقاً علم أنهم من قريش، بل لا يختصون بقبيلة، بل بنو تيم وبنو عدي، وبنو عبد شمس، وبنو هاشم، فإن الخلفاء الراشدين كانوا من هذه القبائل⁽¹⁰⁾،

- | | |
|-----------------------------------|--|
| (1) أصول الشيعة الإمامية (2/815). | (2) منهاج السنة (4/210) المتقى، ص 533. |
| (3) أصول الشيعة الإمامية (2/816). | (4) المصدر السابق نفسه (2/816). |
| (5) المصدر السابق نفسه (2/816). | (6) المصدر السابق نفسه (2/816). |
| (7) المصدر السابق نفسه (2/816). | (8) منهاج السنة (4/206). |
| (9) مسلم (2/1453). | (10) منهاج السنة (4/211). |

فإذن لم يبق من الأوصاف التي تنطبق على ما يريدون إلا مجرد العدد، والعدد لا يدل على شيء⁽¹⁾.

ثالثاً: مدة خلافة أمير المؤمنين الحسن ومعتقد أهل السنة في خلافته:

استمر أمير المؤمنين الحسن بن علي بعد بيعته خليفة على الحجاز واليمن والعراق وغير ذلك نحو سبعة أشهر، وقيل ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وكانت خلافته هذه المدة خلافة راشدة حقة لأن تلك المدة كانت تامة لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر النبي ﷺ أن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً⁽²⁾، فقد روى الترمذي بإسناده إلى مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»⁽³⁾، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً⁽⁴⁾، وبذلك يكون الحسن بن علي رضي الله عنهما خامس الخلفاء الراشدين⁽⁵⁾ وعند الإمام أحمد من حديث سفينة أيضاً بلفظ: «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك»⁽⁶⁾. وعند أبي داود بلفظ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يوتي الله الملك من يشاء، أو: ملكه من يشاء»⁽⁷⁾، ولم يكن في الثلاثين بعده ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن، وقد قرر جمع من أهل العلم عند شرحهم لقوله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة». أن الأشهر التي تولى فيها الحسن بن علي بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها فقد قال كل من:

1 - أبو بكر بن العربي رحمته الله: فنفذ الوعد الصادق في قوله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً». فكانت لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وللحسن منها ثمانية أشهر لا تزيد ولا تنقص يوماً، فسبحان المحيط لا رب غيره⁽⁸⁾.

(1) أصول الشيعة (2/818).

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (2/743).

(3) سنن الترمذي مع شرحها تحفة الأحوذني (6/395 - 397) حديث حسن.

(4) البداية والنهاية (11/134).

(5) مآثر الإنافة (1/105)، مرويات خلافة معاوية، خالد الغيث، ص 155.

(6) فضائل الصحابة (2/744) إسناده حسن.

(7) صحيح سنن أبي داود (3/879)، سنن أبي داود (2/515).

(8) أحكام القرآن لابن العربي (4/1720).

2 - وقال القاضي عياض: ؑ لم يكن في ثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة، والأشهر التي بويع فيها الحسن بن علي . . والمراد في حديث: «الخلافة ثلاثون سنة» خلافة النبوة، فقد جاء مفسراً في بعض الروايات: «خلافة النبوة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً»⁽¹⁾.

3 - وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في دلائل النبوة⁽²⁾ من طريق سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً»، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي⁽³⁾.

4 - وقال شارح الطحاوية: وكانت خلافة أبي بكر الصديق ستين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثني عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر⁽⁴⁾.

5 - وقال المناوي: بعد ذكره لقوله ﷺ: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»⁽⁵⁾، قال: وكان ذلك فلما بويع له بعد أبيه وصار هو الإمام الحق مدة ستة أشهر تكملة للثلاثين سنة التي أخبر المصطفى ﷺ أنها مدة الخلافة وبعدها يكون ملكاً⁽⁶⁾.

6 - وقال ابن حجر الهيثمي: هو آخر الخلفاء الراشدين بتصُّ جدِّه ﷺ، ولي الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام بها ستة أشهر وأياماً، خليفة حق وإمام عدل وصدق، تحقيقاً لما أخبر به جده الصادق المصدوق بقوله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»⁽⁷⁾، فإن تلك السنة الأشهر هي الكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها وقام عليها إجماع من ذكر، فلا مرية في حقيقتها⁽⁸⁾.

إن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن خلافة الحسن بن علي كانت خلافة حقة، وأنها جزء مكمل لخلافة النبوة التي أخبر النبي ﷺ أن مدتها ستكون ثلاثين سنة⁽⁹⁾.

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (12/201).

(2) البداية والنهاية (11/134).

(3) المصدر السابق نفسه (11/134).

(4) شرح الطحاوية، ص 545.

(5) البخاري (7/94).

(6) فيض القدير (2/409).

(7) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (2/397).

(8) المصدر السابق نفسه (2/397).

(9) عقيدة أهل السنة في الصحابة (2/748).

رابعاً: خطب لا تصح للحسن بعد مقتل والده:

ونورد هنا المبحث لمعرفة الباطل والتحذير منه كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وقد اخترع الشيعة الإمامية الكثير من الخطب ونسبوا كذباً وبهتاناً للحسن بن علي عليه السلام

وإليك نماذج من ذلك منها:

.. أيها الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا الحسن بن علي. أنا

البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله ﷻ بإذنه وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الشورى: 23]. فاقتراف الحسن مودتنا أهل البيت⁽¹⁾.

ونسجوا خطبة لأبي الأسود الدؤلي إلى أن قالوا:

.. ثم بكى حتى اختلفت أضلعه ثم قال: وقد أوصى بالإمامة بعده إلى ابن

رسول الله ﷺ وابنه وسليبه وشبيهه في خلقه وهديه، وإني لأرجو أن يجبر الله به ما وهي، ويسد به ما انثلم، ويجمع به الشمل، ويظفي به نيران الفتنة فبايعوه ترشدوا، فبايعت الشيعة كلها وتخلف ناس ممن كان يرى رأي العثمانية وهربوا إلى معاوية⁽²⁾.

وذكروا رسائل مطولة من الحسن إلى معاوية يدعوه لبيعته ويدلي بحجته وأحقته، وهي لا

تثبت من حيث السند وال متن وإنما ذكرت في كتب الشيعة الرافضة العارية من الأسانيد الصحيحة، المتعارضة مع ما ثبت عن الحسن بن علي في خلافته⁽³⁾، ويكفي أن تلك المراجع تحدث فيها علماء أهل السنة، وبينوا زيفها وبطلانها وأنها ليست بحجة في مجال الاعتقاد والأحكام والعلاقة بين الصحابة الكرام، ويكفي أن النصوص السالفة الذكر من كتاب مقاتل الطالبين، والأغاني للأصفهاني، ومن كتاب نهج البلاغة، وقد تحدث العلماء عن الأصفهاني وكتابه وكذلك «نهج البلاغة» فقالوا:

1 - الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني:

يعتبر كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني كتاب أدب وسمر وغناء ومجون، وليس كتاب

(1) مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص 51 - 52.

(2) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (1/121).

(3) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للمصر الأموي، محمد ماهر حمادة، ص 90 إلى 95.

علم وتاريخ وقته، وله طنين ورنين في آذان أهل الأدب والتاريخ، ولقد تحدث العلماء فيه قديماً فقالوا:

* قال الخطيب البغدادي: كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس، كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ثم تكون كل رواياته منها.

* قال ابن الجوزي: . . . ومثله لا يوثق بروايته، يصح فيه كُتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني، رأى كل قبيح ومنكر⁽¹⁾.

* قال الذهبي: رأيت شيخنا تقي الدين ابن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله، ويستهلل ما يأتي به⁽²⁾.

وقد تحدث عنه بعض المعاصرين فقالوا:

* قال الأستاذ شوقي أبو خليل مقوماً مصادر فيليب حُتي في كتابه (تاريخ العرب المطول) ما نصه: واعتمد حتى على كتاب الأغاني للأصفهاني، وهو ليس كتاب تاريخ يعتمد أيضاً، إنه كتاب أدب، وهذا لا يعني مطلقاً أن كل كتاب أدب لا يؤخذ به، بل يعتمد إن كان صاحبه ثقة، معروفاً عنه الأمانة في النقل والرؤية. إن كتاب الأغاني الذي جعله حُتي مرجعاً تاريخياً معتمداً، صاحبه منهم في أمانته الأدبية والتاريخية، جاء في ميزان الاعتدال في نقد الرجال: أن الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب بـ«حدثنا وأخبرنا». ومن يقرأ الأغاني يرى حياة العباسيين لهواً ومجوناً وغناء وشراباً. وهذا يناسب المؤلف وخياله وحياته، ومن يرجع إلى كتب التاريخ الصحيحة يجد صورة أخرى فيها علم وجهاد وأدب، فكتاب الأغاني ليس كتاب تاريخ يحتاج به⁽³⁾.

* وقال أبو عبيدة مشهور بن حسن آل مشهور: . . لا بد من ذكر أمر هام تفتن إليه بعض الباحثين وهو: أن أهواء وميول أبي فرج الشيعية لها دور بارز ظهر فيما دونه في كتابه هذا، قال الدكتور محمد أحمد خلف الله في خاتمة كتابه (أبو الفرج الأصفهاني) ما نصه: ولقد وقفنا على ما لأبي فرج من ميول وأهواء، فيجب أن نحذر هذه الميول وهذه الأهواء كلما حاولنا الاعتماد على ما خلف الرجل من مرويات، فقد يكون الرجل مضللاً، وقد يكون صاحب

(1) المتظم (40/7، 41).

(2) ميزان الاعتدال (123/3).

(3) موضوعية فيليب حُتي في كتابه تاريخ العرب المطول، ص 187.

غرض وهوى، وليس يخفى أن للأهواء حكمها في التاريخ، وهو حكم قد يملئ رغبته لا في ذكر الأخبار فحسب وإنما أيضاً في الكتمان⁽¹⁾.

وأخيراً لماذا هذا التحذير؟ وقد يتساءل البعض: لماذا هذا التفصيل في التحذير من هذا الكتاب؟ والجواب: كان هذا التحذير لأسباب كثيرة هي:

- أ - لشهرة هذا الكتاب وصيته الذائع.
- ب - لاعتماد كثير من أهل التعريب عليه.
- ج - لما حواه من أخبار فيها قدح في الإسلام والصحابة والخلفاء والولاة الصالحين العادلين.

د - لحرص غير واحد من المعاصرين على إظهار ما فيه على أنه حق وصدق، وقد كتب في ذلك وحرص عليه شفيق جبيري في كتاب (دراسة الأغاني) الذي وضعه بتشجيع من طه حسين والخلاصة أن هذا الكتاب على الرغم من قيمته الأدبية وأسلوبه القوي الأخاذ، إلا أن أخباره ومادته تحتاج إلى وقفات ونقذات⁽²⁾.

* قال الأستاذ وليد الأعظمي في كتابه السيف اليماني في نحر الأصفهاني في مقدمة كتابه بعد كلام:

من هنا بدأت أنظر إلى كتاب الأغاني نظرة جديدة، ورجعت إلى كتب التضعيف، والتوثيق والجرح والتعديل، فوجدت الأصفهاني رجلاً غير مأمون، ولا يوثق به عند علمائنا الأجلاء المدققين الممحصين، وسلخت من عمري ستين كاملتين متفرغاً لكتاب الأغاني أتملى نصوصه، وأقواله، وأقف عند كل خير من أخباره، حتى فليت سطره وكلماته، واستخرجت قلمه من بين شعراته، واصطبرت عليه اصطبار المجاهدين المرابطين على الثغور، فرأيت نيران الشعوبية والحقد وهي تغلي في الصدور كغلي القدور، وشعرت بنبال الأعداء تتوجّه إلينا، وسهامهم تتثال علينا، ورددت قول الشاعر:

لو كان سهماً واحداً لأتقنيتهُ ولكنّه سهم وثانٍ وثالث

فשמرت عن ساعد الجد لأمير الهزل من الجدّ والسّم من الشهد، . . ورحت أفحص رجال السنن الذين روى عنهم الأصفهاني، وبحثت عنهم في كتب نقد الرجال، وقرأت ما جاء فيهم من أقوال، فوجدت فيهم كل داهية دهياء، وبليّة سوداء عمياء، من الكذابين

(1) أبو الفرج الأصفهاني، ص 235، كتب حذر منها العلماء (2/30).

(2) كتب حذر منها العلماء (2/30، 31).

والمجروحين والمطعون عليهم، فعزلت أولئك الكذابين وعرّفت بهم، ثم رحّت أحصي روايات الأصفهاني عن كل واحد من هؤلاء، وهالتي ما رأيت من الاعتماد على أولئك الكذابين والرواية عنهم، والاستقاء من دلائلهم، والاستنشاء بنارهم، ورأيت نفسي في وادٍ سحيق رهيب، ودخلت في كهف مظلم كئيب وإذا كان أولئك الرواة يكذبون في رواية الحديث النبوي الشريف، فكيف بهم في أخبار الناس وقد توزّعوا إلى مذاهب وفرق وطوائف، تتجاذبهم الأهواء والمشارب والمنافع، وتتقاذف بهم المقاصد والأهداف؟

وإذا كان الأغاني كتاب أدب وسمر وغناء وليس كتاب علم وتاريخ وفقه، فليس معنى ذلك أن نكسب عمّا ورد فيه من الدس والكذب الفاضح والظعن والمعاييب، وقد جمع فيه الأصفهاني كثيراً من أخبار السيرة والتفسير والفقه والأدب. إلى أن قال: . . . واحتوى الفصل الثاني أخباراً وحكايات أوردها الأصفهاني عن آل البيت النبوي الشريف، وهي أخبار تسيء إليهم، وتجرح سيرتهم، وتشوه سلوكهم، وتوهن أمرهم بما يوافق هوى آل بويه الذين يزعمون الولاء لأن البيت كذباً وزوراً، وقد ناقشت تلك الأخبار وعلّقت على كل حكاية بما يناسبها. . . وجعلت الفصل الرابع للأخبار والحكايات المتفرقة التي طعن فيها الأصفهاني بالعقائد الإسلامية، ولعن دين الإسلام وتفضيل الجاهلية على الإسلام، مع الكفر البواح والاستخفاف بالصلاة والحج ويوم القيامة، مع دفاع عن البرامكة وإشادة بالفرس، وطعن مختلف بأعلام العرب والمسلمين، وناقشت كل تلك الأخبار، وعلّقت عليها بما يناسب أيضاً⁽¹⁾.

إلى أن قال في الخاتمة: بعد هذه الجولة الواسعة في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والوقوف عند أخباره ومناقشتها والتعليق عليها، أرجو أن يكون القارئ الكريم قد تبيّن مقاصد هذا الشعبي الحاقد اللئيم، وقد غضضت وصرفت القلم عن أخبار فظيعة وحكايات شنيعة لا يكتبها أشد الناس عداوة وبغضاً للعرب والمسلمين، فقد أنّهم كثيراً من أعلامهم باللواط، وكريم نساتهم بالسحاق، وألصق بهم السخائم من ذميم الخصال وتبيح الفعال، مستتراً بظلال الأدب والسمر والمذاكرة والمؤانسة، كأن ذلك لا يحصل إلا بشتم سلف هذه الأمة المجيدة في تاريخها وحلّقتها⁽²⁾.

* وقال أنور الجندي: ركز التفریب والغزو الثقافي على كتابي (الأغاني) و(ألف ليلة وليلة) تركيزاً شديداً بهدف رفعهما إلى مرتبة المراجع الأساسية التي يعتمد عليها في تصوير المجتمع الإسلامي، مع تجاهل عيوب الكتّابين التي تحول دون اعتمادها في المصادر الموثوق بها: أما الأول: فكانته شعوبي عدو للإسلام، وأما الثاني فهو كتاب لقيط ليس مؤلف.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 264.

(1) السيف البعاني، ص 10 - 13.

أما كتاب الأغاني: فهو موسوعة في بضع وعشرين مجلداً، وضعها أبو فرج الأصفهاني ليسامر بها الأمراء والفارغين من المترفين في أسفار الليل، ولم يقصد بها إلى العلم أو التاريخ، وكان الأصفهاني في نفسه إنساناً رافضياً لمجتمع المسلمين والعرب، وله ولاء بالمولد والفكر جميعاً إلى خصوم المسلمين والباطنية والرافضة وغيرهم، ولم يكن عمله هذا إلا نوعاً من الحرب العنيفة التي شنتها الشعوبية على الإسلام والمسلمين، رغبة في هدم فكرهم كوسيلة إلى هدم مجتمعهم، وقد حرص التغريب وأصحاب نظرية النقد الأدبي الغربي الوافدة على إلقاء الأضواء الساطعة على هذا الكتاب وإحيائه، واعتباره مرجعاً في الدراسات الأدبية ومصدراً لتصوير المجتمع الإسلامي، وكان الدكتور طه حسين جزاءه الله بما هو أهله من أبرز من دعوا إلى ذلك وألحوا عليه، فقد عمد إلى الأغاني نفسها، فأصدر اعتماداً على قصصها أحكاماً زائفة على مجتمع المسلمين وتاريخهم أراد بها المساهمة في عملية التغريب الضخمة والتي كانت تجري في الثلاثينيات من هذا القرن⁽¹⁾.

وقال: على أن أقل مواجهة لسيرة الأصفهاني تكشف عن أنه كان من الشعوبيين، وقد عرف بالتحايل والإغراق، وأثبت كثير من الباحثين والمؤرخين أنه لم يكن مؤرخاً وأكدوا أن كتابه لا يصلح لأن يكون مادة تاريخ، وإنما هو جماع لقصص وجدها في الكتب والأسواق وأراد بها أن يسجل للأغاني والمغنين، وهو جانب واحد في حياة المجتمع الإسلامي الحافل بالجوانب السياسية والاجتماعية والفقهية والصوفية، وقد شهد عليه الكثير من معاصريه ومؤرخيه بالانحراف، ودمغه المؤرخ اليوسفي بشهادة هي في نظر العلماء كمصدر موثوق به، إذ قال: إن أبي الفرج أكذب الناس، لأنه كان يدخل سوق الوراقين وهي عدة من الدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري منها شيئاً كثيراً في الصحف ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها⁽²⁾، وذكر عنه صاحب معجم الأدباء قوله: كان شأنه في معاقره الخمر، وحب الغلمان، ووصف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا في عصره أو قبله، حيث يقدم دهاقين الخمارين، وجلهم من النصارى واليهود والصابئين والمجوس، وقد عرف بمعاقرته للخمر ولم تكن له عناية بتنظيف جسمه وثيابه⁽³⁾.

ثم قال أنور الجندي: ولست أدري كيف يصلح مثل هذا الكتاب مرجعاً في نظر الباحثين أو يمكن أن يؤتمن على رأي أو قول، ولقد عودتنا مناهج الفكر الإسلامي أن تنظر إلى كاتبه،

(1) مؤلفات في الميزان، ص 100، كتب حذر العلماء منها (38/2).

(2) كتب حذر العلماء منها (38/2).

(3) معجم الأدباء (5/153).

فإن وجدناه كريماً أميناً موضع تقدير الناس بالصدق والحق، قبلنا منه، وإلا رفضنا ما يقدمه ولو كان صادقاً في بعضه⁽¹⁾.

ثم قال تحت عنوان (كتاب مجنون وخلاعة) ما نصه: فقد كان الأصفهاني مسرفاً، أشنع في الإسراف في الملهذات والشهوات، وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدد والرزاة والتجمل والاعتسال، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه، ونظرة فيما كتبه جرجي زيدان في كتابه: تاريخ آداب اللغة العربية، وما كتبه طه حسين في «حديث الأربعة» تكفي للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الحط من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية، وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون ولا شك أن إكثار الأصفهاني من تتبع سقطات الشعراء وتلمس هفوات الكتاب جعل في كتابه جواً مشعباً بأوزار الإثم، والغواية، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالترف والطيش⁽²⁾.

إن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون إلى أن لروايات الأغاني قيمة تاريخية، وأن ينوا على أساسها ما يثرون من حقائق التاريخ، ولقد كان من أخطر أعمال التفرغيب هو توجيه الباحثين إلى اتخاذ الأغاني مصدراً لدراسة المجتمع الإسلامي، بينما قصر عند جانب واحد هو جانب اللهو، ولم يتعرض للجوانب الأخرى الجادة في المجتمع وهي متعددة، ومن هنا يرحي حين الاعتماد عليه كمصدر أن الحياة الإسلامية في القرن الثاني الهجري كانت لهواً، وهو ما صرح به طه حسين ورده الكثيرون وكشفوا زيفه..

كذلك اعتمد المشرق لامنس على كتاب الأغاني في كتابه (تاريخ بني أمية)، وكذلك ما أورده المشرق فلهوزن في كتابه «الدولة العربية وسقوطها» ويحاول جبور عبد الثور أن يدافع عن الأصفهاني فيسأل: أفمن الضروري إن كان المؤرخ فاسقاً أو مسرفاً يتبع الإسراف في اللذات والشهوات أن لا يكون مؤرخاً، وألا يكون صادقاً فيما يروي أو يقول أو يكتب؟ ونحن نقول له: نعم، في فكرنا الإسلامي، فإن لم يكن في الفكر الغربي كذلك، فهذا أمر آخر، إن فكرنا الإسلامي وضع قواعد البحث والنقد والعلم على أساس الارتباط الجذري بين

(1) مؤلفات في الميزان، ص 100 إلى 103.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 100 إلى 103، نقلاً عن كتب حذر العلماء منها (40/2).

علم الباحث وشخصيته، فإن كان منحرفاً في حياته، مضطرباً في شخصيته، بعيداً عن الأخلاق والدين، فنحن نرفضه مصدراً علمياً ولا نقبل له شهادة، والأصفهاني بشهادة الجميع من أنصاره وخصومه على السواء مهدور الرأي ساقط الشهادة، وإن فسقه الشخصي قد أدخل كثيراً من هواء على ما أورده، فضلاً عن انحرافه الفكري والعقائدي والاجتماعي مما يفسد آراءه إفساداً، بالإضافة إلى أن كتاب الأغاني ليس مرجعاً علمياً، ولكنه من كتب التسلية والسمر التي كتبت لتزجية فراغ بعض المترفين، ومن هنا فإنه لا يصلح أساساً كمصدر للعلم أو مرجعاً للبحث في الأدب والتاريخ⁽¹⁾. ولقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في تشويه تاريخنا ولذلك وجب التحذير منه.

2 - نهج البلاغة:

من الكتب التي ساهمت في تشويه تاريخ الصحابة بالباطل كتاب: نهج البلاغة، فهذا الكتاب مطعون في سنده ومثته، فقد جمع بعد أمير المؤمنين بثلاثة قرون ونصف بلا سند، وقد نسبت الشيعة الإمامية تأليف نهج البلاغة إلى الشريف الرضي؛ وهو غير مقبول عند المحدثين لو أسند، خصوصاً فيما يوافق بدعته؛ فكيف إذا لم يسند كما فعل في النهج؟ وأما المتهم - عند المحدثين - بوضع النهج فهو أخوه علي⁽²⁾، فقد تحدث العلماء فيه فقالوا:

* قال ابن خلكان في ترجمة الشريف المرتضى: وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هل جمعه؟ أم جمع أخيه الرضي؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه⁽³⁾. والله أعلم.

* وقال الذهبي في ترجمة المرتضى أبي طالب علي بن حسين بن موسى الموسوي المتوفى سنة 436 هـ: هو جامع كتاب نهج البلاغة المنسوبة ألفاظه إلى الإمام علي عليه السلام، ولا أسانيد لذلك، وبعضها باطل، وفيه حق، لكن فيه موضوعات حاشا الإمام من النطق بها، ولكن أين المنصف؟! وقيل: بل جمع أخيه الشريف الرضي⁽⁴⁾. وقال أيضاً: وفي توألفه سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فنعوذ بالله من علم لا ينفع⁽⁵⁾. وقال أيضاً في ترجمته: وهو المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة، وله مشاركة قوية في العلوم، ومن طالع كتابه نهج البلاغة، جزم بأنه

(1) مؤلفات في الميزان، ص 100 إلى 103.

(2) الأدب الإسلامي، نايف معروف، ص 53.

(3) الوفيات (3/134).

(4) كتب حذر منها العلماء (2/250)؛ الميزان (1/200).

(5) سير أعلام النبلاء (17/589، 590).

مكذوب على أمير المؤمنين علي عليه السلام ، ففيه السبُّ الصَّراح والحط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة، وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين، جزم بأن الكتاب أكثره باطل⁽¹⁾.

* وقال ابن تيمية: . . وأيضاً، فأكثر الخطب التي ينقلها صاحب نهج البلاغة، بذلك الكلام ولكن هؤلاء وضعوا أكاذيب وظنوا أنها مدح، فلا هي صدق ولا هي مدح، ومن قال: إن كلام علي وغيره من البشر فوق كلام المخلوق، فقد أخطأ، وكلام النبي صلى الله عليه وآله فوق كلامه، وكلاهما مخلوق. . . وأيضاً فالمعاني الصحيحة التي توجد في كلام علي موجودة في كلام غيره، لكن صاحب نهج البلاغة وأمثاله أخذوا كثيراً من كلام الناس فجعلوه من كلام علي، ومنه ما يُحكى عن علي أنه تكلم به، ومنه ما هو كلام حق يليق له أن يتكلم به، ولكن هو في نفس الأمر من كلام غيره، ولهذا، يوجد في كلام «البيان والتهيين» للمجاهد وغيره من الكتب كلام منقول عن غير علي، وصاحب نهج البلاغة يجعله عن علي، وهذه الخطب منقولة في كتاب نهج البلاغة لو كانت كلها عن علي من كلامه، لكانت موجودة قبل هذا المصنّف، منقولة عن علي بالأسانيد وبغيرها، فإذا عُرف من له خبرة بالمنقولات أن كثيراً منها «بل أكثرها» لا يُعرف قبل هذا عُلم أن هذا كذب، وإلا فليُبين الناقل لها في أي كتاب ذكر ذلك، ومن الذي نقله عن علي، وما إسناده؟ وإلا فالدعوة المجردة لا يعجز عنها أحد، ومن كان له خبرة بمعرفة طريقة أهل الحديث ومعرفة الآثار والمنقول بالأسانيد وتبين صدقها من كذبها، عُلم أن هؤلاء الذي يتقلون مثل هذا عن علي من أبعاد الناس عن المنقولات، والتمييز بين صدقها وكذبها⁽²⁾.

* وقال العلامة المقبلي: أخرج البخاري عن علي عليه السلام أنه قال: افضوا كما كنتم تقضون، فإنني أكره الخلاف حتى يكون الناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي. قال: وكان ابن سيرين يرى عامة ما يروون عن علي عليه السلام كذباً، وصدق ابن سيرين رضي الله عنه، فإن كل قلب سليم، وعقل غير زائف عن الطريق القويم، ولُبُّ تدرب في مقاصد سالكي الصراط المستقيم، يشهد بكذب كثير مما في نهج البلاغة الذي صار عند الشيعة عدليل كتاب الله بمجرد الهوى الذي أصاب كل عرق منهم ومفصل، وليتهم سلكوا مسلك جلاميد الناس، وأوصلوا ذلك إلى علي برواية تسوغ عند الناس، وجادلوا عن روايتها، ولكن، لم يبلغوا بها مصفها⁽³⁾.

(1) ميزان الاعتدال (3/124)؛ لسان الميزان (4/223).

(2) متهاج السنة (8/55 - 56)؛ كتب حذر العلماء منها (2/256).

(3) العلم الشامخ، ص 237، كتب حذر العلماء منها (2/251).

ويمكن تلخيص أهم ما لاحظته القدامى والمحدثون على نهج البلاغة للتشكيك بصحة نسبه للإمام علي بما يلي:

- خلوه من الأسانيد التوثيقية التي تعزز نسبة الكلام إلى صاحبه متناً ورواية وسنداً .
- كثرة الخطب وطولها، لأن هذه الكثرة وهذا التطويل مما يتعذر حفظه وضبطه قبل عصر التدوين .

- رصد العديد من الأقوال والخطب في مصادر وثيقة منسوبة لغير علي عليه السلام ، وصاحب النهج يشبها له .

- اشتمال هذا الكتاب على أقوال تتناول الخلفاء الراشدين قبله بما لا يليق به ولا بهما ، وتنافي ما عُرف عنه من توقيره لهما بالأسانيد الصحيحة، ومن أمثلة ذلك ما جاء بخطبته المعروفة بـ «الشقيقية» التي يظهر فيها حرصه الشديد على الخلافة، رغم ما شُهر عنه من التفكف والتزهد .

- شيوع السجع فيه، إذ رأى عدد من الأدباء أن هذه الكثرة لا تتفق مع البعد عن التكلف الذي عُرف به عصر الإمام علي عليه السلام ، مع أن السجع العفوي الجميل لم يكن بعيداً عن روحه ومبناه .

- الكلام المنمق الذي تظهر فيه الصناعة الأدبية التي هي من وُشي العصر العباسي وزخرفه، ما نجد في وصف الطاووس والحفاش، والنحل والنمل، والزرع والسحاب وأمثالها .

- الصيغ الفلاحية والمقالات الكلامية التي وردت في ثناياه، والتي لم تُعرف عند المسلمين إلا في القرن الثالث الهجري، حين ترجمت الكتب اليونانية والفارسية والهندية، وهي أشبه ما تكون بكلام المناطقة والمتكلمين منه بكلام الصحابة والراشدين⁽¹⁾ .

إن هذا الكتاب يجب الحذر منه في الحديث عن الصحابة، ومن أراد الاستفادة منه فعلياً أن يعرض المسائل العقائدية وحديثه عن الصحابة والأحكام التي فيه على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فما وافق الكتاب والسنة، فلا مانع من الاستئناس به، وما خالف فلا يلتفت إليه .

لقد نقل صاحب كتاب الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي خطباً ورسائل وحوارات للحسن بن علي بن أبي طالب مع معاوية عليه السلام والمعلقة بخلافته وعهده أكثرها لا

(1) الأدب الإسلامي، ص 54، 55.

يصح⁽¹⁾، واعتمد على مصادر ضعيفة واهية، كالأغاني ونهج البلاغة وغيرها من الكتب التي لا يمكن لطالب علم يحترم الحقيقة العلمية والموضوعية والحيادية أن يعتمد عليها في البحث التاريخي الجاد الذي يراد به وجه الله تعالى.

المبحث الثاني

أهم صفاته وحياته في المجتمع

أولاً - أهم صفاته:

إن شخصية الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام تعتبر شخصية قيادية، وقد اتصف عليه السلام بصفات القائد الرباني، فمن أهم هذه الصفات: إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القويّة، والعدل، والقدرة على حلّ المشكلات، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربانية استطاع أن يقدم مشروعه الإصلاحية مع قدرته على التنفيذ والتغلب على العوائق في الطريق، وتوجت جهوده الغدّة بوحدة الأمة. ومن أهم تلك الصفات التي نحاول تليط الأضواء عليها هي:

1 - علمه:

تربى الحسن في بيت النبوة، فتأثر بجده صلى الله عليه وآله ووالدته السيدة فاطمة في طفولته، واستفاد من والده العلم الغزير، فقد اهتم به اهتماماً كبيراً، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يعلم الناس كتاب الله ومن بينهم أبناؤه، ومنهم أمير المؤمنين الحسن والحسين، فتعلموا منه منهجه لبيان الحكم الشرعي وطريقته في الاستنباط، والتي كانت ملامحها: الالتزام بظاهر القرآن الكريم، حمل المطلق على المقيد، وحمل المجمل على المفسر، والعلم بالناسخ والمنسوخ، والنظر في لغة العرب، وفهم النص بنص آخر، والسؤال عن مشكله، والعلم بمناسبة الآيات، وتخصيص العام، ومعرفة عادات العرب وأحوالهم، وقوة الفهم وسعة الإدراك، وكان القرآن الكريم لذلك الجيل ومنهم الحسن بن علي هو المنهج التربوي، ومع هدي النبي صلى الله عليه وآله فكانت للآيات القرآنية الكريمة التي سمعها من والده أمير المؤمنين علي أثرها في علمه وصياغة شخصيته، فقد تطهر قلبه وزكّت نفسه، وتفاعلت معه روحه، فأبصر الحقائق الكبرى في عالم الوجود.

(1) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص 76 إلى 100.

وكان من شيوخه الذين حفظ عليهم القرآن الكريم: عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبو عبد الرحمن السلمي، مقرئ الكوفة وكان لأبيه صحبة: روى عن علي عليه السلام وعبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان، وقد أخذ القراءة عنه عاصم وعطاء والحسن والحسين عليهما السلام وكان يقرئ عشرين آية بالغدأة وعشرين آية بالعشي، وكان فقيهاً، وتوفي في الكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان ثقة كثير الحديث⁽¹⁾، وعن عبد الله بن المبارك عن عطاء بن السائب قال: دخلنا على أبي عبد الرحمن السلمي وهو يقضي - أي: يتزع - في المسجد، فقلنا له: لو تحولت إلى الفرش فإنه أوثر⁽²⁾. قال: حدثني فلان أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال أحدكم في صلاة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة»⁽³⁾، وفي رواية ابن سعد: «الملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه». قال أبو عبد الرحمن السلمي: فأريد أن أموت وأنا في مسجدي⁽⁴⁾، وكان منهجه عليه السلام في تعليم القرآن الكريم منهج الصحابة الكرام، فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤونا القرآن - كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وآله عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم، والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة⁽⁵⁾، ويعتبر أبو عبد الرحمن السلمي شيخ الحسن بن علي في القرآن الكريم من أشهر تلاميذ عثمان بن عفان عليه السلام⁽⁶⁾، وقد سار الحسن بن علي على الطريقة نفسها في حفظ وفهم القرآن الكريم والعمل به.

* نظرة أمير المؤمنين الحسن لله والكون والحياة والجنة والنار:

قد عرف الحسن من خلال القرآن الكريم وتربية والده أمير المؤمنين علي من هو الإله الذي يجب أن يعبد، فأصبحت نظرة الحسن بن علي إلى الله تعالى والكون، والحياة، والجنة والنار، والفضاء والقدر، وحقيقة الإنسان، وصراعه مع الشيطان مستمدة من القرآن الكريم وهدى النبي صلى الله عليه وآله.

* فالله سبحانه وتعالى متزه عن النقائص، موصوف بالكمالات التي تتناهى فهو سبحانه واحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

* وأنه سبحانه حدّد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن الكريم⁽⁷⁾.

(1) تهذيب التهذيب (5/183 - 184)، الطبقات (2/173).

(2) أوثر: أولاً. (3) كتاب الزهد، رقم: 420، ص 141 - 142.

(4) الطبقات الكبرى (6/174/175). (5) الفتاوى (13/177).

(6) تيسير الكريم المتان في سيرة عثمان بن عفان، ص 25.

(7) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، ص 10 إلى 16.

* وأما نظره للكون، فقد استمدّها من قول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَسَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِن فُوقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ لِسَاءِيلِ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَاللَّيْلِ أَنْتِ يَا طَوَعَاوُ كَرِهًا قَالَتْ أَنِينَا طَائِبِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَكُوتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الْوَتِدَا بِمَصْنُوعٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿انصفت: 9 - 12﴾.

* وأما هذه الحياة مهما طالّت، فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِن سَّمَاءٍ فَاتَّخَلَّتْ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ مِنَّا يَأْكُلُ الْبَشَرُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا أَمْْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَمَلَتْهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِاللَّيْلِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿يونس: 24﴾.

* وأما نظره إلى الجنة، فقد استمدّها من خلال الآيات الكريمة فأصبح هذا التصور مهمبناً على نفسه، فبرى المتبّع لسيرة الحسن بن علي عليه السلام عمق استيعابه لفقه القُدوم على الله تعالى، وشدة خوفه من عذاب الله، وعقابه، وأما مفهوم القضاء والقدر فقد استمدّه من كتاب الله، وتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد رسخ مفهوم القضاء والقدر في قلبه كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَن يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿التوبة: 51﴾.

* وعرف الحسن بن علي عليه السلام من خلال القرآن الكريم حقيقة الصّراع بين الإنسان والشيطان، وأن هذا العدو يأتي للإنسان من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله يوسوس له بالمعصية، ويستثير فيه كوامن الشهوات، فكان مستعيناً بالله على عدوه إبليس وانتصر عليه في حياته.

* وتعلّم من خطبة آدم ضرورة توكل المسلم على ربه، وأهمية التوبة، والاستغفار في حياة المؤمن، وضرورة الاحتراز من الحسد، والكبر، وأهمية التخاطب بأحسن الكلام مع الصّحابة لقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيُكَادِيَ يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِرِئْسَيْنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿الإسراء: 53﴾.

لقد أكرم المولى صلى الله عليه وآله الحسن بن علي عليه السلام بالعيش مع القرآن الكريم، فعاش به، واستمد أصوله، وفروعه من كتاب الله، وهدى رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصبح من أئمة الهدى، الذين يرسمون للناس خط سيرهم، ويتأسى الناس بأقوالهم وأفعالهم في هذه الحياة، وكان عليه السلام من أهل القرآن ولذلك كانت خطبه بالقرآن الكريم، فقد روي عنه عليه السلام بأنه خطب يوم الجمعة فقرأ سورة إبراهيم على المنبر حتى ختمها⁽¹⁾. وقد كان من هدى الرسول صلى الله عليه وآله فقد قرأ سورة

(1) الطبقات، تحقيق المُسلمي (1/278) إسناده ضعيف.

[ق] حتى ختمها، . فقد روى مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أخذت ﴿ق﴾ والقرآن النجيد إلا من لسان رسول الله يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس⁽¹⁾، وروى عن ابن ماجه عن أبي بن كعب قال: قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة «تبارك» وهو قائم، فذكرنا بأيام الله، وأبو الدرداء أو أبو ذر يغمزني فقال: متى أنزلت هذه السورة؟ فإني لم أسمعها إلى الآن، فأشار إليه أن اسكت⁽²⁾، ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان هدي النبي ﷺ في خطبته: كان النبي ﷺ كثيراً ما يخطب بالقرآن⁽³⁾، ولذلك كان الحسن بن علي رضي الله عنهما يوجه الناس بآيات القرآن الكريم ويتلوها عليهم، ملتزماً بالمنهج النبوي في قراءته للقرآن بإتقان وتركيز وتدبر وخشوع، وتحسين للصوت، فتهتز لها القلوب وتذرف لها الدموع. وإذا حاولنا أن نتأمل في سورة إبراهيم عليه السلام التي قرأها على المنبر كاملة نلاحظ بأن أهم مواضعها هي:

- إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرسل وبالبعث والجزاء وإقرار التوحيد، والتعريف بالإله الحق خالق السموات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأتحاد مهمة الرسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد والفضائل وعبادة الله والإنقاذ من الضلال.

- الوعد والوعيد: ذم الكافرين ووعيدهم على كفرهم وتهديدهم بالعذاب الشديد، ووعد المؤمنين على أعمالهم الطيبة بالجنات [الآية 2، والآية 23، والآيات 28 - 31].

- الحديث عن إرسال الرسل بلغات أقوامهم، لتسهيل البيان والتفاهم [الآية: 4].

- تسلية الرسول ﷺ ببيان ما حدث للرسل السابقين مع أقوامهم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والتذكير بعقابهم، كما في الآيات [9 - 12] والآيات [13 - 18].

- ابتداء من بين قصص بعض الأنبياء المتقدمين ﷺ بمحاورة موسى لقومه ودعوته إياهم لعبادة الله تعالى [الآيات 5 - 8].

- دعوات إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام لأهل مكة بالأمان والرزق وتعلق القلوب بالبيت الحرام، وتجنبيه وذريته عبادة الأصنام، وشكره ربه على ما وهبه من الأولاد بعد الكبير، وتوفيقه وذريته لإقامة الصلاة، وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين [الآيات 53 - 41].

- بيان مشهد من مشاهد الحوار بين أهل النار في عالم الآخرة [الآيات 19 - 23].

(1) مسلم رقم: 873.

(2) سنن ابن ماجه رقم: 1111 إسناده حسن.

(3) زاد المعاد (1/43).

- ضرب الأمثال لكلمة الحق والإيمان وكلمة الباطل والضلال بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة [الآيات 24 - 27].
- التذكير بأهوال القيامة وتهديد الظالمين وبيان ألوان عذابهم [الآيات: 42 - 52].
- بيان الحكمة من تأخير العذاب ليوم القيامة، وهو ما ختمت به السورة⁽¹⁾ [الآيات: 51 - 52].

هذه أهم المواضع التي اشتملت عليها سورة إبراهيم عليه السلام والتي خطب بها الحسن بن علي عليه السلام على المنبر لخطبة الجمعة، كما كان الحسن بن علي عليه السلام إذا أوى إلى فراشه قرأ سورة الكهف، وقد استهلت السورة ببيان وصف القرآن بأنه قيم مستقيم لا اختلاف فيه ولا تناقض في لفظه ومعناه، وأنه جاء للتبشير، ثم لفت النظر إلى ما في الأرض من زينة وجمال وعجائب تدل دلالة واضحة على قدرة الله تعالى، وتحدثت السورة عن ثلاث قصص من روائع قصص القرآن الكريم وهي قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، أما قصة سورة الكهف [الآيات 9 - 26] فهي مثال عالٍ، ورمز سام للتضحية بالوطن والأهل والأقارب والأصدقاء والأموال في سبيل العقيدة الصحيحة واتباع الهدى، فقد قرّ هؤلاء الشباب الفتية المؤمنون بدينهم من بطش الملك الوثني، واحتموا في غار في الجبل، فأنامهم الله ثلاثة مائة وتسع سنين قمرية، ثم بعثهم ليقيم دليلاً حسيماً للناس على قدرته على البعث، واتبع الله تعالى القصة بأمر النبي صلى الله عليه وآله بالتواضع ومجالسة الفقراء المؤمنين وعدم الفرار إلى مجالسة الأغنياء لدعوتهم إلى الدين: ﴿وَأَسِيرٌ نَّفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: 28]. ثم هدّد الله تعالى الكفار بعد إظهار الحق، وذكر ما أعدّه لهم من العذاب الشديد في الآخرة ﴿وَقُلْ أَلْحَقٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 29] وقارن ذلك بما أعدّه سبحانه من جنات عدن للمؤمنين الصالحين [الآيات: 30 - 31].

وأما قصة موسى مع الخضر في [الآيات: 60 - 78] فكانت مثلاً للعلماء في التواضع أثناء طلب العلم، وأنه قد يكون عند العبد الصالح من العلوم في غير أصول الدين وفروعه ما ليس عند الأنبياء، بدليل قصة حرق السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار، وأما قصة ذي القرنين في الآيات [83 - 99] فهي عبرة للحكام والسلاطين، إذ إن هذا الملك تمكن من السيطرة على العالم، ومشارك الأرض ومغاربها، وبناءه السد العظيم بسبب ما انصف به من التقوى والعدل والصلاح.

وتخللت هذه السورة أمثلة ثلاثة بارزة رائعة مستمدة من الواقع، لإظهار أن الحق لا

(1) التفسير المنير (13/198، 199).

يقترب بالسلطة والغنى، وإنما يرتبط بالإيمان، وأول هذه الأمثلة قصة أصحاب الجنتين [32 - 44] للمقارنة بين الغني المغتر بماله، والفقير المعتر بإيمانه، لبيان حال فقراء المؤمنين وحال أغنياء المشركين. وثانيها: مثل الحياة الدنيا [45 - 46] لإلذار الناس بقناتها وزوالها. وأردف ذلك بإيراد بعض مشاهد القيامة الرهيبة من تسيير الجبال، وحشر الناس في صعيد واحد، ومفاجأة الناس بصحائف أعمالهم [47 - 49] وثالثها: قصة إبليس وإبائه المسجود لآدم [50 - 53] للموازنة بين التكبر والغرور، وما أدى إليه من طرد وحرمان وتحذير الناس من شر الشيطان، وبين العبودية لله والتواضع، وما حقق من رضوان الله تعالى، وأردف ذلك ببيان عناية القرآن بضرب الأمثال للناس للعتة والذكر وإيضاح مهام الرسل للتبشير والإنذار والتحذير من الإعراض عن آيات الله [54 - 57].

وختمت السورة بموضوعات ثلاثة: أولها: إعلان تبديد أعمال الكفار وضياع ثمرتها في الآخرة [100 - 106] وثانيها: تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالنعيم الأبدي [107 - 108] وثالثها: أن علم الله تعالى لا يحده حدود ولا نهاية⁽¹⁾ [109 - 110].

وكانت آخر آية في السورة وعندما بين المولى ﷺ كمال كلامه، أمر تعالى محمداً ﷺ بالتواضع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أُتَدَأُ﴾ [الكهف: 110] أي: قل يا محمد لهم: ما أنا إلا بشر مثلكم في البشرية، ليس لي صفة الصلوية أو الألوهية، ولا علم لي إلا ما علمني الله، إلا أن الله تعالى أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد، فلا شريك له في ألوهيته، فمعبودكم الذي يجب أن تعبدوه هو معبود واحد لا شريك له ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أُتَدَأُ﴾ أي فمن آمن بقاء الله، وطمع في ثواب الله على طاعته، فليقترب إليه بصالح الأعمال، وليخلص له العبادة، وليجتنب الشرك بعبادة الله أحداً من مخلوقاته، سواء أكان شركاً ظاهراً كعبادة الأوثان أو ادعاء غير الله تعالى أو النذر للمخلوقين أو اعتقاد أن الخلق ينفعون أو يغيرون بما لا يقدر عليه إلا الله، أو صرف أنواع العبودية من خوف أو رجاء أو حب لغير الله مما لا ينبغي إلا لله، أو شركاً خفياً كفعل شيء رياء أو سمعة وشهرة⁽²⁾، والرياء هو الشرك الأصغر، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في

(1) التفسير المنير (16/197، 198، 199).

(2) التفسير المنير (16/43).

الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»⁽¹⁾ وقد جمعت الآية الكريمة شرطي قبول الأعمال، اتباع الرسول ﷺ وهو قوله: ﴿فَلْيَتَمَلَّ عَلَاً حَلِيلًا﴾ والإخلاص لله وهو قوله: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِمِلَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

إن هذه المعاني الكريمة والآيات العزيزة كان الحسن بن علي يقرأها كل يوم بتمعن وتدبر، فكانت لها تأثيرها على نفسه وفي حياته، كما كان للحسن بن علي ﷺ اهتمام بالسيرة النبوية الشريفة، فقد كانت من ثقافة ذلك الجيل تعلم السيرة النبوية، فقد قال إسماعيل ابن محمد بن سعد بن أبي وقاص: كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ بعدها علينا ويقول: هذه مآثر آباءكم فلا تضيعوا ذكرها⁽²⁾. وقال علي بن الحسن: كنا نعلم مغازي رسول الله كما نعلم السورة من القرآن⁽³⁾.

وأما السنة النبوية، فقد كان والده أمير المؤمنين علي أكثر الخلفاء الراشدين رواية لأحاديث رسول الله ﷺ، وهذا راجع إلى تأخر وفاته عن بقية الخلفاء، وكثرة الرواية عنه، وانتشار طلبية العلم من التابعين الذين كانوا يكثررون السؤال، ووقوع الأحداث التي تقتضي البلاغ والرواية، في أمور أخرى فنقلوا عنه ما بلغهم بأمانة ونزاهة وقد استفاد منه ابنه الحسن استفادة عظيمة.

أما من جده ﷺ فقد توفي ﷺ، والحسن صغير كما هو معلوم، فعقل عن رسول الله أحاديث وأموراً ذكرها منسوبة لرسول الله ﷺ قد يبتها فيما مضى.

وكان الحسن ﷺ يبحث أولاده على طلب العلم، فقد دعا بنيه وبني أخيه فقال: يا بني وبني أخي إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته⁽⁴⁾.

وكان ﷺ خطيباً مفوهماً، فقد قال أمير المؤمنين علي ﷺ للحسن ذات يوم: قم فاخطب الناس يا حسن. قال: إني أهابك أن أخطب وأنا أراك، فتغيب عنه حيث يسمع كلامه ولا يراه، فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه وتكلم⁽⁵⁾، ثم نزل فقال علي: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34].

(1) مسند أحمد (428/5 - 429) إسناده حسن.

(2) البداية والنهاية (2/242).

(3) المصدر السابق نفسه، السيرة النبوية للصلاحي (1/6).

(4) الطبقات (1/292) إسناده حسن، تحقيق السلمي.

(5) الطبقات (1/276) إسناده ضعيف مرسل.

وقد ورث الحسن من جده ﷺ ووالده ﷺ الخطابة والفصاحة والبلاغة وقوة البيان، وقد ذكرت كتب التاريخ: أن علياً رضي الله عنه سأل ابنه - يعني الحسن - عن أشياء عن المروءة، فقال: يا بُنَيَّ ما السُّدَادُ؟ قال: يا أبتَي السُّدَادُ دفع المنكر بالمعروف. قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشرة وحمل الجريرة. قال: فما المروءة؟ قال: العفاف وإصلاح المرء ماله. قال: فما الدُّقَّةُ⁽¹⁾؟ قال: النظر في اليسير ومنع الحقيق⁽²⁾. قال: فما اللُّؤْمُ؟ قال: إحرار المرء نفسه وبذله عرسه، قال: فما السماحة؟ قال: البذل في العسر واليسر. قال: فما الشُّحُّ؟ قال: أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقتة تلفاً. قال: فما الإخاء؟ قال: الوفاء في الشدة والرخاء. قال: فما الجُبْنُ؟ قال: الجرأة على الصديق والتكول على العدو. قال: فما الغنيمة؟ قال: الرغبة في التتوى، والزهادة في الدنيا هي الغنيمة الباردة، قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ ومَلَكُ النفس. قال: فما الغنى؟ قال: رضا النفس بما قسم الله لها وإن قلَّ، فإنما الغنى غنى النفس، قال: فما الفقر؟ قال: شره النفس في كل شيء. قال: فما الذلُّ؟ قال: الفزع عند المصدوقة⁽³⁾. قال: فما الجرأة؟ قال: موافقة الأقران. قال: فما الكُلْفَةُ؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك. قال: فما المجد؟ قال: أن تعطي في العُرم وأن تعفو عن الجُرم. قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب كلَّ ما استرعيتَه. قال: فما الخُرْقُ⁽⁴⁾؟ قال: معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك. قال: فما الثناء؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح. قال: فما الحزم؟ قال: طول الأناة والرفق بالولادة، والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم. قال: فما الشُّرفُ؟ قال: موافقة الإخوان، وحفظ الجيران، قال: فما السَّفَةُ؟ قال: اتباع الذنابة، ومصاحبة العُواة. قال: فما الغفلة؟ قال: تركك المسجد وطاعتك المفسد. قال: فما الحرمان؟ قال: تركك حطِّك وقد عُرض عليك. قال: فما السَّيْدُ؟ قال: الأحق في المال، المتهاون بعرضه، يُشْتَمُّ فلا يجيب، المتحزن بأمر العشيرة⁽⁵⁾ هو السيد.

ثم قال عليُّ: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا مظاهره أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير، ولا حسب كحسن الخلق، ولا ورع كالكفِّ، ولا عبادة كالتفكير، ولا إيمان كالحياء، ورأس الإيمان الصبر، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم السفه، وآفة العبادة الفترة، وآفة الظُّرف الصِّلف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المن،

(1) الدقة: الحطارة، النهاية (2/ 127).

(3) المصدوقة: الحملة الصادقة ليس لها مكذوبة.

(4) الخرق: الجهل والحق.

(5) المتحزن بأمر العشيرة: المهتم بأمرهم.

وأفة الجمال الخيلاء وأفة الحب الفخر». ثم قال علي: يا بُني، لا تستخفن برجل تراه أبداً فإن كان أكبر منك فعُدْ أنه أبوك، وإن كان مثلك فهو أخوك، وإن كان أصغر منك، فاحسب أنه ابنك. فهذا ما ساءل عليّ ابنه عن أشياء من المروءة.

قال القاضي أبو الفرج: ففي هذا الخبر من الحكمة وجزيل الفائدة ما يتفجع به من راعاه وحفظه ووعاه، وعمل به، وأدب نفسه بالعمل عليه، وهذبها بالرجوع إليه، وتتوفر فائدته بالوقوف عنده، وفيما رواه أمير المؤمنين وأضعافه عن النبي ﷺ ما لا غنى لكل لبيب عليم، ومدرة⁽¹⁾ حكيمة عن حفظه وتأمله، والمسعود من هُدي لتقبّله، والمجدود⁽²⁾ من وفق لامتناله وتقبّله⁽³⁾.

وقد علق ابن كثير على هذا الأثر فقال: ولكن هذا الأثر وما فيه من الحديث المرفوع ضعيف، ومثل هذه الألفاظ في عبارتها ما يدل ما في بعضها من النكارة على أنه ليس بمحفوظ والله أعلم⁽⁴⁾. وما دامت الأمور التي ذكرتها مع الكتاب والسنة لا تتعارض ولا تبني عليها عقيدة أو عبادة وإنما تدعو إلى مكارم الأخلاق، فلا مانع من الاستئناس بها.

وقد سأل أمير المؤمنين علي ابنه الحسن: كم بين الإيمان واليقين؟ فقال الحسن رضي الله عنه: أربع أصابع. فقال أمير المؤمنين علي: وكيف؟ فقال الحسن: الإيمان كل ما سمعته أذنك وصدقه قلبك. واليقين ما رآه عينك، فأيقن به قلبك، وليس بين العين والأذن إلا أربع أصابع⁽⁵⁾.

ومن أقواله: حسن السؤال نصف العلم⁽⁶⁾، وسئل عن الصمت فقال: هو ستر العين أو زين العرض، وفاعله في راحة وجليسه في أمان⁽⁷⁾، ومن علمه أنه أوصى بتعلم اللغة العربية⁽⁸⁾ وتأكيد على تعلم اللغة العربية تأكيد على ضرورة تطبيق القواعد العلمية في القراءة وخاصة قراءة الآيات القرآنية، لأن اللغة العربية هي اللغة التي أنزل الله بها القرآن كتابة ولفظاً، وخاطب بها شرائع دينه وفرائض ملته وبها بلغ الرسول ﷺ رسالته وعلم بها سته النبوية

(1) المدرة: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم.

(2) المجدود: المحفوظ.

(3) البداية والنهاية (11/202).

(4) المصدر السابق نفسه (11/202) الطبراني الكبير، حديث موضوع.

(5) التبيين في أنساب القرشيين، ص 127.

(6) نور الأبصار للشبلنجي، ص 122، الحسن بن علي رسالة ماجستير، ص 38.

(7) من أقوال الصحابة، ص 67، نقلاً عن الحسن بن علي، رسالة ماجستير، ص 38.

(8) مفتاح السعادة، أحمد مصطفى (2/82) نقلاً عن الحسن بن علي.

الشريفة المطهرة، وبها ألقت الكتب الدينية والكتب العلمية وكتب الحكمة. فلا بد للناس من تعلمها، وإلا كان جاهلاً بالدين منقوصاً في العلم، إضافة إلى ما تمتاز به هذه اللغة من الفصاحة والبيان، والطلاوة على اللسان والحلاوة في الأسماع والأذان⁽¹⁾. ومن الأمور التي تؤكد تمكن الحسن بن علي من اللغة العربية، فقد كان يعد من فصحاء العرب، فقد قال عمرو ابن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن بن علي رضي الله عنه⁽²⁾.

وقد كان للحسن بن علي تلاميذ نجباء منهم: ابنه الحسن، والمسيب بن نجبة، وسويد بن غفلة، والعلاء بن عبد الرحمن، والشعبي، وهيبيرة بن يريم، والأصبغ بن نباته، وجابر بن خالد، وأبو الحوراء، وعيسى بن مأمون بن زرارة، ويقال: ابن المأموم وأبو يحيى عمير بن سعيد النخعي، وأبو مريم قيس الثقفي، وطحرب العجلي، وإسحاق بن يسار والد محمد بن إسحاق، وسفيان بن الليل، وعمر بن قيس الكوفيون⁽³⁾. ويظهر غزارة علمه، ودقة فقهه في علم المصالح والمفاسد، ومعرفته العميقة بمقاصد الشريعة في تقديمه وحدة الأمة وحفظ الدماء على المصلحة الخاصة من ملك الدنيا عندما تنازل لمعاوية رضي الله عنه.

2 - عبادته:

كان الحسن بن علي رضي الله عنه من المجتهدين في العبادة، ومارس مفهوم العبادة الشامل في حياته، فقد رضع لبان العبادة مع ما رضعه من معدن النبوة، وتربية الزهراء التي جاءت إلى أيها عليه الصلاة والسلام لتطلب خادماً، فدلها على ما هو أفضل من ذلك ألا وهو السج والتحميد والتهليل والتكبير، وقال لها ولزوجها في الليل وهما في الفراش: «ألا تقومان تصليان؟» فأطل على الحياة في بيت الزهد والعبادة، والورع والتقى، والحلم والصبر، وانغمس في هذه المفاهيم والمثل والمبادئ حتى غدا مثلاً من مثلها، ومثلاً بها يضرب، يشهد له بذلك معاصروه من الصحابة الأبرار، ومن عاشره من الأخيار.

* فقد كان الحسن بن علي رضي الله عنه عابداً بمعرفة، مقبلاً على الله بيقين، مديراً عن الدنيا وشواغلها برضى واطمئنان، ولهذا كان إذا توضأ وفرغ من الوضوء تغير لونه، ف قيل له في ذلك فقال: حق من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه⁽⁴⁾، وقد ذكر ابن سعد قوله: ما رأيت أخوف من الحسن بن علي وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما⁽⁵⁾، فكلما

(1) نصيحة الملوك، ص 350، للماوردي.

(2) الكامل في التاريخ (4/132).

(3) تاريخ دمشق (5/14).

(4) وفيات الأعيان (2/69).

(5) الطبقات الكبرى (5/398).

اقترب العبد من مولاه، وتعرف على أسمائه وصفاته، وتعودت كماله، ازدادت هيئته وإجلاله وخوفه منه، فهو سبحانه وتعالى يداول الأيام بين الناس قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ تُشَاءُ وَيُخَذُ مَنْ تَشَاءُ يَشَاءُ أَلِكِ الْعَرْشَ إِذْ عَنَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [ال عمران: 20]. يقرب الدول، فيذهب بدولته، ويأتي بأخرى، والرسل من الملائكة ﷺ بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره متعاقبة على تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كان كما يشاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وفي البحار، وفي الجو وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقربها، ويصرفها ويحدث فيها ما يشاء⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5]. فهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، ولا في قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال، قال تعالى: ﴿وَيَسُدُّ مَقَاتِلَ النَّبِيِّ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَكْبٌ وَلَا يَكْبِيسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 58]، فاستشعار عظمة الله وجلاله، ومعرفة أسمائه وصفاته تولد عند العبد خشية وخوفاً ومهابة من هذا الإله العظيم الذي يخضع له كل شيء⁽²⁾ ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدْوَةِ وَالْقُرَىٰ وَالْأَسْوَاقِ﴾ [الرعد: 15].

* وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما إذا صَلَّى الْعَدَاةَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده، ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن، وربما أتحنفنه، ثم ينصرف إلى منزله⁽³⁾.

إن من السعداء الذين تصلي عليهم الملائكة أولئك الذين يجلمون بعد أداء الصلاة في مصلاهم، وما يدل على ذلك ما يلي: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث⁽⁴⁾: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه⁽⁵⁾، وإن جلس ينتظر الصلاة صلت عليه الملائكة، وصلاتهم عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه⁽⁶⁾» وروى الإمام أحمد عن عطاء بن السائب

(1) الإيمان أولاً فكيف نبدأ به، مجدي الهلالي، ص 76.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 76.

(3) البداية والنهاية (11/ 193، 194).

(4) أي: حدثاً حقيقياً، أي: ما لم يبطل وضوءه.

(5) مسند أحمد رقم: 8106، صححه أحمد شاكر.

(6) مسند أحمد رقم: 1218، حه أحمد شاكر.

قال: دخلت على أبي عبد الرحمن السلمي، وقد صلى الفجر، وهو جالس، فقلت: لو قمت إلى فراشك كان أوطأ لك. فقال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من صلى الفجر ثم جلس في مُصَلَّاهُ صلت عليه الملائكة، وصلاتهم عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. ومن ينتظر الصلاة صلت عليه الملائكة، وصلاتهم عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»⁽¹⁾.

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمته الله: - هل المكوث في المنزل بعد صلاة الفجر لقراءة القرآن حتى تطلع الشمس، ثم يصلي ركعتي الشروق، له نفس الأجر الذي يحصل بالمكوث في المسجد؟ فأجاب: هذا العمل فيه خير كثير وأجر عظيم، لكن ظاهر الأحاديث الواردة في ذلك أنه لا يحصل له نفس الأجر الذي وعد به إلا من جلس في مُصَلَّاهُ في المسجد، لكن لو صلى في بيته صلاة الفجر لمرض أو خوف، ثم جلس في مُصَلَّاهُ، يذكر الله أو يقرأ القرآن حتى ترتفع الشمس، ثم يصلي ركعتين فإنه يحصل له ما ورد في الأحاديث لكونه معذوراً حين صلى في بيته، وهكذا المرأة إذا جلست في مُصَلَّاهُها بعد صلاة الفجر تذكّر الله أو تقرأ القرآن حتى ترتفع الشمس، ثم تصلي ركعتين فإنه يحصل لها ذلك الأجر الذي جاءت به الأحاديث⁽²⁾.

إن الحسن بن علي رضي الله عنه يعلمنا أهمية الذكر في البكور، ويرغبنا في ترك النوم في ذلك الوقت من خلال سيرته الربانية، ولقد تحدث ابن القيم عن أهمية الذكر في البكور فقال: «ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير في ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فيجب أن يكون نومها كنوم المضطر⁽³⁾، ولشرف هذا الوقت، ولأهميته في السير إلى الله، نجد الترغيب الشديد في إحيائه بالذكر، فمن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت كأجر حجة وعمره تامة تامة تامة»⁽⁴⁾. قال ابن رجب: لما كان الحج من أفضل الأعمال والنفوس تتوق إليه لما وضع الله في القلوب من الحنين إلى ذلك البيت المعظم وكان كثيراً من الناس يعجز عنه ولا

(1) مسند أحمد (2/ 305 - 306) حسن إسناده أحمد شاكر.

(2) مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة، ابن باز (11/ 403 - 404).

(3) تهذيب مدارج السالكين، ص 248.

(4) سنن الترمذي وقال الترمذي: حديث حسن، صحيح رقم: 586.

سيما كل عام، شرع الله لعباده أعمالاً يبلغ أجرها أجر الحج، فيتعوض بذلك العاجزون في التطوع⁽¹⁾.

ويقول الأستاذ البنا: أيها الأخ العزيز، أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة بالعشي، ولحظة في السحر، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الظهور إلى الملا الأعلى، فتظفر بخير الدنيا والآخرة، وأمامك مواسم الطاعات، وأيام العبادات، وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم، ورسولك العظيم، فاحرص أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضرمه⁽²⁾.

* وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يقول إذا طلعت الشمس: سمع سامع بحمد الله الأعظم لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سمع سامع بحمد الله الأمجد لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير⁽³⁾، وقد لازم الحسن بن علي ما ثبت عن رسول الله من أوراد وأذكار وأدعية، وكان يحث الناس على الصلوات في المساجد وكان يقول: من أدمن الاختلاف إلى المساجد رزقه الله إحدى خصال: أخاً مستقداً، ورحمة مسترة له، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدل على هدى أو يترك الذنوب خشية أو حياءً⁽⁴⁾.

وكان رضي الله عنه من أهل القيام، فقد كان رضي الله عنه يأخذ نصيبه من القيام في أول الليل وكان الحسين رضي الله عنه يأخذه من آخر الليل⁽⁵⁾، فقيام الليل من الوسائل المهمة في إيقاظ الإيمان، جربها الصالحون فوجدوا لها أبلغ الأثر في إحياء القلوب، وقال ابن الحاج في المدخل: وفي قيام الليل من الفوائد جملة، فمنها: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة، ومنها أنه ينور القلب، ومنها أن موضعه تراه الملائكة من السماء يترأى مثل الكوكب الدرّي لأهل الأرض، ونفحة من نفحات قيام الليل تعود على صاحبها بالبركات والأنوار والتحف التي يعجز عنها الوصف⁽⁶⁾.

إن قيام الليل شرف المؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «شرف المؤمن صلواته بالليل، وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس»⁽⁷⁾، ومهما كثرت دعاوي المحبة طولب أصحابها بالدليل،

- (1) لطائف المعارف، ص 351، البدر في الحث على صلاة الفجر، الدكتور عماد علي، ص 86.
- (2) الرقائق، ص 18، نقلًا عن مجلة الدعوى العدد 8 سنة 1951، الإيمان أولاً، ص 248.
- (3) الطيقات (291/1) تحقيق السلمي إسناده صحيح.
- (4) عيون الأخبار (5/3) الحسن بن علي، ص 27.
- (5) الزهد لأبن حنبل، ص 171، رهبان الليل (403/1) للعفاني.
- (6) الإيمان أولاً، ص 172.
- (7) صحيح الجامع رقم: 3701 السلسلة الصحيحة رقم: 1903.

وشهدت عليهم ساعات الليل، فالبيعة على من ادعى، فأهل القيام هم الأشراف بين الناس، أما أهل النوم والغفلة - من أمثالنا - فقد فضحتهم تلك الساعات، فأسقطت ذكرهم، وأدنت شرفهم⁽¹⁾، ومن سيرة الحسن بن علي نتعلم أهمية قيام الليل، فبالليل يتم الغرس، غرس بذور الإخلاص والصدق، وعلى قدر غرسك سيكون الخير في قلبك، وكلما ازدادت مساحته، ازداد توالي الهدايا عليه من كل جانب ﴿إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقْكُمْ خَيْرًا﴾ (الأنفال: 70).

إن قيام الليل من أهم صور الشكر التي كان يمارسها الحسن بن علي عليه السلام، فشكر الله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى غاية من غايات العبودية، والشكر عمل، والعبد الشكور هو الذي يظهر عليه أثر النعمة، وأبلغ أثر للنعمة ينبغي أن يظهر على العبد هو زيادة الذل والانكسار والتعظيم لولي النعم⁽²⁾، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاكًا لِيُتَبَلَّغَ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَنْ هُوَ فَنَيْتُ آثَاءَ إِلَهِي سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنْ مَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: 8، 9).

فالآيات الكريمة تتحدث عن صنفين من الناس، أنعم الله عليهما بنعمة.. الأول مرٌ بتجربة شديدة، وكان في ضيق وهم فدعا الله بصدق ففرج همه، وكشف كربه، لكنه أعرض عن شكره، وعاد إلى غيئه، أما الآخر فقد سار في طريق الشكر بطول القنوت بالليل، والتضرع تعالى وتُعقَّب القرآن على الحالتين بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر: 9)، لا يستوي الذين يعلمون حق الشكر النعم والذين لا يعلمون ذلك⁽³⁾ قال الشاعر:

القانتون المخبتون لربهم	الناطقون بأصدق الأقوال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم	بتلاوة وتضرع، وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم	مثل انهمال الواهب الهطال
في الليل رهبان وعند جهادهم	لعدوهم من أشجع الأبطال
برجهم أثر السجود لربهم	وبها أشعة نوره المتلالي ⁽⁴⁾

* وكان الحسن بن علي عليه السلام كثير الحج، فقد قال عبد الله بن عباس عليه السلام: ما ندمت على شيء فاتني في شبابي إلا إنني لم أحج ماشياً، ولقد حج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب لتتقاد معه، ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات، حتى أنه يعطي الخف

(2) المصدر السابق نفسه، ص 174.

(4) رهبان الليل (1/365).

(1) الإيمان أولاً، ص 173.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 175.

وُثِمَكَ النعل⁽¹⁾، فهذا مثل من لزوم ما لا يلزم شرعاً يقوم به الحسن بن علي عليه السلام، حيث لازم الحج ماشياً خمساً وعشرين حجّة، وهذا يدل على فضيلة المشي في الحج، كما يؤيد ذلك ندم ابن عباس عليه السلام على عدم قيامه بذلك أيام شبابه ومداومة الحسن على ذلك على ما فيه من مشقة تدل على قوة إيمانه ورغبته الصادقة في المزيد من الأعمال الصالحة، والمقصود بالمشي من الحج من مكة إلى عرفة ثم من عرفة إلى مكة، وليس المقصود أن يحج الحاج ماشياً من بلده⁽²⁾، ومن سيرة الحسن بن علي عليه السلام نتعلم أهمية السياحة إلى البيت الحرام، كلما سمحت ظروفنا وتيسر حالنا قال عليه السلام: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإن متابعة بينهما تنفي الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»⁽³⁾، ولذلك حج الحسن ماشياً ونجائه تقاد إلى جانب خمساً وعشرين مرة في بعض الروايات⁽⁴⁾ وقال: إني استحيي من ربي ﷻ أن ألقاه ولم أمشي إلى بيته⁽⁵⁾، وكان عليه السلام كثير الصمت، متعبداً على منهج جده عليه السلام.

3 - زهده:

فهم الحسن عليه السلام من خلال معاشته للقرآن الكريم وملازمته لوالده أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فقد تربى على كتاب الله واستوعب الآيات التي تحدثت عن الدنيا وأخبرتنا بخسرتها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، وكان عليه السلام يقرأ كل يوم سورة الكهف ويمر على قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبَ مِمَّنْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءِ أَرْزَلْتَهُ مِنَّ أَنْشَمَاءَ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾⁽⁶⁾ النَّالُ وَالنَّوْنُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: 45، 46] فهذا المثل يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها، ومصير ما فيها من النعيم والترف إلى الهلاك، ولما بين تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والزوال، بين أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس، وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، فيقبح بالعاقل الافتخار به أو الفرح بسببه⁽⁶⁾ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ أي: أن أعمال الخير وأفعال الطاعات، كالصلوات والصدقات، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة الفقراء والأذكار أفضل ثواباً، وأعظم قرية عند الله، وأبقى أثراً، إذ ثوابها عائد على صاحبها، وخير أملاً حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا⁽⁷⁾، وتربى الحسن بن علي على منهج جده عليه السلام الذي كان أعرف الخلق بالدنيا ومقدارها، إذ هو القائل عليه السلام: «لو كانت الدنيا

(1) سير اعلام النبلاء (260/3).

(2) التاريخ الإسلامي (221/19).

(3) الإيمان أولاً، ص 249.

(4) تاريخ ابن عساکر (72/14).

(5) المصدر السابق نفسه (71/14).

(6) التفسير المنير (259/15).

(7) المصدر السابق نفسه (261/15).

تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبغه في اليمِّ فليُنظر بما ترجع»⁽²⁾، وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»⁽³⁾، وقد تأثر أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنهما بالتربية القرآنية والنبوية، فكان من أصدق التماذج الإسلامية في الزهد، فقد ضرب لنا أروع الأمثلة في الزهد وإليك التفصيل:

إن حرص المرء على الشرف والملك أشد من حرصه على المال، كما أن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها، والرياسة على الناس، والعلو في الأرض أضرباً على العبد من طلب المال، وضرره أعظم والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف، والحرص على الشرف على قسمين:

أحدهما: طلب الشرف بالولاية السلطان والمال، وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها. قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَدَارُ الْأَخِرَةِ تَحْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. وقل من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيؤوق، بل يُوكَل إلى نفسه⁽⁴⁾، كما قال ﷺ لعبد الرحمن بن سبرة رضي الله عنه: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة اعنت عليها»⁽⁵⁾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فتعمت المرضعة»⁽⁶⁾، وبشت القاطمة»⁽⁷⁾ إن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء، حتى لا يبقى منه إلا ما شاء الله، فقد قال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»⁽⁸⁾. وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى⁽⁹⁾، قال وهب بن منبه: من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم⁽¹⁰⁾. ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَنَّا مَن طَغَى ﴿٢٧﴾ وَاتَّزَّ الْمَيِّتَةَ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْجَعِيمَ هِيَ السَّوْدَى ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [التازعات: 37 - 41]. كما

(1) سنن الترمذي رقم: 4110، صحيح غريب.

(2) مسلم رقم: 2858.

(3) ما ذئبان جائعان، لابن رجب، ص 33. (5) البخاري رقم: 6622.

(6) مثل ضربه للإمارة وما يصل إلى الرجل من المنافع فيها واللذات.

(7) مثل ضربه للموت الذي يهدم عليه تلك اللذات ويقطع منافعها عنه، البخاري رقم: 7148.

(8) الإحسان في تزيين، صحيح ابن حبان رقم: 3218 حسن، صحيح.

(9) شرح حديث: ما ذئبان جائعان لابن رجب، ص 71.

(10) شرح حديث: ما ذئبان جائعان لابن رجب، ص 71.

أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل يتنافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الثاني الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله وطرده عنه، فهذا العلو الثاني الذي يذم وهو العتو والتكبر في الأرض بغير الحق. وأما العلو الأول والحرص عليه، فهو محمود، قال الله تعالى: ﴿خَتَمَهُ بِسُكِّهِ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَبَّأِينَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [المطففين: 26]. وقال الحسن: إذا رأيت الرجل يتنافس في الدنيا فنافسه في الآخرة، وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل⁽¹⁾. ففي درجات الآخرة الباقية يُشرع التنافس وطلب العلو في منازلها والحرص على ذلك بالسعي في أسبابه، وأن لا يقنع الإنسان منها بالدون مع قدرته على العلو، وأما العلو الفاني، المتقطع الذي يعقب صاحبه غداً حسرة وندامة وذلة وهواناً وصغاراً فهو الذي يُنشر الزهد فيه والإعراض عنه⁽²⁾.

وهذا الفقه العظيم والفهم العميق تتعلمه من سيرة الحسن بن علي رضي الله عنهما فقد ترك الملك والسلطان رغبة فيما عند الله وحقناً لدماء المسلمين، فقد تركها وهو في قوة ومنعة فقد قال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمات ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله⁽³⁾. وقال في رواية أخرى: .. ولكن خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً، أو أكثر أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيم هريق دمه⁽⁴⁾، لقد بايع الحسن بن علي بعد وفاة علي تسعون ألفاً⁽⁵⁾، فزهد في الخلافة، فلم يُردها وسلمها لمعاوية وقال: لا يهرق على يدي محجمة دم⁽⁶⁾. وقال في رواية: ما أحييت أن ألي من أمة محمد منقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني مما يضرني، فالحقوا بطيكتكم⁽⁷⁾.

4 - إنفاقه وكرمه وجوده:

من الأخلاق القرآنية والتي تتصف بها النفوس الكريمة التي تجسدت في شخصية الحسن ابن علي رضي الله عنهما: خلق الكرم والجود، وكثرة الإنفاق في سبيل الله تعالى، وكان تنويه القرآن الكريم بأهل الكرم عظيماً، وقد كان هذا التنويه من أول القرآن الكريم حيث يقول سبحانه في مستهل ثاني سورة بعد البسمة: ﴿لَا تَرْوَعُوا فِي الْمُنَافِقِينَ إِيضًا وَلَهُمْ مَنَافِقُكُمْ فَلَوْ لَا أَفْهَمْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَكُمُ الْبُحْرَانُ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ أَمْ جَاءَكُمُ الْبُحْرَانُ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ أَمْ جَاءَكُمُ الْبُحْرَانُ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ مِنْ أَلْفِ مَوْجٍ﴾ [التين: 1-4].

(1) شرح حديث ما ذبان جائعان لابن رجب، ص 72.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 73.

(3) البداية والنهاية (206/11).

(4) تاريخ دمشق (104/14).

(5) المصدر السابق نفسه (98/14).

(6) المصدر السابق نفسه (98/14).

(7) بطيكتكم: طية الشيء: جهته ونواحيه، تاريخ دمشق (89/14).

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 1 - 5] وقد تأثر أمير المؤمنين الحسن بالقيم القرآنية والنبوية والتربية العملية في حضن أمير المؤمنين علي وانعكس ذلك على نفسه وترك لنا آثاراً بارزة دالة على تأصل خلق الجود والكرم والإنفاق في شخصيته العظيمة، فقد كان على جانب عظيم من السخاء والجود، وكيف لا يكون كذلك وقد شبَّ وكبر في بيت أكرم الكرماء سيدنا رسول الله ﷺ الذي كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وقد تسلمت إليه هذه الخلقة الكريمة وتشربتها نفسه في طفولته، وأخبار كرمه وجوده أصبحت مضرب الأمثال، وقدوة العظماء من الرجال⁽¹⁾.

منها: قال محمد بن سيرين: ربما أجاز الحسن بن علي الرجل الواحد بمائة ألف⁽²⁾، وقال سعيد بن عبد العزيز: سمع الحسن رجلاً إلى جانبه يدعو الله أن يملكه عشرة آلاف درهم فقام إلى منزله فبعث إليه⁽³⁾، وذكروا أنه رأى غلاماً في حائط من حوائط المدينة يأكل من رغيف لقمة، ويطعم كلباً هناك لقمة، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: إني أستحي من أن أكل ولا أطعمه، فقال له الحسن: لا تبرح مكانك حتى آتيك، فذهب إلى سيده فاشتراه، واشترى الحائط الذي هو فيه، فأعتقه وملكه الحائط، فقال له الغلام: يا مولاي قد وهبت الحائط للذي وهبتي له⁽⁴⁾.

وقال أبو هارون العبيدي: انطلقنا حجاجاً فدخلنا المدينة، فدخلنا على الحسن بن علي، فحدثناه بمسيرتنا، وحالنا، فلما خرجنا بعث إلى كل واحد منا بأربعمائة، فخرجنا، فأخبرناه بيسارنا، فقال: لا تردوا علي معروف في فلو كنت في غير هذه الحال لكان هذا لكم يسيراً، أما إني مزودكم، إن الله يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة⁽⁵⁾، فهذا الحسن بن علي ﷺ قد أعطى أولئك الحجاج ذلك المال مع ظهور يسارهم، فكيف الحال لو كانوا محتاجين؟ وحينما أظهروا له عدم حاجتهم لم يقبل منهم رد ذلك المال، وهذا دليل على قوة الدافع في نفسه نحو السخاء والجود، ولم ينس أن يزودهم بما هو خير من ذلك حيث ذكَّروهم بفضل يوم عرفة الذي يباهي الله تعالى به ملائكته ﷺ⁽⁶⁾.

وعن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: قال ابن عباس عن الحسن بن علي: ولقد قاسم الله ماله ثلاث مرات، حتى إنه يعطي الخف ويصك النعل⁽⁷⁾. وهذا مثال عزيز في الكرم،

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| (1) الدوحة النبوية الشريفة، ص 84. | (2) تهذيب الكمال (6/234). |
| (3) سير أعلام النبلاء (3/260). | (4) البداية والنهاية (11/196). |
| (5) سير أعلام النبلاء (3/261). | (6) التاريخ الإسلامي (17/136). |
| (7) سير أعلام النبلاء (3/260). | |

حيث قسم الحسن بن علي عليه السلام ماله قسمين ثلاث مرات، فكان يتصدق بنصف ماله، ولقد كان دقيقاً في محاسبته نفسه وكأنه يؤدي واجباً من الواجبات، حيث كان يعطي الخف ويمسك النعل مع أن أحدهما لا يغني عن الآخر، وأنه في عمله هذا قد جعل من نفسه قدوة للمسلمين في أعمال الخير والإحسان⁽¹⁾.

فقد كان عليه السلام من أسخى أهل زمانه⁽²⁾، وعد عليه السلام من الأجواد⁽³⁾، ومن أخبار جوده: أن معاوية بن أبي سفيان بعث إليه بمائة ألف فقسمها بين جلسائه، فأصاب كل واحد منهم عشرة آلاف⁽⁴⁾، ومن أخبار كرمه أنه دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه ويقول: واكرهه واحزنه، فقال له الحسن: وما الذي أحزنك يا عم؟ فقال له: أي ابن رسول الله عليه السلام دين مقداره ستون ألف درهم ولا أتمكن من رده، فقال الحسن عليه السلام: سأردها عنك، فقال له أسامة: فك الله رهانك يا ابن النبي، إن الله أعلم حيث يجعل رسالته⁽⁵⁾.

وكان الناس يشهدون للحسن عليه السلام بكرمه، ودليل ذلك: أن أعرابياً قدم إلى المدينة يستعطي الناس فقيل له: عليك بالحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أو عبد الله بن جعفر أو سعيد بن العاص، فلقي سعيد بن العاص، فأكرمه وأعطاه ما أراد⁽⁶⁾.

ومن كرم الحسن عليه السلام أنه قيل له: من أحسن الناس عيشاً؟ فقال من أشرك الناس في عيشه، وقيل له: من شر الناس؟ فقال: من لا يعيش في عيشه أحد⁽⁷⁾. ولقد سئل الحسن بن علي عليه السلام: لأي شيء نراك لا ترد سائلاً وإن كنت على فاقة؟ فقال: إني لله سائلاً وفيه رغبة، وإن الله تعالى عودني عادة، عودني أن يفيض نعمه علي، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى إن قطعت عادتي أن يمنعني عادته⁽⁸⁾، وكان الحسن عليه السلام في سخائه وإيثاره لا يميز بين غني وفقير، أو صغير وكبير، أو قريب أو بعيد، لأن النفس التي ترتاح للبذل والعطاء، وجبلت على الكرم والسخاء لذتها في إسعاد الناس⁽⁹⁾ ابتغاء مرضاة الله وطلباً للمثوبة والأجر، تجد راحتها في ذلك. وكان الشاعر حافظ إبراهيم كان يعني الحسن عندما قال:

(1) التاريخ الإسلامي (137/17).

(2) المحاسن والمساويء، ص 55، الحسن بن علي، ص 32.

(3) الحسن بن علي، رسالة ماجستير، ص 32، لم تنشر.

(4) البداية والنهاية، نقلاً عن الحسن بن علي، ص 32.

(5) المحاسن والمساويء، ص 57.

(6) غاية المرام، عز الدين القرشي (1/95).

(7) تاريخ العقوي (2/226، 227).

(8) نصيحة الملوك، ص 438، للماوردي.

(9) الدرحة النبوية الشريفة، ص 84.

إني لتضطربني الخلالُ كريمةً طرب الفريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكرُ المروءة والندی بين الشمائل هزة المشتاق
فإذا رزقتُ خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسّم الأرزاق
فالناس هذا حظه مال، وذا علم، وذاك مكارم الأخلاق

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه خطب الناس ثم قال: إن ابن أخيكم الحسن بن علي قد جمع مالاً، وهو يريد أن يقسمه بينكم، فحضر الناس فقام الحسن فقال: إنما جمعه للفقراء، فقام نصف الناس، ثم كان أول من أخذ منه الأشعث بن قيس⁽¹⁾، ومن سيرة الحسن ابن علي تتعلم أن بداية انطلاق النفس إلى رضاء الله، وتخلصها من جواذب الأرض، وتطهيرها من الشح بدوام الإنفاق في سبيل الله حتى يصير سجية من سجاياها، فتزهد في المال ويخرج حبه من القلوب، فلا يفرح صاحبه بزيادته ولا يحزن على نقصانه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23]. كما أن للصدقة أثر عظيم في تزكية النفوس، فإن لها فوائد أخرى عظيمة في الدنيا والآخرة منها:

* فهي أفضل استثمار للمال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها يمينه، ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل»⁽²⁾.

* وهي حجاب من النار:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشيطان»⁽³⁾.

* وهي ظل لصاحبها يوم القيامة:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس»⁽⁴⁾.

(1) الطبقات (278 / 1) إسناده صحيح.

(2) صحيح متفق عليه، والفلو: الفرس أول ما يولد.

(3) صحيح الترغيب والترهيب للالاباني رقم: 855.

(4) المصدر السابق نفسه: 822.

* والصدقة تدفع العذاب وقد ترد الحقوق بين الناس :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار، إنكن تكثرن اللعن، وتكفرن العشير»⁽¹⁾. قال ابن حجر: وفي هذا الحديث: أن الصدقة تدفع العذاب، وأنها تكفر الذنوب بين المخلوقين⁽²⁾.

وأما في الدنيا ففوائدها كثيرة ومجزية، وجاءت الأحاديث التي تؤيد تلك الفوائد، فهي دواء للمرضى، وتدفع البلاء، وتيسر الأمور، تجلب الرزق، تقي مصارع السوء، وتطفى غضب الرب، وتزيل أثر الذنوب⁽³⁾.

إن للإنفاق في سبيل الله علاقة وثيقة بالسير إلى الله، فهو وسيلة مؤثرة غاية التأثير، كما أنه من الوسائل المحورية في إحياء القلب وإيقاظ الإيمان، ولنا في جود وكرم وإنفاق الحسن ابن علي أسوة وقدوة حسنة. فإن الإنفاق في سبيل الله من أعظم أبواب الجنة، وهو مقترح للموسرين أكثر من غيرهم، دخل من خلاله سادات الأمة الجنة، مثل عثمان وعبد الرحمن بن عوف والحسن وغيرهم، فعلى أغنياء المسلمين في العصر الحديث أن يقتحموا هذا الباب فيدعموا قضايا الإسلام العادلة ومشاريع الدعوة إليه بما يستطيعون، فيكسبون رضا الله ودخول الجنة والمساهمة في نصرة دين الله وإغاثة المحتاجين، ولا يخلوا فيضيق الله عليهم.

5 - حلمه :

كان بين الحسن بن علي ومروان بن الحكم كلام، فأقبل عليه مروان فجعل يغلظ له، والحسن ساكت، فامتخط مروان يمينه، فقال الحسن رضي الله عنه: ويحك أما علمت أن اليمين للوجه والشمال للفرج، أف لك، فسكت مروان⁽⁴⁾. وما سكوت الحسن رضي الله عنه، إلا لما كان لحق نفسه، فلما خالف مروان السنة، غضب الله وللسنة وأبان له الصواب فيها⁽⁵⁾، ولما مات رضي الله عنه، بكى مروان بن الحكم في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟ فقال: إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا، وأشار إلى الجبل⁽⁶⁾.

وذكر ابن عائشة أن رجلاً من أهل الشام قال: دخلت المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فرأيت رجلاً ركباً على بغلة، لم أر أحسن وجهاً ولا سمناً، ولا ثوباً، ولا دابة منه، فمال قلبي إليه فسألت عنه، فقيل: هذا الحسن بن علي بن أبي طالب، فامتلاً قلبي بغضاً له،

(1) متفق عليه. (2) فتح الباري (1/536).

(3) الإيمان أولاً كيف يبدأ به، ص 188 إلى 189.

(4) سير أعلام النبلاء (3/260).

(5) الدوحة النبوية الشريفة، ص 87.

(6) نهلب الكمال (6/235).

وحسدت علياً أن يكون له ابن مثله، فصرت إليه، فقلت: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ قال: أنا ابنه، قلت: فعل بك وبأبيك، أسبهما، فلما انقضى كلامي، قال لي: أحسبك غريباً، قلت: أجل، قال: مر بنا فإن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإن احتجت إلى مال آسيناك، أو إلى حاجة عاوناك، قال: فانصرفت عنه، وما على الأرض أحب إليّ منه، وما فكرت فيما صنع وصنعت إلا شكرته وخزيت نفسي⁽¹⁾.

وهذه المواقف الكريمة التي نتعلم منها الحلم من سيرة الحسن بن علي عليهما السلام وكيفية كسب المخالفين، بالإحسان إليهم والترفق بهم والصبر على أذاهم ومحنة الخير لهم، وقد يغلب على كثير منهم الجهل وعدم معرفة الحقائق، تطبيقاً لقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] واقتداءً بجده عليه السلام، فقد بلغ عليه الصلاة والسلام الذروة والغاية في حلمه وعفوه وضبط نفسه إزاء التخرصات والمفتريات التي نُسبت إليه، إضافة إلى الإيذاء من مشركي العرب: كامرأة أبي لهب، وأبي جهل، وأبي بن خلف، وغيرهم من سفهاء مكة⁽²⁾، ووصفت السيدة عائشة رضي الله عنها خُلِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح⁽³⁾، وعنهما أيضاً قالت: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط - بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء - قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيئاً من محارم الله فينتقم الله بما يشاء⁽⁴⁾.

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كظم غيظاً - وهو قادر على أن ينفذه⁽⁵⁾ - دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخَيَّرَ من أي الحور العين⁽⁶⁾ شاء»⁽⁷⁾ وفي صفة الحلم يقول الشاعر:

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى وفي الخرق⁽⁸⁾ إغراء فلا تك أخرفاً
فتندم إذ لا تنفعك ندامة كما ندم المغبون لما تفرقاً⁽⁹⁾

(1) وفيات الأعيان (2/ 67، 68).

(2) الأخلاق بين الطبع والطبع، فصل الحاشدي، ص 139.

(3) رواء الترمذي رقم: 2016، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم: 1640.

(4) مسلم رقم: 2328.

(5) ومنه العفو عند المقدرة.

(6) الحور: نساء شديدات سواد العيون وبياضها.

(7) سنن الترمذي رقم: 4777، حثه الألباني، صحيح الجامع (2/ 6518).

(8) الخرق: الجهل ضد الرفق.

(9) الأخلاق بين الطبع والطبع، ص 151.

6 - تواضعه :

مرّ الحسن بن علي عليه السلام على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق، وهم يأكلون منها، فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول: إن الله لا يحب المتكبرين. ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته، فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم من إحسانه ⁽¹⁾، ومن مواقف تواضعه: أنه مرّ على صبيان يتناولون الطعام فدعوه لمشاركتهم، فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى منزله فمضجهم بيره ومعروفه وقال: اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد مما أعطيناهم ⁽²⁾، فصفة التواضع من صفات عباد الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَبِعَاذِ الرَّحْمَنِ الَّذِيكَ تَسْتَوْن عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والتواضع علامة من علامات حب الله للعبد، قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّيْنِ مَأْتُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 64] فمن سيرة الحسن بن علي عليه السلام نتعلم صفة التواضع، قال الشاعر:

تواضع كالنجم لآخ ⁽³⁾ لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعٌ
ولا تك كالدخانٍ يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو ضيع ⁽⁴⁾

7 - سيادته :

ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانة هذا الإمام وسيادته وجلالة قدره، على مرأى ومسمع من الناس في غير مرة، وقد تواترت الروايات بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا سيد»، قال ابن عبد البر: وتواترت الآثار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، وصلى الله أن يبقيه حتى يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ⁽⁵⁾، وجاء من حديث جابر بن عبد الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا - يعني الحسن - سيد، وليصلحن الله به بين فئتين من المسلمين» ⁽⁶⁾، وعن سعيد بن أبي سعيد قال: كنا مع أبي هريرة جلوساً، فجاء حسن بن علي بن أبي طالب فسلم علينا، فرددنا عليه، وأبو هريرة لا يعلم فمضى، فقلنا: يا أبا هريرة هذا حسن بن علي قد سلم علينا، فقام فلحقه، فقال: يا سيدي، فقلت له: تقول يا

(1) حياة الإمام الحسن بن علي (1/291).

(2) صلاح الأمة في علو الهمة (5/437).

(3) لاح: ظهر وبرز.

(4) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص 128.

(5) البخاري، فضائل الصحابة (7/94).

(6) انطرباني في الكبير رقم: 2597.

سيدي؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه لسيد»⁽¹⁾، وعن جابر بن عبد الله أنه قال: «من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن علي»⁽²⁾ وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»⁽³⁾.

وقد نقل إلينا خير سيادة الحسن والحسين في الجنة جمع غفير من الصحابة، وما ذلك إلا لإعلان رسول الله ﷺ بذلك مرة بعد مرة، أو في محافل جامعة⁽⁴⁾، وقد أثبتت الأيام ومرور الشهور والأعوام على رسوخ صفة السيادة في الحسن، وقد بلغت ذروتها في توفيق الله له في عقد الصلح مع معاوية، وجمع الأمة على كلمة سواء، فقد كان الحسن سيداً جليلاً، ويعلمنا الحسن بأن السيادة لا تكون بالقهر وسفك الدماء، أو إهدار الأموال والحرمانات، بل السيادة بصيانتها وإزالة البغضاء والشحناء، فصلحه وحققه لدماء المسلمين بلغ فيه ذروة السيادة التي لا يستطيعها من فكر بالقوة وهو يملك طرفاً منها، وقد صالح الحسن معاوية وحوله الألواف، فيهم من هو طامع مدسوس ولكن فيهم الكثير الكثير من المخلصين الأوفياء، فما أراد أن تراق بسببه قطرة دم، أو يخدش مسلم في هذا السبيل، وإن الرئاسة للأقوام إن لم تكن لصيانتها وحياطتها وحفظها، وترقيتها، فهي نوع من الطاغوت الأعمى والتهور الأحمق، والمغامرة والمقامرة التي تجلب معها الدمار والخراب، والإذلال واليباب، وينتهي أصحابها إلى غضب الله، ولعنة التاريخ، وهل تدافع أمواج الدماء البشرية عبر العصور والقرون إلا من الحرص على الرئاسة والسلطان والتكالب على الدنيا⁽⁵⁾؟

8 - صفاته الخلقية:

كان الحسن بن علي رضي الله عنهما سيداً وسيماً جميلاً، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدهج العينين سهل الخدين، كث اللحية، كأن عتقه إبريق فضة، عظيم الكراديس بعيد ما بين الصنكين، ليس بالطويل ولا بالقصير، من أحسن الناس وجهاً، جعل الشعر حسن البدن⁽⁶⁾، ومن بركات الله سبحانه وتعالى على الحسن أنه كان أشبه الناس بجده ﷺ⁽⁷⁾.

(1) المستدرك (3/169) وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي.

(2) صحيح ابن حبان (15/421، 422)، مجمع الزوائد (9/178).

(3) مستدرك الحاكم (3/166) وقد صح هذا الحديث من أوجه كثيرة.

(4) الدوحة النبوية الشريفة، ص 81.

(5) الدوحة النبوية الشريفة، ص 94.

(6) سير أعلام النبلاء (3/49)، أخبار الدول، ص 105.

(7) الحسن بن علي، فتوحان كردي، ص 24.

ثانياً : من حياة الحسن بن علي في المجتمع :

ترك لنا الحسن بن علي مواقف متميزة من حياته في المجتمع الإسلامي الراشدي، فقد كان حريصاً على تصحيح المفاهيم وقضاء حوائج الناس، ومخالطتهم بالحسن، وإرشادهم بالمواعظ، والحكم النادرة وغير ذلك، وإليك تفصيل ما أجملت:

1 - تفنيده لمعتقد الرجعة :

عن عمرو بن الأصم، قلت للحسن: إن الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة، قال: كذبوا والله، ما هؤلاء بالشيعة، لو علمنا أنه مبعوث ما زوجنا نساءه، ولا اقتسمنا ماله⁽¹⁾، وكان أول من قال بالرجعة ابن سبأ، إلا أنه قال بأنه غاب وسيرجع ولم يصدق بموته، وكانت عقيدة الرجعة خاصة برجعة الإمام عند السبئية الكيسانية وغيرها، ولكنها صارت عند الاثني عشرية عامة للإمام وكثير من الناس، ويشير الألويسي إلى أن تحول مفهوم الرجعة عند الشيعة الراضية من رجعة الإمام فقط إلى ذلك المعنى العام كان في القرن الثالث⁽²⁾، وأما المفهوم العام لمبدأ الرجعة عند الاثني عشرية فهو يشمل ثلاثة أصناف:

* - الأئمة الاثني عشر، حيث يخرج المهدي من مخبئه، ويرجع من غيبته، وباقي الأئمة يحيون بعد موتهم ويرجعون لهذه الدنيا.

* - ولاة المسلمين الذين اغتصبوا الخلافة - في زعمهم الباطل - من أصحابها الشرعيين «الأئمة الاثني عشرية»، فيبعث خلفاء المسلمين وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان. . ومن قبورهم يرجعون لهذه الدنيا - كما يزعم الشيعة الإمامية - للاقتصاص منهم بأخذهم الخلافة من أهلها، فتجري عليهم عمليات التعذيب والقتل والصلب.

* - عامة الناس، ويخص منهم: من محض الإيمان محضاً، وهم الشيعة عموماً - علي حد زعمهم - ولأن الإيمان خاص بالشيعة كما تنفق على ذلك رواياتهم وأقوال شيوخهم، ومن محض الكفر محضاً وهم كل الناس ما عدا المستضعفين⁽³⁾. ولهذا قالوا في تعريف الرجعة: إنها رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة⁽⁴⁾، وعودتهم إلى الحياة بعد الموت في صورهم التي كانوا عليها⁽⁵⁾.

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 263).

(2) روح المعاني (27/ 5)؛ ضحى الإسلام، أحمد أمين (3/ 237).

(3) أصول الشيعة الإمامية (2/ 1105).

(4) تفسير القمي (2/ 76)، وضع عنواناً في أعلى الصفحة: أعظم دليل على الرجعة.

(5) أوائل المقالات، ص 95.

وقد خالف الشيعة الإمامية علماء أهل البيت ممن ساروا على الهدى والحق: كتاب الله وسنة رسوله في معتقد الرجعة، وعلى رأسهم الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وجعلوا الرجعة من أصول المذهب الشيعي الرافضي، فمن رواياتهم التي اختلقها الرواة الكذبة: ليس منّا من لم يؤمن بكَرَّتِنَا⁽¹⁾، وقال ابن بابويه في الاعتقادات: واعتقادنا في الرجعة أنها حق⁽²⁾، وقال المفيد: وانفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات⁽³⁾، وقال الطبرسي والحر العاملي، وغيرهما من شيوخ الشيعة: بأنها موضع إجماع الشيعة الإمامية⁽⁴⁾، وأنها من ضروريات مذهبهم، وأنهم: مأمورون بالإقرار بالتوحيد والنبوة والإمامة والقيامة⁽⁵⁾.

إن فكرة الرجعة عند الشيعة الإمامية بعد الموت مخالفة صريحة لنص القرآن الكريم، وباطلة بدلالة آيات عديدة من كتاب الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هَرَفًا وَإِنَّهُمْ بِرُجْعِكُمْ لَبَشِيرٌ لِّمَنْ يَرْجِعُ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: 98-100] فقوله سبحانه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمْ بِرُحْمٍ إِلَىٰ بَوْرٍ يُبْعَثُونَ﴾ صريح في نفي الرجعة مطلقاً⁽⁶⁾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِثْنَا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا بَنِيَّانَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِكُمْ رَبَّنَا وَكُنُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ قَبْلُ وَكُنْتُمْ لَكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: 27-28]. فهؤلاء جميعاً يسألون الرجوع عند الموت، وعند العرض على الجبار جلّ في علاه، وعند رؤية النار يجابون، لما سبق من قضائه: أنهم لا يرجعون، ولذلك عد أهل العلم القول بالرجعة إلى الدنيا بعد الموت من أشدّ مراحل الغلو في بدعة التشيع⁽⁷⁾.

وقد مر معنا موقف الحسن بن علي من رواية عمرو بن الأصم، وقد جاء في مسند أحمد: أن عاصم بن ضمرة - وكان من أصحاب علي عليه السلام - قال للحسن بن علي: إن الشيعة يزعمون أن علياً يرجع. قال الحسن: كذب أولئك الكذابين، ولو علمنا ذلك ما تزوج نساؤه ولا قسمنا ميراثه⁽⁸⁾، والقول بالرجعة بعد الموت على الدنيا لمجازاة الميتين وإثابة المحسنين ينافي طبيعة هذه الدنيا، وأنها ليست دار جزاء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّقُكَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِّخَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ [إبراهيم: 185].

وقد كان لابن سبأ اليهودي دور التأسيس لمبدأ الرجعة، إلا أنها رجعة خاصة بعلي، كما أنه

(1) أصول الشيعة الإمامية (2/1103).

(2) الاعتقادات، ص 90.

(3) أوائل المقالات، ص 51.

(4) مجمع البحرين (4/334).

(5) مجمع البيان (5/52).

(6) مختصر التحفة، ص 201.

(7) أصول الشيعة الإمامية (2/1124).

(8) مسند أحمد (2/312)، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ينفي وقوع الموت عليه أصلاً، كحال الاثني عشرية مع مهديهم الذي يزعمون وجوده، وعقيدة الرجعة عند الشيعة الإمامية خلاف ما علم من الدين بالضرورة من أنه لا حشر قبل يوم القيامة، وأن الله كلما توعد كافراً أو ظالماً إنما توعد به يوم القيامة، كما أنها خلاف الآيات والأحاديث المتواترة المصرحة بأنه لا رجوع إلى الدنيا قبل يوم القيامة⁽¹⁾. هذا من حيث النقل، وأما من حيث العقل: فإن الله جعل الدنيا دار ابتلاء، وجعل الآخرة دار جزاء، فلماذا يرجعهم للدنيا ليحاسبهم فيها مع وجود الآخرة؟! علماً بأن عذاب الآخرة أعظم وأشد لمن انحرف عن دينه، ولم يحدث أن أرجع الله أحداً من الأموات ليحاسبه في الدنيا في تاريخ البشرية كلها.

2 - قضاء حوائج الناس:

جاء رجل إلى الحسن بن علي عليه السلام فذكر له حاجته فخرج معه لحاجته، فقال: أما إني قد كرهت أن أعنيك في حاجتي، ولقد بدأت بحسين فقال: لولا اعتكافي لخرجت معك. فقال الحسن: لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إلي من اعتكاف شهر⁽²⁾، وجاء في رواية أخرى: أنه ترك الطواف وخرج في حاجة إنسان له حاجة عند شخص معين⁽³⁾.

وجاء من كلام الحسن - وذكر بعض الكتاب أنه من كلام الحسين عليه السلام - : إن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملوا النعم فتحور⁽⁴⁾ تقماً، واعلموا أن المعروف مكسب حمداً ومعقب أجرأ، فلو رأيتم المعروف رجلاً، رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين ويفوق العالمين، ولو رأيتم اللؤم، رأيتموه سمجاً⁽⁵⁾ مشوهاً، تنفر عنه القلوب والأبصار⁽⁶⁾.

وذكر صاحب كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة: أن رجلاً رفع إلى الحسن بن علي عليه السلام رقعة فقال: قد قرأتها، حاجتك مقضية، فليل له: يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، لو نظرت إلى رقعته وراجعته على حسب ما فيها، فقال: أخاف أن أسأل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأها⁽⁷⁾.

وهذه المواقف تدل على حسن أخلاقه وعظمتها مع تواضع كبير، ولا نستغرب ذلك من سيدنا الحسن، فهو القائل: مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلوة الرحم، والترحم على الجار، ومعرفة الحق للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء⁽⁸⁾.

(1) أصول الشيعة الإمامية (2/ 1124).

(2) تاريخ دمشق الكبير (14/ 76).

(3) المصدر السابق نفسه. (14/ 76).

(4) تحور: ترجع.

(5) سمج: قبيح، لسان العرب (2/ 197).

(6) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص 439.

(7) من أقوال الصحابة، محمد خورشيد، ص 88، الحسن بن علي، ص 31.

وأيضاً قوله: أشد من المصيبة سوء الخلق⁽¹⁾.

وهذه المواقف الكريمة للحسن عليه السلام تطبيقاً لتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن دينار عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قيل: يا رسول الله، من أحب الناس إلى الله؟ قال: «أنضمهم للناس، وإن أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن، تكشف عنه كرباً أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة، أحب إليّ من أن اعتكف شهرين في مسجد. . . ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يُبْتَهَا له، ثَبَّتَ اللهُ قدمه يوم تزل فيه الأقدام، وإنَّ سوء الخُلُقِ يُفْسِدُ العمل، كما يفسد الخُلُقُ العمل⁽²⁾. وعن مسلمة بن مخلد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ستر مسلماً في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نجى مكروباً فك الله عنه كُربَةً من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»⁽³⁾.

3 - زواجه من بنت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

عن شعيب بن يسار، أن الحسن بن علي أتى ابناً لطلحة بن عبيد الله⁽⁴⁾، فقال: قد أتيتك لحاجة وليس لي مرد، قال: وما هي؟ قال: تزوجني أختك⁽⁵⁾، قال: إن معاوية كتب إلي بخطبها على يزيد، قال: مالي مردٌ إذ أتيتك، فزوجها إياي، ثم قال: ادخل بأهلك، فبعث إليها بحلة ثم دخل بها، فبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى مروان أن خيرها، فخيرها فاختارت حسناً فأقرها، ثم خلف عليها بعده حسين⁽⁶⁾.

4 - زواجه من خولة بنت منظور:

عن ابن أبي مليكة، قال: تزوج الحسن بن علي خولة بنت منظور فبات ليلة فوق إجاز⁽⁷⁾، فشدت خمارها برجله والطرف الآخر بخلخالها، فقام من الليل فقال: ما هذا؟ قالت: خفت أن تقوم من الليل بوسنك⁽⁸⁾ فتسقط، فأكون أشأم سخلة⁽⁹⁾ على العرب،

(1) تاريخ اليعقوبي (2/ 227).

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: 906، وحسن الألباني إسناده في الصحيح الجامع.

(3) مصنف عبد الرزاق رقم: 18936، حديث صحيح.

(4) هو إسحاق بن طلحة. (5) هي أم إسحاق.

(6) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 292) إسناده لا بأس به.

(7) المصدر نفسه (1/ 307) الإجاز: سطح ليس حواله ستره.

(8) الوسن: قيل: النوم الثقيل، وقيل: أول النوم.

(9) سخلة: السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن ذكراً أو أنثى، ويطلق على المولود المحب لوالديه، والمراد: أشأم امرأة.

فأحبها، فأقام عندها سبعة أيام⁽¹⁾. فقال ابن عمر: لم تر أبا محمد منذ أيام. فانطلقوا بنا إليه، فأتوه فقالت له خولة: أتحبهم حتى نهيت لهم غداء؟ قال: نعم، قال ابن عمر: فابتدأ الحسن حديثاً ألحانا بالاستماع إعجاباً به حتى جاءنا الطعام⁽²⁾.

5 - لا يرى أمهات المؤمنين:

كان الحسن والحسين لا يريان أمهات المؤمنين. فقال ابن عباس: إن رؤيتهن حلال لهما، وعلق الذهبي فقال: الحل متيقن⁽³⁾. وهذا يدل على شدة حياته.

6 - الغيرة في النسب النبوي:

دخل سيدنا الحسن بن علي عليه السلام السوق لحاجة يقضيها فساوم صاحب دكان في سلعة، فأخبره بالسعر العام، ثم علم أنه الحسن بن علي عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، فنقص في السعر إجلالاً له وإكراماً، ولكن الحسن بن علي عليه السلام لم يقبل منه ذلك، وترك الحاجة، وقال: إنني لا أرضى أن أستفيد من مكائتي من رسول الله في شيء تافه⁽⁴⁾.

وهذا الحال كان مصاحباً لأهل البيت ممن ساروا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، فهذا زين العابدين بن علي بن الحسين، يقول عنه جويرية بن أسماء - وهو من أخص خدمه: ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله درهماً قط⁽⁵⁾، وكان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا أعطي به⁽⁶⁾. وكذلك روي عن أبي الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم فقد قيل: إنه كان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا أعطي به⁽⁷⁾، فهؤلاء السادة من أهل البيت كانوا غياري أشد الغيرة في الرحم التي كانت تصلهم برسول الله صلى الله عليه وآله فما كانوا يستغلون هذه النسبة لمصالح دنيوية، شأن أبناء أسر الزعماء الدينيين في الديانات الأخرى ممن يتالون تقديساً زائداً في كل حال، ويعاملون من أتباعهم كشخصيات تفوق البشر، وكانوا بعيدين عن كسب حطام الدنيا بأسمائهم، وبناء قصور الفخر على عظامهم، واستغنائهم وعزة أنفسهم، تصور سيرتهم

(1) المعلوم من السنة أن الرجل إذا تزوج امرأة على زوجته فإنه يقيم عندها سبعة أيام متواصلة إذا كانت بكرًا وثلاثة أيام إذا كانت ثيبًا ثم يعود إلى القسم يتهن، وخولة عندما تزوجها الحسن لم تكن بكرًا حيث سبقها عليه محمد بن طلحة بن عبيد الله كما في جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص 258، وحفظها ثلاث ليال لا سع. وهذا ما يؤكد ضعف الرواية فإن إسنادها ضعيف جداً، وهذه نكارة في المتن تؤكد الضعف.

(2) الطبقات، تحقيق السلمي (307/1، 308) إسناده ضعيف.

(3) سير أعلام النبلاء (3/265). (4) المرتضى للندوي، ص 228.

(5) البداية والنهاية، نقلًا عن المرتضى للندوي، ص 228.

(6) وفيات الأعيان (2/434). (7) المصدر السابق نفسه (2/434).

وسلوكلهم تصويراً يختلف تماماً عن سيرة الطبقة المحترفة بالدين من البراهمة والكهنة في الديانات والملل الأخرى، فإنها تعتبر ذات قدسية وعظمة عن طريق الولادة، فهي لا تحتاج لكسب المعاش وتحقيق حاجات الحياة إلى بذل شيء من الجُهد والسعي⁽¹⁾.

7 - صلته على الأشعث بن قيس:

مات الأشعث بن قيس بعد مقتل أمير المؤمنين علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن علي⁽²⁾، وهو زوج بنت الأشعث بن قيس⁽³⁾، وقد ذهبت بعض الروايات الضعيفة إلى تورط الأشعث بن قيس في دم أمير المؤمنين وهذا ليس عليه دليل، وذلك لأن الأشعث بن قيس عند استعراض دوره في خلافة علي عليه السلام نجده مخلصاً ووفياً، فهو أول من حارب أهل الشام أثناء القتال على الماء، وأظهر العداوة للخوارج منذ نشأتهم، فهو الذي أبلغ علياً عليه السلام أن الخوارج يقولون: إن علياً تاب من خطيئته ورجع عن التحكيم، وقاتل علي الخوارج في النهروان، وقد حرص كل الحرص على أن يوطد علاقته بعلي وآل بيته فزوج ابنته من الحسن بن علي عليه السلام، وعندما أراد الحسن أن يني بها قامت كندة وجعلت أرويتها بسطاً من بايه إلى باب الأشعث⁽⁴⁾، وقد مات الأشعث بعد مقتل علي وصلى عليه الحسن بن علي كما مرّ، ولم ينقل عن آل علي بن أبي طالب عليهم السلام أنهم اتهموا الأشعث بهذه التهمة، أو كشفوا أحداً من آل الأشعث بهذا السب، وينقل قتل علي عملاً من تدبير الخوارج جاء في الأرجح ثأراً لقتلى النهروان⁽⁵⁾.

8 - معاملته لمن يسيء إليه:

قدم رجل من المدينة وكان يبغض علياً فقطع به فلم يكن له زاد ولا راحلة، فشكا ذلك إلى بعض أهل المدينة، فقال له: عليك بالحسن بن علي، فقال له الرجل: ما لقيت هذا إلا في حسن وأبي حسن؟ فقيل له: فإنك لا تجد خيراً إلا منه، فأناه فشكا إليه، فأمر له بزاد وراحلة، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فقيل للحسن: أذاك رجل يبغضك ويبغض أباك فأمرت له بزاد وراحلة؟ قال: أفلا أشتري عرضي منه بزاد وراحلة⁽⁶⁾.

9 - من أدبه في المجالس:

كان ذات يوم جالساً في مكان، فأراد الانصراف، فجاءه فقير فرحب به ولاحظه وقال له:

(1) المرتضى للندي، ص 228.

(2) الكامل في التاريخ (3/444).

(3) تهذيب التهذيب (2/300).

(4) تهذيب الكمال (3/393 - 394) الطبقات (6/23).

(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، بطاينة، ص 52.

(6) تاريخ ابن عساکر (14/76).

إنك جلست على حين قيام منا أفئذن لي بالانصراف؟ قال: نعم يا ابن بنت رسول الله ﷺ (1).

10 - حسن خلقه بين الناس:

عن عمير بن إسحاق قال: ما تكلم عندي أحد كان أحب إليّ إذا تكلم ألا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة، فإنه كان بين الحسين بن علي وبين عمرو بن عثمان خصومة، فقال الحسن: ليس له عندنا إلا ما رَغِمَ أنفه. فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه قط (2).

11 - ملاحظته بالمداحي (3):

قال سليمان بن شديد: كنت ألاعب الحسن والحسين بالمداحي فكنت إذا أصبت مدحاته فكان يقول لي: يحل لك أن تترك بضعة من رسول الله ﷺ! وإذا أصاب مدحاتي قال: أما تحمد ربك أن يركبك بضعة من رسول الله ﷺ (4).

12 - بعده عن فضول الكلام:

كان الحسن بن علي أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بَدُّ القائلين، فالحسن بن علي يعلمنا الابتعاد عن فضول الكلام، وهذا عن هدي النبي ﷺ، فقد قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (5)، وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (6)، وجاء عنه: «من صمت نجاً» (7)، وسئل الرسول ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الضم والفرج» (8)، وقد سئل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «كُفَّ عليك هذا». فقال: وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكَبُّ الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» (9) ويقول ابن عبيد: ما من الناس أحد يكون لسانه

(1) الطبقات (1/ 281) تحقيق الشلبي، إسناده ضعيف، تاريخ الخلفاء، ص 73.

(2) البداية والنهاية (11/ 198).

(3) المداحي: هي أحجار أمثال القِرْصَة كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها وإن لم يقع غُلب، وهي لعبة يلعب بها أهل مكة، وقد سئل ابن المسيب عن المراماة والمسابقة بها فقال: لا بأس به.

(4) الطبقات، تحقيق الشلبي (1/ 294).

(5) صحيح الجامع رقم: 6136.

(6) البخاري رقم: 6136.

(7) صحيح الترمذي وقال: حديث صحيح.

(8) السلسلة الصحيحة رقم: 669.

(9) السلسلة الصحيحة رقم: 2841.

(7) صحيح الجامع رقم: 6367.

(9) سنن الترمذي وقال: حديث صحيح.

منه علي بال إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله⁽¹⁾، وكان ابن الكاتب يقول: إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه⁽²⁾، وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رسالة: أما بعد: فإنه من أكثر ذكر الموت رضي بالدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه، والسلام⁽³⁾. فالحسن بن علي كان يعد كلامه من عمله، ولذلك أكثر الصمت.

13 - إكرام الحسن بن علي أسامة بن زيد رضي الله عنه:

عن حرمة - مولى أسامة - قال: أرسلني ابن زيد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال لي: إنه سيسألك ويقول لك: ما خلف صاحبك؟ فقل له: يقول لك: لو كنت في شدة الأسد لأحببت أن أكون معك فيه، ولكن هذا أمر لم أره، قال: فأتيت علياً فلم يعطني شيئاً، فذهبت إلى حسن وحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم فأوقروا لي راحلتي⁽⁴⁾.

14 - الحسن بن علي واليهودي الفقير:

اغتمل الحسن رضي الله عنه وخرج من داره في بعض الأيام وعليه حلة فاخرة ووفرة ظاهرة ومحاسن مسافرة، فمرض له في طريقه شخص من محايير اليهود وعليه مسح من جلود، قد أنهكته العلة، وركبته القلة والذلة، وشمس الظهيرة قد شوت شواه وهو حامل جرة ماء على قفاه، فاستوقف الحسن رضي الله عنه وقال: يا ابن رسول الله، سؤال، قال: ما هو؟ قال: جدك يقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»⁽⁵⁾ وأنت مؤمن وأنا كافر. فما أرى الدنيا إلا جنة لك تتنعم بها، وما أراها إلا سجناً عليّ قد أهلكني ضرها وأجهدني فقرها، فلما سمع الحسن كلامه قال له: يا هذا لو نظرت إلى ما أعد الله لي في الآخرة لعلمت أنني في هذه الحالة بالنسبة إلى تلك في سجن، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك في الآخرة من العذاب الأليم لرأيت أنك الآن في جنة واسعة⁽⁶⁾. لقد كان الحسن بن علي حاضر البديهة، فأجاب بجواب مقنع مفحم حيث أوضح له أن حالته التي يشكو منها إنما هي كالجنة بالنسبة إلى عذاب الآخرة الذي أعد للكافرين، وأن حالة الحسن التي ظنها نعيماً إنما هي كالسجن بالنسبة إلى نعيم الجنة الذي أعد للمتقين⁽⁷⁾.

15 - احترام وتقدير ابن عباس للحسن والحسين رضي الله عنهما:

قال مدرك أبو زياد: كنا في حيطان ابن عباس فجاء ابن عباس وحسن وحسين فطافوا في

(1) صفة الصفوة (3/ 372).
 (2) سير أعلام النبلاء (5/ 133).
 (3) مسلم وابن ماجه رقم: 4113.
 (4) الحسن والحسين، محمد رشيد رضا، ص 32.
 (5) المصدر السابق نفسه (4/ 323).
 (6) ذخائر المقفى، ص 237.
 (7) الحسن والحسين رضي الله عنهما، ص 33.

البتان فنظروا ثم جاؤوا إلى ساقية فجلسوا على شاطئها فقال لي حسن: يا مُدرك أعتدك غداء؟ قلت: قد خبزنا، قال: ائت به. قال: فجنته بخبز وشيء من ملح جريش وطاقتي بقل فأكل ثم قال: يا مُدرك ما أطيب هذا! ثم أتى بغدائه، وكان كثير الطعام طيبه - فقال: يا مُدرك اجتمع لي غلمان البتان، قال: فقدم إليهم فأكلوا ولم يأكل فقلت: ألا تأكل؟ فقال: ذلك أشهى عندي من هذا، ثم قاموا فتوضأوا ثم قَدَّمت دابة الحسن فأمسك له ابن عباس بالركاب وسوّى عليه، ثم جيء بدابة الحسين فأمسك له ابن عباس بالركاب وسوّى عليه، فلما مضيا قلت: أنت أكبر منهما تمسك لهما وتسوّى عليهما؟ فقال: يا لكع أتدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله ﷺ هذا مما أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأسوّى عليهما⁽¹⁾.

وهذا الاحترام والتقدير من ابن عباس للحسن والحسين دليل على محبته لهما ومعرفة فضلهما، كما يدل على فضل ابن عباس فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهله. وقد كان أمير المؤمنين علي يعامل عمه العباس والد عبد الله معاملة قلّ نظيرها في الاحترام والتقدير، فعن ابن عباس رضي - قال: اعتلّ أبي العباس، فعاده عليّ، فوجدني أضبط رجلية، فأخذهما من يدي، وجلس موضعي وقال: أنا أحقّ بعَمِّي منك، إن كان الله ﷻ قد توفّي رسول الله ﷺ وعمّي حمزة وأخي جعفر فأفقد أبقى لي العباس. عمّ الرجل صنو أبيه، ويرّه به كبره بأبيه، اللهمّ هب لعَمِّي عافيتك وارفع له درجته، واجعله عندك في عليّين⁽²⁾.

16 - ثناء عبد الله بن الزبير رضي على الحسن:

قال عبد الله بن عروة: رأيت عبد الله بن الزبير قعد إلى الحسن بن علي في غداة من الشتاء باردة قال: فوالله ما قام حتى تفسخ جبينه عرقاً فغاطني ذلك، فقامت إليه فقلت: يا عم! قال: ما تشاء؟ قال: قلت: رأيتك قعدت إلى الحسن بن علي، فأقامت إليه حتى تفسخ جبينك عرقاً قال: يا ابن أخي إنه ابن فاطمة، لا والله ما قامت النساء عن مثله⁽³⁾.

17 - بين الحسن والحسين رضي:

ذكر ابن خلكان (بصيغة التمریض) وقيل: دار بين الحسن والحسين كلام فتقاطعا فقيل للحسين: لو أتيت أخاك فهو أكبر منك سناً، فقال: فإن الفضل للمبتدئ وأنا أكره أن يكون لي الفضل على أخي، فبلغ ذلك الحسن فأناه⁽⁴⁾.

18 - أكرم الناس أباً وأماً وجداً وجدّة وخالاً وخالة وعماً وعمّة:

قال معاوية - وعنده عمرو بن العاص وجماعة من الأشراف - : من أكرم الناس أباً وأماً

(2) ذخائر العقبى، ص 337.

(4) وفيات الأعيان (69/2).

(1) تاريخ ابن عساكر (69/14).

(3) تاريخ ابن عساكر (70/14).

وجداً وجدةً وخالاً وخالة وعماً وعمّة؟ فقام النعمان بن العجلان الزُّرقاني، فأخذ بيد الحسن فقال: هذا أبوه علي وأمه فاطمة وجده رسول الله ﷺ، وجدته خديجة، وعمّه جعفر، وعمته أم هاني بنت أبي طالب، وخاله القاسم، وخالته زينب⁽¹⁾.

19 - محبة الناس له ولأخيه الحسين وازدحامهم عليهما في البيت الحرام:

قال أبو سعيد: رأيت الحسن والحسين صلياً مع الإمام العصر ثم أتيا الحجر فاستلماه ثم طافا أسبوعاً وصلياً ركعتين، فقال الناس: هذان ابنا بنت رسول الله ﷺ، قال: فحطهما الناس حتى لم يستطيعا أن يمضيا، ومعهما رجل من الركانات، وأخذ الحسين بيد الركاني⁽²⁾، وردة الناس عن الحسن - وكان يجله، وما رأيتهما مرّاً بالركن الذي يلي الحجر من جانب الحجر إلا استلماه، قال: قلت لأبي سعيد⁽³⁾: فلعله بقي عليهما بقية من سُبُوع قطعت الصلاة؟ قال: لا، بل طافا أسبوعاً تاماً⁽⁴⁾.

ثالثاً: من أقواله وخطبه ومواعظه التي حفظها عنه الناس:

1 - قال الحسن بن علي: هلاك الناس في ثلاث: الكبر والحرص والحسد، فالكبر هلاك الدين، وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هايل⁽⁵⁾.

فهذه الأمراض القلبية حذر منها الحسن بن علي رضي الله عنهما وهي من أشد الأمراض علة، وإليك بعض البيان:

أ - مرض الكبر: قول الحسن: فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس:

الكبر نقيض التواضع، وهو استعظام النفس واستكبار حالة نفسه، والنظر إلى الآخرين بعين الاحتقار، وهو من عظيم الآفات، وعنه تشعب أكثر البليات ويستوجب به من الله ﷻ سرعة العقوبة والغضب، لأن الكبر لا يحق إلا لله ﷻ، ولا يليق ولا يصلح لمن دونه، إذ كل من سواه عبد مملوك، وهو المليك الإله القادر، فيستحق المتكبر أن يقصمه الله ﷻ ويحقره ويصفره، إذ تعدى قدره، وتعاطى ما لا يصلح لمخلوق⁽⁶⁾.

(1) تاريخ ابن عساکر (70/14).

(2) كأنه منسوب إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلب الذي صارعه النبي ﷺ مرتين، كما في مادة ركن من القاموس وشرحه.

(3) القائل: الراوي وهو عمارة بن معاوية الذهني.

(4) تاريخ ابن عساکر (69/14).

(5) علموا أولادكم حب آل بيت النبي ﷺ، ص 31.

(6) منهج الإسلام في تركية النفس، ص 342.

- علامات التكبر: وللتكبر علامات في الظاهر تدل عليه، فمنها: حب التقدم على الناس، وإظهار الترفع عليهم، وحب التصدر في المجالس والتبختر في المشية، والاستكفاف من أن يرد عليه كلامه وإن كان باطلاً، والامتناع من قبوله، والاستخفاف بضعفاء المسلمين ومساكينهم، ومنها تزكيتة لنفسه والثناء عليها، والفخر بالآباء والتبجح بالنسب، والتكبر بالمال والعلم والعمل والعبادة والجمال والقوة، وكثرة الأتباع والأنصار والعشيرة ونحو ذلك⁽¹⁾.

الوقاية والعلاج من هذا المرض:

* أن يُسائل المسلم نفسه وأن يراقب قلبه، هل هو متكبر؟ هل يميل إلى التكبر؟ فإن وجد نفسه ميلاً إلى التواضع كارهاً للتكبر وأهله، فليحمد الله ﷻ على ما أنعم عليه وأفضل، وإلا عاتب نفسه، وحاسبها وجاهدتها، وهذبها بكثرة الذكر والعبادة والصيام والطاعة، وعاقبها بحرمانها من كثير من الراحة واللهو والرغبات المباحة حتى تعود إلى رشدها، وتبتعد عن طريق غيها، وتشفى من مرضها.

* وأن يضع المسلم نصب عينه حقيقة هذا المرض ونتائجه في الدنيا والآخرة، وحكمه في الشريعة، وعقابه في الدنيا والآخرة، ومن القرآن والسنة والواقع، وقصص الصالحين وحياتهم، فهذا القرآن الكريم يظهر أن التكبر من صفات الشيطان، قال تعالى في إبليس اللعين: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

والتكبر لا يحبه الله، كما قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ لَكَ اللَّهُ بِمَا تُشِيرُوكَ وَمَا يُشِيرُوكَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَوِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِسْ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القمان: 18].

والخيلاء والفخر من أوصاف المتكبر، والمتكبر متعرض لأن يطبع الله على قلبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَدِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ بِمَنِّ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَذِبًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [عافر: 35].

فإن تكبر بالعلم والعبادة وهو أعظم آفات التكبر، فعليه أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم...، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل من العالم، وبالتكبر يعصي الله ﷻ عن

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس، ص 342.

علم، فجنائته أفحش وخطره أعظم، وإن تكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ثم يعلم أباه وجدّه، فإن أباه القريب نطفة قدرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فليُنظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى ظاهره نظر البيهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو ألمه عرق عاد أعجز من عاجز، ومن تكبر بسبب الغنى فليُنظر لمن هو أغنى منه قارون وهامان وما حل بهما، من كل ذلك يجد نفسه أصغر من أن يتكبر، وما عليه إلا أن يتواضع فيرفع الله ويعزه، ويعلو شأنه ويرضى الله عنه في الدنيا والآخرة، وأن يعتبر بالآخرين ممن ذكروا في القرآن الكريم أو السنة الشريفة، أو من قصص الأقدمين والحاضرين ممن تكبروا، فما كان مصيرهم ومآلهم وخزيهم في الدنيا والآخرة؟ يعتبر منهم فيتقي نفسه من التكبر ويعالجها إن مرضت، وأن يصاحب المتواضعين من الصالحين ليتنفع منهم ويكسب من أخلاقهم وأقوالهم وطريقة معاملتهم للآخرين، ويتعد عن المتكبرين ولا يجالسهم، حتى لا يكسب منهم ما يضره في الدنيا والآخرة، أو يتأثر بهم فينساق في أهوائهم وضلالاتهم⁽¹⁾.

ب - الحرص: قول الحسن: والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»⁽²⁾، فهذا مثل عظيم جداً ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس دون فساد الغنم بذئبين جائعين ضارين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل، فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساوياً وإما أكثر. يشير إلى أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

- حال من حرص على جمع المال:

فأما الحرص على المال فهو على نوعين:

* أحدهما شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة والمبالغة في طلبه، والجد في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة، وقد ورد أن سبب الحديث كان وقوع بعض أفراد هذا النوع، كما أخرجه الطبراني⁽³⁾ من حديث عاصم بن عديّ رضي الله عنه قال:

(1) منهج الإسلام في تزكية الإسلام، ص 346.

(2) الإحسان في تريب، صحيح ابن حبان رقم: 3218، حسن صحيح.

(3) الطبراني في الأوسط (470/1) رقم: 855.

اشترت مائة سهم من سهام خيبر فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما ذئبان ضاريان ضلًّا في غنم أضاعها ربُّها بأفسد في طلب المسلم المال والشرف لدينه»⁽¹⁾. وقد علق ابن رجب رحمته على الحديث فقال: ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له، وقد يُمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم، فضيَّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلا ما قُدِّر وقُسم، ثم لا يتنفع به، بل يتركه لغيره، ويرتحل عنه فيبقى حسابه عليه ونفقه لغيره فيجمع لمن لا يحمدُه، ويقدم على مَنْ لا يعذرُه، لكفاه بذلك ذمًّا للحرص، فالحرص يضيع زمانه الشريف، ويخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال يتنفع به غيره، كما قيل:

ومن ينفق الأيام في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقير⁽²⁾

وقال ابن مسعود رضي: اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحسدنَّ أحدًا على رزق الله، ولا تلمنَّ أحدًا على ما لم يؤتكَ الله، فإنَّ الرزق لا يسوقه حرصُ حريص، ولا ترده كراهة كاره، فإنَّ الله يقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرِّضا، وجعل الهمَّ والحزن في الشك والسُّخط⁽³⁾.

وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله: لحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندي من أغدَى أعدائه. وكان يقول: يا أخوتاه، لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غداً في المعاد، ثم يتكبر، وكان يقول: الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع، فأما النافع فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع فحرص المرء على الدنيا⁽⁴⁾.

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا: أما بعد: فإنك أصبحت حريصاً على الدنيا تخدمها وهي تخرُجك من نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل، كأنك لم تر حريصاً محروماً ولا زاهداً مرزوقاً. وقال بعض الحكماء: أطول الناس همًّا الحسود، واهنؤهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص، وأخفضمهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفروط⁽⁵⁾.

قال الشاعر:

الحرص داء قد أضرُّ بمن ترى إلا قليلا

(1) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان رقم: 3218، حسن صحيح.

(2) ما ذئبان جائعان لابن رجب، ص 23. (3) المصدر السابق نفسه، ص 26.

(4) ما ذئبان جائعان، ص 26. (5) المصدر السابق نفسه، ص 27.

كَمَ مِنْ حَرِيصٍ طَامِعٍ وَالْحَرِصَ صَيْرُهُ ذَلِيلًا⁽¹⁾
وقال الشاعر محمود الوراق:

ونازح الدار لا ينفك مغترباً عن الأحبة لا يدرون بالحال
بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرص على بال
ولو قنعت أذاك الرزق في دعة إن القنوع الغنى لا كثرة المال
وقال أيضاً:

أيها المتمعب جهداً نفسه يطلب الدنيا حريصاً جاهداً
لا لك الدنيا ولا أنت لها فاجعل الهممين همماً واحداً⁽²⁾.

وأما النوع الثاني من الحرص على المال: أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 18]. وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الشحَّ فإنَّ الشحَّ أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور فقجروا»⁽³⁾.

وقال طائفة من العلماء: الشحُّ هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير جلتها، ويمنعها حقوقها⁽⁴⁾، والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده. والشحُّ تناول ما ليس له ظلماً وعُدواناً من مال أو غيره. حتى قيل: إنه رأس المعاصي كلها، وبهذا فسَّرَ ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف الشحَّ والبخل⁽⁵⁾، وقد يستعمل الشحُّ بمعنى البخل وبالعكس، ولكنَّ الأصل هو التفريق بينهما على ما ذكرناه، ومتى وصل الحرص على المال إلى هذه الدرجة نقص بذلك الدين والإيمان نقصاً بيّناً، فإن منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدين والإيمان بلا ريب حتى لا يبقى منه إلا القليل⁽⁶⁾.

وأما حرص المرء على الشرف فهو أشدَّ إهلاكاً من الحرص على المال، فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها، والرياسة على الناس، والمُلُو في الأرض أضرُّ على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف، والحرص على الشرف قسمين:

(1) ما ذئبان جاثعان، ص 27.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 29.

(3) سنن أبي داود (2/324) رقم: 1698، صححه الألباني.

(4) ما ذئبان جاثعان، ص 31.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 31.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 31.

أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جداً وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالنَّافِلِينَ﴾ [القصر: 83]، وقل من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيؤفَّق، بل يُوكَلُ إلى نفسه، كما قال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها»⁽¹⁾. واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضرراً عظيماً، قبل وقوعه: في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه: بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد⁽²⁾.

وأما القسم الثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية: كالعلم والعمل والزهد، فهذا أفحش من الأول، وأقبح فساداً وخطراً، فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى والنعم المقيم، والقرب منه، والرؤى لديه⁽³⁾.

* علاج مرض الحرص: وأما طريقة العلاج من الحرص المذموم، فيكون بالزهد وفيه أسباب عديدة منها:

- نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة.
- نظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمتكبرين، ومن يتنازع الله رداء الكبرياء.
- نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة، فإن من تواضع لله رفعه الله.
- وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوِّض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يغني عن المال والشرف، مما يجعله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدنا الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرياسات، والحرص على الشرف، كما قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل، والرياسة الفانية⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَيَأْسُ الْفُقَرَاءُ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأمراء: 26] وقال: ﴿مَنْ كَانُ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: 10]. فالحسن بن علي رضي الله عنه يحذرننا من الحرص المذموم، ولذلك قال: الحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة⁽⁵⁾.

(1) البخاري رقم: 6622. (2) ما ذئبان جانتان، ص 43، 35.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 47. (4) المصدر السابق نفسه، ص 75، 76.

(5) علموا أولادكم حب آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ص 131.

ج - الحسد: قال الحسن: والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل:

الحسد نقيض الحب الذي هو تمني الخير للآخرين، فهو تمني زوال النعمة عن المحسود، وهو مرض مهلك مذموم وقبيح، أمر الله ﷺ نبيه ﷺ بالاستعاذة من شر الحاسد، كما أمره بالاستعاذة من شر الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [القلوب: 5]، وقد قال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباضعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»⁽¹⁾.

وقال أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة» قال: فطلع علينا رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه، قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم، فلما كان الغد قال ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تأويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب عن فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم إلا لصلاة الفجر، قال: غير أنني ما سمعته يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث، وكدت أن أحقر عمله فقلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والذي غضب ولا هَجْر، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً، فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعائي فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله فقلت له: هي التي بلغت بك، وهي التي لا نطق⁽²⁾.

والحسد له أسباب كثيرة منها: العداوة والبغضاء والعجب وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها وغيرها من أمراض القلب الأخرى، فالحسد جامع الآفات والأمراض، وهو من أشدها مذهباً للدين والإيمان والحب والإخاء، وهو مفسدة وأي مفسدة، ويكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال والإخوة وبني العم، وأصحاب المهن والأعمال، وبين العلماء والتجار، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها فيثور التناحر والتباغض، فأصل الحسد التزاحم على غرض واحد، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، والدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين⁽³⁾.

(1) البخاري رقم: 6065.

(2) مستد أحمد (3/166) إسناده صحيح.

(3) منهج الإسلام في تزكية النفس، ص 340.

* - علاج مرض الحسد:

هناك عدة أدوية تقي وتعالج من مرض الحسد منها:

- العلم بأن مرض الحسد ضرر على الحاسد في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، وأن النعمة لا تزول عن المحسود بحسد الحاسد، فماذا يستفيد الحاسد من حسده إلا البغض والألم والحسرة والانفعال وذهاب الدين والدنيا؟ فكيف يريد الحاسد زوال نعمة أنعمها الله ﷻ على المحسود، فالله أحب أن ينعم على عبده، والحاسد يحب زوالها، فقد أحب ما كرهه الله وكره ما أحب الله، وهذا داء مزيل للإيمان، لأن صاحبه لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير.

- التذكر الدائم لمساوئ هذا المرض في الدين والدنيا، وبغض الله ﷻ له وكرهية النبي ﷺ له، والنتيجة التي ينالها الحاسد في الدنيا والآخرة، كل ذلك يساعد على فهم حقيقة الحسد، والوقاية منه والبعد عنه وطلب العلاج.

- العبرة من الآيات والأحاديث والقصص وواقع الحاسدين، ونتائج حسدهم، كل ذلك يساعد على الوقاية والعلاج من هذا المرض الخطير.

- محاسبة النفس ومعاتبتها عند كل فكرة حسد تعرض عليه، ومحاولته كف نفسه عن المحسود، بل الشاء عليه، والدعاء له بالحفظ والزيادة، ولا مانع من أن يتمنى لنفسه مثل ذلك دون حسد الآخرين.

- الرضا بعطاء الله ومنحه، والقناعة بذلك، والإيمان بأن الرزق والعطاء والفضل من الله يؤتبه من يشاء وكيفما يشاء، ولا أحد يستطيع أن يزيل نعمة أنعمها الله على عبد من عباده، وأنه لا ينال عطاء الله إلا بفضل الله وإرادته، ولا يملك العبد إلا الرضا والدعاء والاتجاه، فلم لا يقف العبد على الباب الذي يجلب الخير؟ ولم يتعد عن المرض الذي يجلب الشر⁽¹⁾؟ فالحسن بن علي رضي الله عنه يحذرننا من الحسد ولذلك قال: والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل⁽²⁾، عندما حسد أخاه على تقبل الله منه ولم يتقبل منه هو.

2 - مقام الرضا بين الحسن وأبي ذر:

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد: قيل للحسن بن علي: إن أبا ذر يقول: الفقير أحب إلي من الغني، والسقم أحب إلي من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من أتكل

(1) منهج الإسلام في تركية النفس، ص 341.

(2) علموا أولادكم محبة آل بيت النبي ﷺ، ص 31.

على حسن اختيار الله له لم يتمم أن يكون في غير الحالة التي اختار الله له، وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء⁽¹⁾.

إن الحسن بن علي عليه السلام في حديثه هذا يصف لنا شيئاً من أعمال القلوب، وهذا دليل على معرفته بهذا العمل العزيز، فالرضا من أعمال القلوب، نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان⁽²⁾.

فالرضا ثمرة من ثمار المحبة - الله تعالى - وهو أعلى مقامات المقرّبين، وحقيقته غامضة على الأكثرين. وهو باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وأن لا يستبدل بغيره منه، ورضا الله على العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، بعد قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ مَّكِينٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْبُوعُ﴾ (التوبة: 72). وهذا الرضا جزاء من رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال، والسخط باب الهمم والغمّ وشتات القلب، وكسّف البال، وسوء الحال، والظنّ بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلصه من ذلك كلّهُ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، فالرضا يوجب له الطمأنينة ويرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يُوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره، والسخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وما لا يلائمه، وكلّما جرى عليها منه ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يُزيل التلون عن العبد شيءٌ مثل الرضا.

والرضا يفرغ القلب لله، والسخط يُفرغ القلب من الله، فإن من ملأ قلبه من الرضا، ملأ الله صدره غنىً وأمناً وقناعة وفرغ قلبه لمحبة والإناابة إليه والتوكل عليه، ومن فاته حظّه من الرضا امتلأ قلبه بضدّ ذلك واشتغل عمّا فيه سعادته وفلاحه، وبداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة، فأوله مقام ونهايته حال، وقد مدح الله أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه، فدلّ ذلك على أنّه مقدور لهم. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»⁽³⁾، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

(1) البداية والنهاية (11/199).

(2) مدارج السالكين (2/214).

(3) مسلم رقم: 43 (1/62).

له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً. غفر الله له ما تقدم من ذنوبه⁽¹⁾.

قال ابن القيم: وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمننا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة، فهو الصديق حقاً، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً، فهو على لسانه لا على حاله.

- فالرضا بالهية: يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه، ورجائه والإنابة إليه، والتبئل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحبّ كلها إليه، فعل الراضي بمحبوبه كلّ الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

- والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراذه بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً لكل ما يفعل به، فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني: يتضمن رضاه بما يُقدَّر عليه.

- وأما الرضا بنبية رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه، وأن يكون متميزاً بمكانته عن غيره من البشر فلا يشاركه أحد مكانته ولا خصوصيته، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، ولا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمة غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يعينه إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب، الذي إنما يُتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم أو أمر، أو نهى: رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها أو قول مُقلِّده وشيخه وطائفته⁽²⁾.

وقال: . . . فإن الرضا آخر التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بدّ، ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها - لم يُوجبه الله على

(1) مسلم رقم: 386 (1/290).

(2) مدارج السالكين (2/172 - 173)، صلاح الأمة في علو الهمة (4/491، 492).

خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم، لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضا عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محضوف بنوعين من رضا عن عبده: رضا قلبه، أوجب له أن يرضى عنه، ورضاً بعده وهو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبتين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

كيف نحقق الرضا؟

إن من أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بد. قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم، أذاه إلى الرضا، وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف، فإن الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة، بخلاف الخوف والرجاء، فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً لکنه ليس رجاء مشوباً بشك، بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من حبيب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون. وقال ابن عطاء: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل، فيرضى به⁽¹⁾.

وقال بعض العارفين: من يتوكل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره، والرضا يفتح باب حُسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حُسن الخلق من الرضا، وسوء الخلق من السخط، وحُسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنة كما تأكل النار الحطب، والرضا يُنمّر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور وطيب النفس وسكونها في كل حال. . . ولهذا سُمي بعض العارفين الرضا: حُسن الخلق مع الله، فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حُسن خلقه⁽²⁾.

قال الشاعر:

(1) مدارج السالكين (2/ 174 - 175).

(2) صلاح الأمة (4/ 512) نقلاً عن مدارج السالكين.

العبيد ذو ضجر والرب ذو قدر
والخير أجمع في ما اختار خالقنا
والدهر ذو دول والرزق مقسوم
وفي اختيار سواه اللؤم والشؤم
وقال الشاعر:

إذا ارتحل الكرام إليك يوماً
فإن رحالنا حطت لترضى
بحلمك عن حلول وارتحال
أنحنا في فنائك يا إلهي
ليلتمسوك حالاً بعد حال
فُسُسُنَا كيف شئت ولا تكلنا
إليك مُعْرَضِينَ بلا اعتلال
إلى تدبيرنا يا ذا المعالي (1).

فهذه بعض المعاني في مقام الرضا توضح قول أمير المؤمنين الحسن بن علي عليه السلام عندما قال: من اتكل على حسن اختيار الله له، لم يتمن أن يكون في غير الحالة التي اختار الله له، وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء (2).

3 - قال أمير المؤمنين الحسن بن علي عليه السلام: إني أخبركم عن أخ لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان عظيم ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخف له عقله ولا رأيه، وكان خارجاً من سلطان جهله، فلا يمد يداً إلا على ثقة المتفعة، كان لا يسخط ولا يتبرم، كان إذا جامع العلماء يكون على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على الصمت، كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بد القائلين، كان لا يشارك في دعوى، ولا يدخل في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً، يقول ما يفعل، ويفعل ما لا يقول تفضلاً وتكرماً، كان لا يغفل عن إخوانه، ولا يستخص بشيء دونهم، كان لا يلوم أحداً فيما يقع العذر بمثله، كان إذا ابتدأ أمران لا يرى أيهما أقرب إلى الحق، نظر فيما هو أقرب إلى هواه فخالفه (3).

ففي هذا الأثر ترشيد وتوضيح وتعليم للناس نحو صفات كريمة وأخلاق حميدة، وهذا منهج سلوكي رفيع ينبغي أن نربي عليه أنفسنا وأبناءنا حتى يتحول إلى واقع ملموس في الحياة، ونستفيد من ذلك الأثر دروساً وعبراً منها:

أ - قول الحسن عليه السلام: وكان عظيم ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه (4): ولا تصغر الدنيا إلا في عين من عرف حقائق الأمور واستقر التصور الصحيح عن الله والحياة والكون والجنة والنار، والقضاء والقدر، واستوعب بعمق فقه القدم على الله تعالى، فعمل للباقي

(1) صلاح الأمة في علو الهمة (4/529).

(2) البداية والنهاية (11/199).

(3) المصدر السابق نفسه (11/199).

(4) المصدر السابق نفسه (11/199).

وترفع عن الفاني، وأيقن أن الدنيا دار اختبار وابتلاء وعليه فإنها مزرعة للأخرة، ولذلك تحرر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد وأسلم نفسه لربه ظاهراً وباطناً، وكان وصل إلى حقائق استقرت في قلبه ساعدته على الزهد في هذه الدنيا، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»⁽¹⁾.

* إن هذه الدنيا لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله تبارك وتعالى، إذ يقول النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»⁽²⁾، وقال ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلماً»⁽³⁾.

* إن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» بالسبابة والوسطى⁽⁴⁾، وتبدأ قيامة الإنسان بموته والعمر قصير، فإذا استئينا منه فترة الطفولة والنوم والكدر فكم يصفو لنا منه؟

* إن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَنْقُورِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤٣﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَنْهَاهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 39، 40] فإذا استقرت هذه الحقائق في قلب الأخ المسلم تصغر الدنيا في عينه.

ب - قول الحسن رضي الله عنه: كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكتر إذا وجد⁽⁵⁾، ففي هذا التوجيه دعوة إلى ترك فضول الطعام، لأنه داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقى شر بطنه فقد وقى شراً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام⁽⁶⁾، ولذلك حذرنا ربنا سبحانه من اتباع وساوسه ومكائده التي تؤدي إلى طغيان شهوة البطن وعدم الاكتفاء بالحلال، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُؤًا وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

(1) الترمذي، كتاب: الزهد رقم: 2333 وهو حديث صحيح.

(2) الترمذي، كتاب: الزهد رقم: 2320.

(3) الترمذي، كتاب: الزهد رقم: 2322 وقال: حسن غريب.

(4) مسلم، كتاب: الفتن وأشرط الساعة رقم: 132 - 135.

(5) البداية والنهاية (11/199).

(6) جهاد النفس، علي الدهامي، ص 93.

﴿ثُمَّ يَنْفُخُ﴾ [البقرة: 188]، كما أرشد سبحانه إلى الاعتدال في الطعام والشراب لئلا يؤدي ذلك إلى تسلط شهوة البطن وانحرافها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. فالأمر الذي يدل على تسلط شهوة البطن أن يُكثر صاحبها من الطعام والشراب فوق الحاجة، ويبالغ في الشبع ويفرط فيه، وقد أشار النبي ﷺ إلى أخطار هذا الإسراف وضرره على الجسم والنفس، وذلك فيما رواه الترمذي عن مقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»⁽¹⁾.

وفي هذا الحديث النبوي بيان للمنهج السوي الذي ينبغي التمسك به في الإقلال من الطعام والشراب وعدم الإسراف في شهوة البطن، لأن هذا الإسراف يؤدي إلى الشر الكبير، وليس المقصود بالشر هنا ما يتعلق بأمراض المعدة فحسب، وإنما المقصود أيضاً الشر الذي يصيب النفس حينما تعتاد الشرّة في الطعام والشراب وشدة التعلق بهما، فيتحول الطعام من وسيلة للغذاء وتقوية البدن إلى غاية وهدف يسعى صاحبه من أجله، ويصبح ذلك السعي شغله الشاغل حتى تصبح همته مصروفة إليه، فمهما شبعت بطنه لا تشبع نفسه، لأن شهوة البطن أضحت عنده مقياس السعادة⁽²⁾، فطغيان شهوة البطن لا يعني كثرة الأكل فحسب لأن كثرة الأكل عرض ظاهري لهذا المرض، وإنما حقيقة المرض في شَرِّه النفس وما دبت بها وتحول الطعام من وسيلة إلى غاية حتى يصبح الإنسان كالبهائم التي تسيرها شهواتها، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَعْمُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: 12].

وقد روى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد»⁽³⁾.

ومعنى هذا الحديث أن من شأن المؤمنين التقليل من الأكل للاشتغال بأسباب العبادة، والكافر بخلاف ذلك كله لأنه تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام، وإن أكل قليلاً فليس ذلك لزهده في الدنيا وإنما لمراعاة الصحة ورياضة الجسم، فهو لشدة حرصه على الدنيا وتمسكه بها كأنه يأكل في سبعة أمعاء كما تقول: فلان يأكل الدنيا أكلاً، وأما المؤمن فإنه يأكل في معي واحد، فالرسول ﷺ يضرب المثل في هذا الحديث للمؤمن وزهده في الدنيا وللكافر وحرصه عليها⁽⁴⁾.

(1) الترمذي، كتاب: الزهد، رقم: 380، حديث حسن صحيح.

(2) أمراض النفس، د. أنس كرزون، ص 109.

(3) مسلم رقم: 2060.

(4) فتح الباري شرح البخاري (9/ 538 - 539).

وقد ذكر النووي رحمته توجيهاً آخر لهذا الحديث فقال: قيل: المراد بالسبعة: سبع صفات: الحرص والشرة، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، والسمن⁽¹⁾.

وقد قال: ابن القيم رحمته: والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما: ما يفسد لعينه وذاته كالمحرمات، والثاني: ما يفسده بقدر وتعدي حده كالإسراف في الحلال والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولته حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه والشبع يطرقتها ويوسعها، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فحسر كثيراً⁽²⁾.

ج - قول الحسن رحمته: وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخف له عقله ولا رأيه⁽³⁾، فالحسن رحمته يدعو إلى التحكم في شهوة الفرج ولا يكون إشباعاً إلا بما شرع المولى رحمته، لأن طغيانها يترتب عليه نتائج خطيرة، كقسوة القلب وضعف الإيمان، فكما تمادت شهوة الفرج في الطغيان ازداد القلب قسوة وظلمة ووحشة، ابتداء من النظر إلى ما حرم الله، ثم الاختلاط بين الجنين وما يتبعه من ترجل النساء وتخث الرجال، وما ينتج عنه من تهوين أمر الفاحشة والتمهيد لها، حتى يقع فيها، وعندها يتمكن المرض من القلب، وتبتعد عنه حقيقة الإيمان، ومصداق ذلك قول رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»⁽⁴⁾. قال البخاري رحمته عند روايته لهذا الحديث: أي لا يكون هذا مؤمناً تاماً ولا يكون له نور الإيمان.

وعن أبي هريرة رحمته قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان فوق رأسه كالظلمة، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان»⁽⁵⁾. فأصحاب الكبائر ينزع منهم نور الإيمان ويضعف تعظيم الرب سبحانه من قلوبهم، إذ لو استشعروا من أتى الكبائر مثل الزنى أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك، فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة⁽⁶⁾.

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (23/14).

(2) مدارج السالكين (1/458 - 459).

(3) البداية والنهاية (11/199).

(4) البخاري، كتاب: الحدود (8/13) مسلم رقم: 57.

(5) صححه الحاكم في المستدرک (1/22) ووافقه الذمى.

(6) كتاب الإيمان، لابن تيمية، ص 29.

ومن نتائج طغيان شهوة الفرج: كثرة الوقوع في المعاصي، فالمعصية ولو كانت صغيرة تمهد الطريق لأختها حتى تتابع المعاصي ويهون أمرها ولا يدرك صاحبها خطرها، فالنظرة تؤدي إلى الفكرة، ثم يتولد الخاطر في القلب وتتحرك الشهوة، وقد يؤدي ذلك إلى العزم على اقتراف الفاحشة، فإن تيسرت أسبابها وقع فيها، ولهذا كانت النظرة مقدمة من مقدمات الزنى، وباباً من الأبواب الموصلة إليه.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزُّنَى، مَدْرَكُ ذَلِكَ لَا مُحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظْرُ، وَالْأَذْنَانِ زَنَاهُمَا السَّمْعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجْلُ زَنَاهَا الْخَطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَشْتَمِي، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يَكْذِبُهُ»⁽¹⁾، وهكذا تتدرج المعاصي في تسربها إلى قلب العبد وتأثيرها عليه حتى لا يبالي بها ولا يقدر على مفارقتها ويطلب ما هو أكثر منها⁽²⁾.

وفي ذلك يقول ابن القيم - رحمته الله -: إن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.. حتى تصير هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق لبواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها إلا لما يجده من الألم بمفارقتها⁽³⁾.

ومن نتائج طغيان شهوة الفرج: ذهاب الحياء، فإذا اعتاد العبد على مفارقة الآثام نتيجة لطغيان شهوته، سيصل إلى حال لا يبالي فيه باطلاع الناس على أفعاله القبيحة، بل إن كثيراً من هؤلاء يخبرون الناس بما يفعلونه ويتباهون به لأنهم انسلخوا من الحياء⁽⁴⁾.

وهكذا نجد أن التهاون في وقاية شهوة الفرج من الانحراف ولو كان يسيراً، سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى ما هو أخطر، وحتى لا يقع المرء فريسة طغيان الشهوة التي يصعب التخلص من شرورها، وتؤدي في النهاية إلى طمس قلب صاحبها وانسلاخه من الأخلاق الفاضلة بالإضافة إلى ما يصيبه من الأمراض النفسية والجسدية⁽⁵⁾، فقد شرع الإسلام تدابير وقائية من طغيان شهوة الفرج منها:

* غرض البصر وستر العورة:

لأن الطريق الذي تنفذ منه سهام الشهوة إلى القلب هو البصر، ولذلك أمر الله عباده بفض

(2) أمراض النفس، ص 121.

(4) أمراض النفس، ص 122.

(1) مسلم رقم: 2657.

(3) الجواب الكافي، ص 59 - 60.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 123.

البصر عما حرم عليهم وستر عوراتهم عن لا يحل لهم، قال تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ مِمَّا كَسَبَتْ مِنْ أَمْوَالِهِنَّ وَبِحَفْلَتِهَا فَرُوحَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: 30] وقال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»⁽¹⁾.

يقول ابن القيم - رحمه الله: قد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق شهوته⁽²⁾. ويقول أيضاً: النظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقطه جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس، فإن لم تُحرقه كلُّه أحرقت بعضه، وقد قيل:

كل الحوادث مبدأها من النظر	ومعظم النار من مُستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها	فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يُقَلِّبها	في أعين الغيد موقوف على الخطر
يَسُرُّ مقلته ما ضَرَّ مهجته	لا مرحباً بسرور عاد بالضرر ⁽³⁾

* - تحريم الاختلاط والأمر بحجاب النساء:

وقد ورد في بيان ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية عديدة ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَائِكَ أَلْمُؤْمِنَاتِ يَدِينَنَّ عَلَيْنَّ مِنْ كَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتَهُنَّ مَتَعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَهْلَهُمْ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53] وروى البخاري ومسلم عن عقبه بن عامر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والدخول على النساء». فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمى؟ قال: «الحمى الموت»⁽⁴⁾. والحمى: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن الأخ والعم وابنة ونحوهم ممن ليس بمحرم، وقوله ﷺ: «الحمى الموت» معناه أن الخوف منه أكثر من غيره لتمكته من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي⁽⁵⁾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»⁽⁶⁾ كما ورد التشديد والوعيد في أحاديث عديدة من تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال في اللبس والحركة، لما في ذلك من إثارة الشهوات

(2) روضة المحيين، ص 109.

(4) مسلم رقم: 2172.

(1) مسلم رقم: 338.

(3) المرجع نفسه، ص 114.

(5) شرح النووي على، صحيح مسلم (14/153).

(6) مسلم رقم: 1341.

وانحرفها، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال⁽¹⁾.

* - الترغيب في الصيام لتسكين الشهوة:

إذا لم يتيسر الزواج ولم يجد المرء المقدرة عليه لسبب من الأسباب فعليه أن يقي نفسه من تسلط الشهوة وذلك بالمبادرة إلى الصيام لما فيه من تسكين الشهوة وتخفيف وطأتها، وقد ورد في الإرشاد إلى ذلك الحديث الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»⁽²⁾، أي: أن الصوم يقطع الشهوة، ويلحق بذلك التقليل من الأغذية المحركة للشهوة لكي يكسر من حدتها ويضعف تأثيرها، فإذا لم يحرص المرء على هذه التدابير الوقائية ولم يلتزم بها، فإن سهام الشهوة وسمومها لا بد أن تنفذ إلى القلب ما دام على أهبة الاستعداد لقبول هذا الانحراف، وعندها سيتمادى في مرضه وتتمادى الشهوة في طغيانها يوماً بعد يوم، حتى يقع صاحبه في حماة الرذيلة⁽³⁾، فقول الحسن ابن علي رضي الله عنه: كان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخفُّ له عقله ولا رأيه⁽⁴⁾، دعوة صريحة إلى كبح طغيان شهوة الفرج.

د - قول الحسن بن علي رضي الله عنه: كان إذا جامع العلماء يكون على أن يسمع أحرص منه أن يتكلم⁽⁵⁾. وفي هذا احترام للعلماء وتقديرهم والاستفادة منهم، فتوقيرهم واحترامهم من السنة، يقول رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، ويعرف لعالمنا حقه»⁽⁶⁾.

لقد كان سلف هذه الأمة يحترمون علماءهم احتراماً كبيراً ويتأدبون معهم، ولقد أكثر أهل العلم من الكلام عن أسلوب التعامل مع العالم في مجلته، وأسلوب الحديث معه مما هو مذكور بتوسع في كتب آداب العالم والمتعلم، ومن أجمع ما روي في ذلك ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن من حق العالم ألا تكثر عليه السؤال، ولا تعته في الجواب، وأن لا تُلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفسين له سراً، ولا تغتابن عنده أحدًا، وإن زلَّ قبلت معذرتة، وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت

(1) البخاري، كتاب: اللباس (7/ 55).

(2) مسلم رقم: 400.

(3) أمراض النفس، ص 126.

(4) البداية والنهاية (11/ 199).

(5) انصهر السابق نفسه (11/ 199).

(6) سنن الترمذي رقم: 1986، صححه ابن حبان رقم: 1913.

له حاجة سبقت القوم إلى خدمته⁽¹⁾. وقال: من حق العالم عليك إن آتيت: أن تسلم عليه خاصة، وعلى القوم عامة، ولا تجلس قدامه، ولا تشر يديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: قال فلان خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء⁽²⁾.

وقال عبد الرحمن بن مهدي رحمته: كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمة سأله وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم علمه وتواضع له، وإذا لقي من هو قرينه في العلم ذاكره ودارسه⁽³⁾.

ولقد ضرب السلف الصالح أبلغ المثل في الحرص على الطلب، والسعي في الأخذ عن أهل العلم والامتثال إليهم واحترامهم وتقديرهم، تشهد لذلك قصصهم التي ساقها الخطيب البغدادي وغيره في هذا المجال.

هـ - قول الحسن بن علي رحمته: كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذي القائلين، كان لا يشارك في دعوى، ولا يدخل في مراء⁽⁴⁾. فالحسن بن علي رحمته يدعو إلى التقليل من الكلام، ومناذرة المراء، وفي الحديث: «إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: أتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»⁽⁵⁾، وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في كلامه، لأن اللسان أيسر حركات الجوارح وهي أضربها على العبد، وكان الصديق رحمته يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد⁽⁶⁾، والكلام أسيرك، فإذا أخرج من فيك صرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [اق: 18].

وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها، فالسكوت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء، مداهن؛ إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته؛ فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم

(1) جامع بيان العلم وفضله (1/129). (2) المصدر السابق نفسه (1/146).

(3) المحدث الفاضل للرامهرمزي، ص 206، قواعد في التعامل مع العلماء، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص 86.

(4) البداية والنهاية (1/199).

(5) الترمذي رقم: 2407، حته الألباني في الصحيح الجامع (1/5136).

(6) جهاد النفس، ص 76.

نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً عن أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحستات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به (1).

فليس الكلام مأموراً به على الإطلاق، ولا السكوت كذلك، بل لا بد من الكلام بالخير والسكوت عن الشر، وكان السلف كثيراً يمدحون الصمت عن الشر، وعمّا لا يعني لشده على النفس، ولذلك يقع فيه الناس كثيراً، فكانوا يعالجون أنفسهم، ويجاهدونها على السكوت عمّا لا يعينهم (2).

قال الفضيل بن عياض رحمته الله: ما حجج ولا رباط، ولا جهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يهملك لسانك، أصبحت في غم شديد. وقال: سجن اللسان سجن المؤمن، ولو أصبحت يهملك لسانك، أصبحت في غم شديد (3).

و- قول الحسن بن علي رحمته الله: كان إذا ابتدأ أمران لا يرى أيهما أقرب إلى الحق، نظر فيما هو أقرب إلى هواه فخالفه (4).

فالحسن رحمته الله يحث على مخالفة الهوى، والهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع (5)، ويعتبر الهوى من الأسباب التي لأجلها خالفت كثير من الأمم أنبياءها فاستكبروا ولم يقبلوا الحق والهدى والنور الذي جاءتهم به أنبياءهم عليهم السلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْتَسَلْنَا لِمِثْمِهِمْ رَسُولًا مَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيضًا كَذَّبُوا وَفَرِيضًا يَقُولُونَ ﴿[المائدة: 70] كما أن الله تعالى أمر نبيه داود عليه السلام بمخالفة الهوى، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُ الَّذِي ذَلَّلْنَا لَكَ الْأَرْضَ إِذَ الْكَيْفَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَوَّوْا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿[ص: 26].

ويقول ابن تيمية - رحمته الله -: ونفس الهوى - هو الحب والبغض الذي في النفس - لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه (6)، وقال في موضع آخر: ومجرد الحب والبغض هوى، لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله (7).

(1) الداء والدواء، لابن القيم، ص 379.

(2) جامع العلوم والحكم.

(3) البداية والنهاية (11/199).

(4) الفتاوى (28/131).

(5) التعريفات للهرجاني، ص 257.

(6) المصدر السابق نفسه (28/133).

(7) جهاد النفس، ص 77.

إن العلاج الناجع والبلسم الشافي لمن ابتلي بشيء من الهوى: إلزام النفس بالكتاب والسنة، واتباع منهج السلف الصالح وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائماً فيما يصدر منها، وعدم الاغترار بأهوائها وتزيناتها وخداعها، والإكثار من استشارة أهل العلم والإيمان واستجلاء آرائهم حول ما يريد أن يقوله ويفعله، وكذلك ترويض النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة وإن كانت مخالفة لما في النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التي قد يكون فيها إفراط وتفریط وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن، ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق في الغضب والرضا، ويكثر الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لأمته: «وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب»⁽¹⁾. وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»⁽²⁾.

4 - قال الحسن رضي الله عنه: يجوز أن يظن السوء بمن علم السوء منه ويدت عليه أدلته، وليس ينبغي أن يظن به السوء بمجرد الظن فإن الظن يكذب كثيراً⁽³⁾. ومفهوم هذه الحكمة الحسنة أن المؤمن الكيس الفطن يجوز له ظن السوء بمن علم من أحواله، وتصرفاته، وسلوكه ومواقفه وأقواله ما يشير إلى السوء به، فإن الإنسان يظهر بعض ما في نفسه على صفحات وجهه وقلبات لسانه، وبعض مواقفه، وهذا الظن لا يبنى عليه عقاب أو جزاء على الشخص المشكوك فيه بطبيعة الحال، ولكن المقصد من قول الحسن رضي الله عنه الاحتراز والحذر والحيطه من أمثال هؤلاء حتى لا يقع الإنسان المسلم في مصائب وويلات بسبب حسن الظن بأمثال هؤلاء، ومن عاشر الناس علم خطورة الثقة في من له سوابق من سوء الظن وقرائن تدل على ذلك، وأما مجرد ظن السوء بالمسلم بلا دلائل ولا قرائن قوية فلا ينبغي للمسلم، فقد قال تعالى: ﴿بِئْسَ آيَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِلَهُكُم مِّنَ الظُّلُمِ إِنَّهُمْ كَانُوا لَكَاذِبِينَ﴾ [الحجرات: 12]. قال بعض العلماء في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَكْثَرُ الظَّالِمِينَ﴾ هو أن تظن بأهل الخير سوءاً، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذي ظهر لنا⁽⁴⁾، وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»⁽⁵⁾.

(1) النسائي، كتاب: السهو، باب الدعاء بعد الذكر (3/ 55)، صححه الألباني.

(2) سنن الترمذي، و صححه الألباني، كما في، صحيح سنن الترمذي (3/ 183).

(3) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، للماتقي، ص 173.

(4) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص 243.

(5) البخاري رقم: 5143، مسلم رقم: 2563.

وعند ابن حجر سوء الظن بالمسلم من الكبائر الباطنة حيث قال: وذلك أن من حكم بشرٌ على غيره بمجرد الظن حملة الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه، وإطالة اللسان في عرضه، وكل هذا مهلكات، وكل من رأته يسيء الظن بالناس، طالباً لإظهاره معائبهم - فاعلم أن ذلك لخُبث باطنه وسوء طويته، فإن المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخُبث باطنه⁽¹⁾.

فهذه إطلالة موجزة على قول الحسن بن علي رضي الله عنه: يجوز أن يظن السوء بمن علم السوء منه وبدت عليه أدلته، وليس ينبغي أن يظن به السوء بمجرد الظن، فإن الظن يكذب⁽²⁾ كثيراً.

5 - قول الحسن بن علي رضي الله عنه: والله ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم⁽³⁾، فالحسن رضي الله عنه يحث الناس ويوصيهم بضرورة التشاور فيما بينهم في جميع أمورهم، وقد مارس الرعييل الأول الشورى وتعلمها من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وقد شاور الحسن أخيه الحسين وابن عمه عبد الله بن جعفر وغيرهم من قادة دولته في الصلح مع معاوية رضي الله عنه كما سيأتي بيانه، وتعتبر الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين - من الحكام - فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه⁽⁴⁾.

وقال الجصاص الحنفي رحمته الله في تفسيره المعروف بأحكام القرآن معقياً على قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: 38]: وهذا يدل على جلالة موقع الشورى لذكرها مع الإيمان، وإقامة الصلاة، وبدل على أننا مأمورون بها⁽⁵⁾، قال الطاهر بن عاشور: مجموع كلام الجصاص يدل على أن مذهب أبي حنيفة وجوبها⁽⁶⁾.

وقال النووي رحمته الله: واختلف أصحابنا هل كانت الشورى واجبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كانت سنة في حقه كما في حنفا، والصحيح عندهم وجوبها، وهو المختار، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، والمختار الذي عليه جمهور الفقهاء ومحققو الأصول أن الأمر للوجوب⁽⁷⁾.

(1) الزواجر، ص 114.

(2) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص 173.

(3) تهذيب الرياسة، وترتيب السياسة للعلمي، ص 183.

(4) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/379).

(5) أحكام القرآن للجصاص (3/386).

(6) التحرير والتنوير (4/149).

(7) شرح النووي على مسلم (4/76).

وقال ابن تيمية رحمته الله: لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه صلى الله عليه وآله فقال تعالى: ﴿قَاعَفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

إن الشورى من قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، وقد شرع نظام الشورى لحكم بالغة ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة، ومن ذلك:

- الشورى نوع من الحوار المفتوح، ومن أحسن الأساليب لتوعية الرأي العام وتنويره، وتعزيز عوامل الحب والثقة بين الحاكم والمحكومين، والقائد والمقودين، والرئيس والمرؤوسين، وهو خير أسلوب في الحكم لعزل الشكوك، ونفي الهواجس، وإزالة الأوهام، ووقف الإشاعات التي تنمو عادة في ظل الاستبداد، وتنتشر في عتمة الغوغائية.

- تقضي مبادئ الإسلام بأن يشعر كل فرد أن له دوراً في حياة المجتمع والجماعة، والشورى تتيح الفرصة أمام كل فرد لكي يقدم ما يستطيع من جهود وأفكار وآراء ومهارات لخير المجتمع، كما تتيح الفرصة أمام كل فرد ليعبر عن رأيه في الشؤون العامة.

- إن الشورى تمنح الدفء العاطفي، والتماسك الفكري لأفراد الأمة، وفيها إشعار الفرد بقيمته الذاتية، وقيمه الفكرية، وقيمه الإنسانية، وتدفع أفراد المجتمع نحو الاجتهاد والإبداع والرضى وتتفجر الطاقات وتتكشف المواهب المغمورة في الأمة.

- إن الشورى تساهم في علاج ضروب الكبت الضاغطة، وكوامن الأحقاد الدفينة، وتطبخ بكثير من الكظوم الخفية، تدفع رعايا الدولة للعطاء والحرص على ترسيخ النظام، وصدق الولاء.

- وفي نظام الشورى تذكير للأمة بأنها هي صاحبة السلطان، وتذكير لرئيس الدولة بأنه وكيل عنها في مباشرة الحكم والسلطان.

- وفي المشاورة امتثال لأمر الله بها، واقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وهذه المزية أرجح المزايا المتقدمة، وهذا أهم العوامل في نجاح نظام الشورى⁽¹⁾. قال الحسن بن علي رضي الله عنه يحث الناس على الاهتمام بالشورى وممارستها وتطبيقها ولذلك قال: والله ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم⁽²⁾.

6 - قال الحسن بن علي رضي الله عنه في بعض مواضعه للمسلمين: يا ابن آدم عَفَّ عن محارم

(1) الشورى بين الأصالة والمعاصرة لعز الدين التيمي، ص 33، 34.

(2) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، ص 183.

الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك بمثله تكن عادلاً. إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً وينتون مشيداً ويأملون بعيداً، أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً. يا ابن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فجد بما في يدك لما بين يديك، فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع⁽¹⁾، وتلا هذه الآية: ﴿وَسَكَرُوا وَأَكَلُوا فَكَبَرُوا فَآزَدُوا الذُّنُوبَ﴾ [البقرة: 197].

أ - وهذا شرح موجز لهذه الخطبة الحسنية: يا ابن آدم عفا عن محارم الله تكن عابداً⁽²⁾، فهذا توجيه من الحسن بن علي يبحث فيه الناس على الابتعاد عن المحرمات، ويعتبر الحسن ابن علي من ترك المحرمات فهو العابد، فالوقوع في المحرمات توقع الإنسان في الغفلة وتعرضه لسخط الله وعقابه وغضبه، كما أن الوقوع في المحرمات والغفلة عن طاعة الله سببان لمفاسد كثيرة وأضرار بليغة في الدنيا والآخرة، يقول ابن القيم: قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب، ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم وضنك المعيشة، وكسف البال، كل هذه الأشياء تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع من الماء، والإحراق من النار، وأضداد هذه تتولد من الطاعة⁽³⁾، فالبعد عن المحرمات طريق للطاعات، فيصبح المسلم عابداً، ولذلك قال الحسن: عفا عن محارم الله تكن عابداً⁽⁴⁾.

ب - وارض بما قسم الله لك تكن غنياً⁽⁵⁾: يتحدث الحسن عليه السلام عن الرضى بما كتبه الله على العبد، وأن الرضى يؤدي إلى الغنى بالله سبحانه وتعالى، والرضا عن الله سبحانه وتعالى معناه: أن لا يكره العبد ما يجري به قضاء الله تعالى⁽⁶⁾. وأعلاه: سرور القلب، وسكينة النفس إلى قضاء الله وقدره خيره وشره، والإيمان بالقضاء والقدر أحد الأركان الستة، حلوه ومره، وهذا القسم من الرضا من أجل الأخلاق الإيمانية لأنه: آخذ بزمَام مقامات الدين

(1) نور الأبصار، الشبلنجي، ص 121، الحسن بن علي، ص 28.

(2) نور الأبصار، الشبلنجي، ص 121.

(3) القوائد، ص 32.

(4) الحسن بن علي، ص 28، نور الأبصار، ص 121.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 28.

(6) المفردات للراغب، ص 197.

كلها، إذ هو روحها وحياتها، فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة ودليل صحة محبة المحب، وروح الشكر ودليله⁽¹⁾، وهو أيضاً يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حسن الخلق من الرضا، وسوء الخلق من السخط، بل إن بعض العلماء عرف الرضا بحسن الخلق مع الله، قال: لأنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام الذي يقدح في حسن خلقه.. فلا يسمي شيئاً قط قضاءه الله تعالى وقدره باسم مذموم، إذا لم يذمه الله تعالى، لأنه يتنافى الرضا⁽²⁾.

ولذلك كان هذا النوع من الرضا محل عناية القرآن الكريم في التحدث عنه بآيات كثيرة يقول فيها ﷺ: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» [التوبة: 100] مما يدل على أنه من أعلى مقامات الإيمان لما يعنيه من كمال الخلق مع الخالق جلّ وعلا، لكل ما يقضيه الله ﷻ في خلقه وكونه وتشريع، فيقبله العبد بكل سرور واطمئنان واتسراح نفس، فلا يجد في نفسه حرجاً مما قضاءه الله تعالى له من خير أو شر - بل يرضى بمر القضاء الذي قدره له - ولا على ما قضاءه في الكون من تدبير وخلق وفناء بداية، لما يعلمه من حكمته سبحانه في تدبيره الملكوت كله، ولا على ما شرعه لعباده من تشريع على السنة رسله، وفي محكم كتابه، لأنه كله هو الحق والهدى - فصاحب هذا الخلق يتلقى كل ذلك بالمحبة والسرور على مراد الله الذي قضاءه في كل ذلك، لعلمه أن الله ﷻ حكيم في فعله وتدبيره وقضائه، ودود مع عباده لا يفعل لهم إلا محض الخير مهما بدا لأنفسهم خلافه⁽³⁾.

وقد كان جذّ الحسن ﷺ القدوة المثلى والأسوة الحسنى، فقد بين لنا ﷺ كيف كان رضاه عن الله تعالى فيما يتلبه به في الحياة من متاعب في النفس أو المال أو البين أو الأقارب، فكان ﷺ على ذلك النحو من الرضا كمالاً وتاماً، سواء فيما ناله من الأذى في نفسه من جراء دعوته إلى الله تعالى في مكة أو في الطائف أو في المدينة، ولقد بلغت به الأذى أن جرت عليه عدة محاولات اغتيال فلم تفلح، فلم يزد على تقرير المحاولين ما أرادوه، ثم العفو عنهم، وأما رضاه بما كان عليه من القلة في المال، فلم تعرف البشرية رضاً مثله، حيث بلغ به في حاله ذلك، أن جعل يدعو الله تعالى ويقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»⁽⁴⁾، وأما في فقد الأولاد فلما مات خال الحسن ولد النبي ﷺ الرضيع إبراهيم ﷺ عن ثمانية عشر شهراً، وقد رزق به على الكبر وبعد موت أبنائه المذكور من قبل، لم يتزعزع رضاه عليه الصلاة والسلام لقضاء الله وقدره، بل أعلن رضاه بذلك، وقال فيما رواه عنه أنس بن مالك رضي عنه: «إن العين

(1) مدارج السالكين (2/218).

(2) المصدر السابق نفسه (2/220).

(3) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (1/96). (4) البخاري، الرقائق رقم: 1055.

تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا بما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»⁽¹⁾.
وأما أقاربه ﷺ فقد صرّحوا حوله بين يديه في الدفاع عنه وعن دعوته، فلم يتبرم لذلك، بل جاء أنه قال في حق عمه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب⁽²⁾ ﷺ الذي استشهد بأحد، ومُثِّلَ به أيما تمثيل: فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، نظر إليه، وقد مُثِّلَ به، فما زاد على أن قال: «رحمة الله عليك، إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم، فمولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله في بطون السباع»⁽³⁾.

ومع ما كان عليه ﷺ من كمال الرضا عن الله تعالى في كل أحواله، فقد كان دائب الدعاء أن يرزقه الله تعالى المزيد من الرضا والثبات الدائم عليه⁽⁴⁾، فكان من دعائه ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»⁽⁵⁾.

ولم تقتصر أقواله ﷺ في الرضا على ما كان يعبر به عن نفسه من ذلك الخلق العظيم، بل كذلك كان يتوه بهذا الخلق العظيم، ويبين ما له من عظيم الأجر والثواب عند الله، ليحضر أمته عليه، وذلك كما في قوله ﷺ: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً، غفر له ذنبه»⁽⁶⁾. ويلاحظ هنا كيف ربط النبي ﷺ هذا الدعاء بأمر يتكرر يومياً خمس مرات. ليصبح هذا الدعاء ومضمونه شيئاً راسخاً في نفس المؤمنين والمؤمنات، وقوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً»⁽⁷⁾. فقد بين في هذين الحديثين عظيم خلق الرضا عن الله تعالى حيث أبان أن هذا الخلق سبب لمغفرة الذنوب، وشهد له في الحديث الآخر أنه مما يوجد حلاوة الإيمان، وذلك لأن صاحب هذا الخلق يعلم أنه ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن تدبير الله تعالى له خير من تدبيره لنفسه، فيعيش قرير العين في هذه الحياة في السراء والضراء، يحمد الله تعالى

(1) مسلم رقم: 2315. (2) طبقات ابن سعد (8/3).

(3) تفسير ابن كثير (592/2) عزاه ابن كثير إلى البزار وقال عنه بعد إيراد له بسنده: هذا إسناده فيه ضعف، وذكره بنحوه ابن هشام في سيرته (171/3) عن ابن إسحاق مرسلًا.

(4) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (100/1).

(5) سنن النسائي، في السهو (55/3) من حديث عمار بن ياسر، إسناده حسن.

(6) مسلم رقم: 386. (7) مسلم رقم: 2758.

على الخير وغيره، لأن ذلك كله فعل الله تعالى وتصرفه في ملكه، وأي راحة للمرء أكثر من أن يعيش في هذه الحياة على هذا النحو⁽¹⁾؟

فالحسن بن علي رضي الله عنه حث على هذا الخلق بلسان الحال ولسان المقال فقد قال: وارض بما قسم الله لك تكن غنياً⁽²⁾.

ج - قوله: واحسن جوار من جاورك تكن مسلماً⁽³⁾: فالحسن رضي الله عنه يحث المسلمين على حسن الجوار، فحق الجار على جاره من أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبْيِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنبِ﴾ [النساء: 36]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»⁽⁴⁾ وذلك لشدة الوصية به وتأكيدها. ومن حقوق الجوار وآدابه في الإسلام أمور منها:

- عدم إيذائه بأي شيء من قول أو عمل: فقد قال صلى الله عليه وآله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»⁽⁵⁾. فيجب على الإنسان أن يكف آذاه عن جاره، وسواء كان بالقول، أو بالفعل، أو بالإشارة، فأذية الجار محرمة على كل حال.

- الإحسان إليه دائماً: ويكل صورة ممكنة، كما قال صلى الله عليه وآله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليكف⁽⁶⁾» ونظراً للأهمية الكبرى التي يعطيها الإسلام للجار ربط الرسول صلى الله عليه وآله بين صدق الإيمان بالله واليوم الآخر والإحسان للجار، ولو طبقنا هذا التوجيه النبوي مع جيراننا في مجتمعاتنا لتحولت هذه المجتمعات إلى مجتمعات متعاونة ومتكاتفة ولعاش أهلها حياة طيبة.

- تحمل أذى الجار والصبر عليه: وكما قيل: ليس حسن الجوار بكف الأذى عن الجار، ولكن بتحمل آذاه. فينبغي للمسلم أن يصبر على أذى جاره، وأن يتحمله، وأن يقابله بالإحسان. فإن بهذا يغلق الباب أمام نزغ الشيطان.

- مواساته بالطعام ولا سيما إذا كان فقيراً:

قال صلى الله عليه وآله: «ليس المؤمن بالذي يشيع وجاره جائع إلى جنبه»⁽⁷⁾، وقال صلى الله عليه وآله: «إذا طبخ

(1) أخلاق النبي صلى الله عليه وآله في القرآن والسنة (1/ 101).

(2) الحسن بن علي، ص 28، نور الأبصار، ص 121.

(3) الحسن بن علي، ص 28. (4) البخاري، رقم: 6015.

(5) البخاري، رقم: 6018. (6) مسلم، رقم: 48.

(7) المستدرک (4/ 167) السلسلة الصحيحة رقم: 148.

أحدكم قدراً فليكثر مرقها، ثم ليناول جاره منها»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»⁽²⁾. فينبغي لكل مسلم أن يتنبه إلى هذا الأدب الرفيع، وألا يهمله، فإن له أثراً عظيماً على الجار، وهو دليل على اتصاف المجتمع المسلم بالتراحم، والتعاطف، والتكافل بين أفرادها⁽³⁾، ويفهم من الحديث الحرص على سد احتياجات الجار ما أمكن من ملابس وأدوية وغيرها.

- مشاركته الفرح والحزن:

فإذا كان عند جاره مناسبة سارة فينبغي له أن يذهب إليه، وأن يشاركه ويقاسمه فرحه، ما لم يكن فيه معصية، وإذا أحلت به نازلة فينبغي له أن يحضره، وأن يشاركه ويقاسمه حزنه، ويواسيه بالكلمة الصالحة، ويشد من أزره. وكل هذا من حق المسلم أصلاً على أخيه المسلم، والجار أولى بهذه الحقوق من غيره.

- أن يعرض عليه البيت قبل غيره إذا أراد التحول عنه:

فإذا أراد أن ينتقل من داره فليعرضها على جاره قبل غيره، فقد يرغب في شرائها، وكذلك أي أرض أو عقار، وقد قال ﷺ: «من كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره»⁽⁴⁾. وهذا أطيّب لخاطره ولقلبه، وإذا فرط الناس في هذا الأمر فإنهم يفتحون باباً للمشاحنات والمنازعات والعداوات، فالله المستعان.

- ألا يمنع جاره من غرس خشبة في جداره: إذا احتاج الجار إلى ذلك، فينبغي أن يسمح له بغرس هذه الخشبة، ولا يمنعه من الانتفاع بها، فقد قال ﷺ: «لا يمنع جار جاره أن يغرس خشبة في جداره»⁽⁵⁾. ثم قال أبو هريرة: مالي أراكم عنها معرضين؟ والله لأرمين بها بين أكتافكم. أي: لأصرحن ولأحدثن بها بينكم مهما ساءكم ذلك وأوجعكم⁽⁶⁾. ويفهم من الحديث كل مساعدة يحتاجها الجار، ولا يترتب عليها ضرر لجاره، فالإسلام يحث على تقديمها.

- تعظيم حرمة الجار وعدم خيانتة: لا يافشاء سره، ولا بهتك عرضه، ولا بالفجور بأهله، فإنه من أقيح الكبائر، قال ﷺ: «لما سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية

(1) مجمع الفوائد (165/8)، صحيح الجامع للالباني رقم: 676.

(2) مسلم رقم: 1030.

(3) موسوعة الآداب الإسلامية (1/299).

(4) سنن ابن ماجه رقم: 2493، صحيح ابن ماجه 2022.

(5) البخاري رقم: 2463.

(6) موسوعة الآداب الإسلامية (1/301).

أن يطعم معك». قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»⁽¹⁾، بل ينبغي أن يحفظه في نفسه وماله وعرضه، حتى يأمنه جاره، فقد قال ﷺ: «والله لا يؤمن» - ثلاثاً - «الذي لا يأمن جاره بوائقه»⁽²⁾. أي غدرة وخيائته⁽³⁾. ولذلك كان الحسن بن علي رضي الله عنهما يوصي الناس في مواعظه وخطبه بحسن الجوار، والإحسان إلى الجار، فقد قال: وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً⁽⁴⁾.

د - قوله: وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك بمثله تكن عادلاً: فالحسن رضي الله عنهما يبحث المسلمين على إنصاف الناس ومصاحبتهم بالعدل وعدم ظلمهم، فالإنصاف خصلة شريفة، وخلعة كريمة، يدل على نفس مطمئنة، وأفق واسع، ونظر في العواقب بعيد، ويعرف بأنه استيفاء الحقوق لأربابها⁽⁵⁾، واستخراجها بالأيدي العادلة، والسياسة الفاضلة⁽⁶⁾، وقال ابن القيم في إنصاف الناس: أن تؤدي حقوقهم، وألا تطالبهم بما ليس لك، وألا تحملهم فوق وسعهم، أن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تعرضهم متى تحب أن يعرضوك منه، وأن تحكم لهم أو عليهم بما تحكم به لنفسك أو عليها⁽⁷⁾. الإنصاف والعدل توأمان تبيجتهما علو الهمة، وبراءة الذمة باكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل⁽⁸⁾.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالإنصاف، ونهى أن يحملنا بغضنا للكفار على عدم الإنصاف، فقال عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]. قال ابن تيمية رحمه الله: فنهى أن يحمل المؤمنین بغضهم للكفار على ألا يعدلوا، فكيف إذا كان البغض لفاسق، أو مبتدع، أو متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن، وإن كان ظالماً له⁽⁹⁾. وقال ابن كثير رحمه الله: أي لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال، وقال لبعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه⁽¹⁰⁾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2]. قال أبو عبيدة القراء: أي لا يكسبكم بغض قوم أن تعتدوا⁽¹¹⁾ الحق

- | | |
|--------------------------------------|--|
| (1) مسلم رقم: 86. | (2) البخاري رقم: 6016. |
| (3) موسوعة الآداب الإسلامية (1/301). | (4) الحسن بن علي، ص 28، نور الأبصار، ص 121. |
| (5) أرباب: أصحاب، مفرد رب. | (6) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص 228. |
| (7) زاد المعاد (2/407) بتصرف. | (8) التوفيق على مهمات التعريف للمناوي، ص 64. |
| (9) الاستقامة (1/38). | (10) تفسير ابن كثير (2/7). |
| (11) اعتدوا: تتجاوزوا. | |

إلى الباطل، والعدل إلى الظلم⁽¹⁾، فما أجمل أن يتحلى المرء بالإنصاف، فهو من صفات الربانيين الذين لا يرجون إلا الحق⁽²⁾.

قال ابن القيم رحمته:

وتعمر من ثوبين من يلبسهما يلق الردي بمذمة وهوان⁽³⁾
ثوب من الجهل المركب فوقه ثوب التعصب بثست الشويان
وتحل بالإنصاف أفخر حلة زينت بها الأعطاف والكتفان⁽⁴⁾

وقال المتبي:

ولم نزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ومن إنصاف العباد إنصافهم في الأموال والمعاملات، والحجج والمقالات، وقد عاب الله سبحانه وتعالى الذين يخسون الناس أشياءهم، وأوعدهم بالخسارة والهلاك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا لَهُمْ مِنْ النَّاسِ الَّذِي لَهُ، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذه الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن واحداً منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه - أيضاً - أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضوع يعرف إنصاف الإنسان من تعصب واعتسافه⁽⁵⁾، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه⁽⁶⁾. فما أجمل قول الحسن بن علي رحمته: وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك بمثله تكن عادلاً⁽⁷⁾.

هـ - قول الحسن رحمته: إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ويننون مشيداً، ويأملون بعيداً، أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً، يا بن آدم إنك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فجد بما في يدك لما بين يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع، وتلا هذه الآية: ﴿وَكَزَّوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ أَرْزَاقِ النَّفْسَانِ﴾ [البقرة: 197].

فالحسن رحمته يصف صنفاً من الناس متغصماً في الدنيا وزينتها، مشغولاً بالجمع والبناء ومصائباً بمرض طول الأمل، فهذا حال أغلب الناس إلا من رحم ربي، فإذا الموت يأتي بغتة،

(2) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص 229.

(4) الأعطاف: جمع عطف، وهو الجانب.

(6) تفسير ابن سعد، ص 915.

(1) تفسير القرطبي (6/45).

(3) الهوان: الخزي والعار.

(5) الاعتساف: أشد الظلم.

(7) الحسن بن علي، ص 28.

فلم ينتفعوا بما جمعوا، فأصبحت أعمالهم ضائعة، ومساكنهم خالية، فالحسن بن علي عليه السلام يحذر الناس من الاغترار بهذه الدنيا ويحثهم على الزهد فيها، وإنما ينشأ الزهد لليقين بالفاوت بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77]. والقرآن يربي المؤمن على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الكفار هم الذين يغترون بزينة الدنيا وزخرفها، فقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَ الْإِنْسَانَ أَنِ احْنَفْ وَتَبَيَّنَ الْكُفْرَ مِنْ دُونِ الْحَقِّ وَلَقَدْ يَلْقَى السُّعُودَ عَنَّا وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قَلْبُهُمْ وَفِي صُدُورِهِمْ كُتُوبٌ يُذَكَّرُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قَلْبُهُمْ وَفِي صُدُورِهِمْ كُتُوبٌ يُذَكَّرُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قَلْبُهُمْ وَفِي صُدُورِهِمْ كُتُوبٌ يُذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 212].

وقد بين القرآن الكريم في كثير من المواضع: أن الدنيا حقيرة لا يجب أن تشغل المرء عن طلب الآخرة، منها قوله تعالى: ﴿أَلْهَمَكُمْ أَتْكَافُرُ﴾ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتَسْتَلْتُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8) [التكاثر: 1-8]، أي أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها (1).

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ﴿أَلْهَمَكُمْ أَتْكَافُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، (2)؟ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» (3)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله» (4)، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يهرم ابن آدم وتبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» (5)، وقال الأحنف بن قيس لما رأى في يد رجل درهماً: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمكته فإذا أنفقته فالمال لك (6)

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلْتُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم

(1) معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين لأبي سعيد البعري، ص 9.

(2) مسلم رقم: 2958. (3) مسلم رقم: 2959.

(4) البخاري رقم: 6514. (5) مسلم رقم: 1047.

(6) معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، ص 10.

الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمة من شكره وعبادته⁽¹⁾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۗ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَسْطَرِ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا مِّنْ رِّزْقِكَ وَالْعَنِيَّةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه: 131)، [132].

قال ابن كثير رحمته: يقول تعالى لنيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم وما فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم. ولهذا قال: ﴿وَرِزْقًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»⁽²⁾ وقال قتادة والسدي: [زهرة الحياة] يعني: زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: ﴿لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لتبليهم. وقوله: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَسْطَرِ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانًا فَسَّادًا وَأَهْلِكُوا نَارًا﴾ [التحریم: 6]. وقوله: ﴿لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا مِّنْ رِّزْقِكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة آتاك الرزق من حيث لا تحسب. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3] ولهذا قال: ﴿لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا مِّنْ رِّزْقِكَ﴾.

وقال الثوري: لا نسألك رزقاً: أي لا نكلفك الطلب. وقال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة⁽³⁾. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت به من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»⁽⁴⁾. وقوله: ﴿وَالْعَنِيَّةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى. انتهى⁽⁵⁾.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح عنه، فقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا فبسطنا يديك منه، فتنام عليه،

(1) معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، ص 10.

(2) البخاري رقم: 6427.

(3) معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، ص 11.

(4) سنن ابن ماجه رقم: 4105، وصححه الألباني، صحيح الجامع 6510.

(5) ففروا إلى الله، ص 62، لأبي ذر القلموني، يتصرف.

فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فقال تحت شجرة، ثم تركها»⁽¹⁾. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم سائرين على نهج النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانوا أزهد الناس وأرغبهم في الآخرة، فنظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية وإلى الآخرة أنها باقية، فتزودوا من الدنيا زاد الراكب، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم، فعلموا أنهم سينظرون إليها بقلوبهم وأعينهم، ولما علموا أنهم سيرتحلون منها بأبدانهم تعبوا قليلاً، وتنعمو كثيراً، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم، فأحبوا ما أحب لهم، وكرهوا ما كره لهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنكم كانوا خيراً منكم، كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، فكان في التابعين من هو أكثر قياماً وصياماً وعبادة من الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الصحابة رضي الله عنهم سبقوا بأحوالهم الإيمانية من الزهد واليقين، وصدق التوكل على الله تعالى، ولا شك في أن الصحابة رضي الله عنهم تعلموا الزهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليه الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاث أهلة في شهرين، ولا يُوقد في بيته من أبياته نار⁽²⁾.

وأما قول الحسن بن علي رضي الله عنه: فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع، وتلا هذه الآية: ﴿وَكَزَّوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ أَزَادِ الْتَقْوَى﴾ [البقرة: 197]. ففيها دعوة للتقوى، والالتزام بها، والتقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، والمطلوب من العبد أن يتعلق قلبه بالله وحده محبة له وإخلاصاً له في عبادته ورغبة فيما عنده من نعيم أعدّه للمتقين، فخوراً من سخطه وعقابه وعذابه.

وللتقوى ثمار يحتاج إليها كل مسلم منها: المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3].

ومنها: تيسير العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَبِعَلِّكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

ومنها: إطلاق نور البصيرة، قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: 29].

ومنها: محبة الله تعالى، ومحبة ملائكته والقبول في الأرض، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْقَفَ بِهِمْ وَيَأْتِيَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحبت فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلاناً»

(1) سنن الترمذي رقم: 2377 وصححه الألباني، صحيح الجامع رقم: 5668.

(2) البخاري رقم: 6567، مسلم رقم: 2972.

فأجابه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»⁽¹⁾.

ومنها: نصره الله ﷺ وتأييده وتسيده: وهي المعية المقصودة بقول الله ﷻ: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194] فهذه المعية هي معية التأيد والنصرة والتسيده، وهي معية الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين، وهي تقتضي التأيد والحفظ والإعانة، كما قال تعالى لموسى ﷺ وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 48] وأما المعية العامة مثال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [العنكبوت: 4] وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُنَادُونَ مَا لَا يَرْصُقُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 108]. والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله ﷻ.

ومنها: البركات من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَقْبُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 98].

ومنها: البشرى في الحياة الدنيا، وهي الرويا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَا تُحِبُّونَ إِلَّا الْبَرَّ فَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا حَقِيقَتَهُ فَسَبَّحُوا بُحْبُوحًا عَلَيْهِمْ وَلَا لَئِمٌ عَلَيْهِمْ وَلَا بُغْيَةٌ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [آل عمران: 76] والبر في الرويا الصالحة ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي ﷺ: «الرويا الصالحة من الله»⁽²⁾. وعنه ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرويا الصالحة»⁽³⁾. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽⁴⁾. وقد رأينا من الموقنين ثناء الناس على أعمالهم في الدنيا.

ومنها: الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصَيَّرُوا وَيَسْأَلُوا لَا يُعْرَضَكُم كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]. يرشدكم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن⁽⁵⁾.

ومنها: حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلِيَحْشُرَ الَّذِينَ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً يُعَلِّمُونَ كِتَابًا وَهُمْ يُخَشَوْنَ اللَّهَ وَيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 8]. وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شؤونهم حتى

(1) مسلم، كتاب: البر والصلة رقم: 6937. (2) البخاري، كتاب: الرويا رقم: 6986.

(3) البخاري، رقم: 6990. (4) مسلم، (4/2034).

(5) تفسير القرآن العظيم (1/329).

لإجراء تغييرات إدارية، أو تغيير الولاية، فأقر عمال أبيه علي ولاياتهم، عدا الكوفة، فقد ولي عليها المغيرة بن نوفل⁽¹⁾ بعد ما سار إلى معاوية بدلاً من واليها السابق هاني بن النخعي⁽²⁾.

أما على المدائن فقد استمر سعد بن مسعود الثقفي عاملاً عليها⁽³⁾، وقد كان عاملاً للخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام على ذات المدينة⁽⁴⁾، وقد استبقاه الحسن إبان خلافته واستمر يشغل منصبه الإداري إلى نهاية عهد الحسن بن علي عليه السلام وتنازله لمعاوية.

أما على البصرة فقد جاء في بعض الروايات، بأن عبد الله بن عباس كان والياً عليها من قبل الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام، وبقي عليها لغاية عقد الصلح مع معاوية بن أبي سفيان، ثم خرج من البصرة معتزلاً السياسة قاصداً مكة المكرمة⁽⁵⁾، متفرغاً للعلم والتعليم.

أما ولاية فارس فقد كانت لزياد بن سفيان⁽⁶⁾، وكان علي عليه السلام قد بعثه إلى فارس لتأديب بعض المتمردين بها، فظفر بهم وتمكن من القضاء عليهم⁽⁷⁾، ثم ولاء عليه السلام بعد ذلك على فارس فاستمرت ولايته لغاية عقد الصلح مع معاوية⁽⁸⁾.

كما أبقى الحسن عليه السلام العمال أنفسهم الذين كانوا يعملون لوالده الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد استبقى عبيد الله بن أبي رافع كاتباً⁽⁹⁾، وكذلك استبقى شريح بن الحارث قاضي الكوفة⁽¹⁰⁾، وأبقى معقل بن قيس الرياحي على الشرطة⁽¹¹⁾، وكانت من أهم شخصيات عهد خلافة: شقيقه الحسين بن علي عليه السلام وسفرد له كتاب خاصاً به بإذن الله تعالى، ومن أهم شخصيات عهده أيضاً: قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي، وقد رأيت أن أترجم للشخصيات الثلاثة الأخيرة.

(1) التبيين في أنساب القرشيين، ص 80 - 81.

(2) تاريخ خليفة بن خياط، نقلاً عن الحسن بن علي، فيخان، ص 85.

(3) أنساب الأشراف (5/214)، نهاية الإرب (2/266)، .

(4) التاريخ الكبير للخوارزمي (4/50).

(5) الحلة السيرة للقاضي، نقلاً عن الحسن بن علي، ص 86.

(6) الحسن بن علي، ص 86.

(7) المصدر نفسه.

(8) مروج الذهب (3/15)، الحسن بن علي، ص 86.

(9) محاضرة الأيرار، لابن العربي (1/66)، الحسن بن علي، ص 87.

(10) مختصر التاريخ، لابن الكمازوني، ص 80.

(11) نهاية الإرب (5/223).

أولاً: قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه:

هو قيس بن سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج ابن ساعدة بن كعب، الأمير المجاهد، أبو عبد الله سيّد الخزرج وابن سيّدهم، أبي ثابت، الأنصاري الخزرجي الساعدي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وابن صاحبه⁽¹⁾، كان من فضلاء الصحابة وأحد دهاة العرب وكرمائهم، وكان من ذوي الرأي الصائب والمكيدة في الحرب، مع النجدة والشجاعة، وكان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم⁽²⁾.

له عدة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله منها: عن أبي ليلى قال: كان سهل بن حنيف، وقيس ابن سعد قاعدنين بالقادسية، فمرت بهما جنازة فقاما، فقيل: إنما هو من أهل الأرض فقالا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله مرت به جنازة فقام، فقيل: إنما هي جنازة يهودي، فقال: «اليت نفساً»⁽³⁾ وفي هذا الحديث تكريم الإنسان من حيث هو إنسان.

وعن أبي عمّار، عن قيس بن سعد قال: أمرنا النبي صلى الله عليه وآله أن نصوم عاشوراء قبل أن ينزل صيام رمضان، فلما نزل صيام رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا، ونحن نفعله⁽⁴⁾.

وعن محمد بن شريحيل، عن قيس بن سعد قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعنا له ماء فاغتسل، ثم أتينا به بلحفة ورسية، فالتحف بها، فكأنني أنظر إلى أثر الورس على عكته⁽⁵⁾.

روى عنه أنس، وثعلبة بن أبي مالك، وأبو ميسرة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعروة⁽⁶⁾، وعبد الله بن مالك الجيشاني، وأبو عمّار الهمداني، وميمون بن أبي شبيب، وعريب ابن حميد الهمداني، والوليد بن عبدة وآخرون⁽⁷⁾، وقد حدّث قيس بن سعد بالكوفة والشام ومصر⁽⁸⁾.

كان قيس ضخماً حسنًا طويلًا، إذا ركب الحمار خطت رجلاه الأرض⁽⁹⁾، وكانت أمه بنت عمّ أبيه واسمها فكيهة بنت عبيد بن دُلَيْم⁽¹⁰⁾، وكان موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، كصاحب الشرطة من الأمير، وحمل لواء النبي صلى الله عليه وآله في بعض الغزوات، واستعمله على الصدقة⁽¹¹⁾، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله المشاهد⁽¹²⁾، وشارك في بعض سرايا منها:

- | | |
|--|---------------------------------|
| (1) سير أعلام النبلاء (102/3). | (2) أسد الغابة (4/450). |
| (3) البخاري رقم: 1312. | (4) مسند أحمد (3/422). |
| (5) العكن: جمع عكّة، وهي العطي في البطن من السمن، تاريخ دمشق (52/271). | (7) سير أعلام النبلاء (3/102). |
| (6) الإصابة (5/361). | (9) الإصابة (5/360). |
| (8) سير أعلام النبلاء (3/102). | (11) الهداية والنهاية (11/354). |
| (10) الإصابة (5/360). | (12) الإصابة (5/360، 361). |

(1) سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى سيف البحر:

تعتبر سرية أبي عبيدة رضي الله عنه إلى سيف البحر، استمراراً لسياسة النبي صلى الله عليه وآله العسكرية والإضعاف قريش ومحاصرتها اقتصادياً على المدى الطويل، فقد بعث صلى الله عليه وآله أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة راكب قبل الساحل ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان قدر مزود تمر يقوتهم منه كل يوم قليلاً، حتى كان أخيراً نصيب الواحد منهم ثمرة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رجة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على الثمرة أكبر وقت ممكن⁽¹⁾، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه السرية: كنا نصمها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يوماً إلى الليل⁽²⁾، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني ثمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدناها حين فئت⁽³⁾، وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر رضي الله عنه: وكنا نضرب بعصينا الخبط⁽⁴⁾، ثم نبله بالماء فتأكله⁽⁵⁾، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط⁽⁶⁾، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه وكان من أحد جنود هذه السرية، فنحر للجيش ثلاث جزائر⁽⁷⁾، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه⁽⁸⁾.

وقد جاء ما فعله قيس بن سعد من كرم وجود مفصلاً في تاريخ ابن عساكر، فعن داود بن قيس، وإبراهيم بن محمد الأنصاري وخارجة بن الحارث، قالوا: بعث صلى الله عليه وآله أبا عبيدة في سرية فيها المهاجرون والأنصار، ثلاثمائة رجل إلى ساحل البحر، إلى حين، فأصابهم جوع شديد، فقال قيس بن سعد: أمن يشتري مني تمراً بجزر، يوفيني الجزر ههنا وأوفيه التمر بالمدينة... فوجد رجلاً من جهينة فقال قيس: بعني جزراً أوفيك أوسقة من تمر بالمدينة، قال الجهني: والله ما أعرفك، فمن أنت؟ قال: أنا ابن سعد بن عبادة بن دليم، قال الجهني: ما أعرفني بنسبك، وذكر كلاماً، فابتاع منه خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر، فشرط عليه البدوي تمر دخرة مصلبة من تمر آل دليم، يقول قيس: نعم، قال: فأشهد له نفرأ من الأنصار، ومعهم نفر من المهاجرين، قال قيس: أشهد من تحب، فكان فيمن أشهد: عمر بن الخطاب،

(1) السرايا والبعوث النبوية، ص 118. (2) شرح النووي على مسلم (84/13).

(3) فتح الباري (77/8).

(4) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الماقت خبط.

(5) شرح النووي (84/13). (6) فتح الباري (78/8).

(7) جمع جزور، والجزور: البحر، أو خاص بالناقة.

(8) فتح الباري (78/8).

(2) في فتح مكة:

دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام⁽¹⁾، وهو واضح رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقته ليكاد يمسّ واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح⁽²⁾، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز⁽³⁾، وعندما دخل مكة فاتحاً - وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي - رفع كل شعار من شعارات العدل والمساواة والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد⁽⁴⁾، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة⁽⁵⁾، وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال: ﷺ: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»⁽⁶⁾، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد، وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يثره، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري وسلمها لمهاجر، أو أنصاري آخر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه⁽⁷⁾، وفي هذا الحادثة تظهر حكمة النبي ﷺ في كيفية تصحيح الخطأ وأسلوبه في التعامل مع النفوس، فلم يترك خطأ سعد يمر، وفي نفس الوقت راعى نفسه، فصحيح خطأ سعد وأعطى الراية ابنه.

(3) في عهد الصديق ﷺ:

كانت أواصر النسب بين الصديق وقيس بن سعد بن عبادة من القوة بمكان، فقد تزوج قيس بن سعد ﷺ قرية بنت أبي عتيق أخت أبي بكر الصديق⁽⁸⁾، وقد ذكر ابن عبد البر خبيراً حكم عليه بالصحة حيث قال: . . . توفي - سعد بن عبادة - عن حمل لم يعلم به، فلما وُلد - وقد كان سعد بن سعد ﷺ قسم ماله في حين خروجه من المدينة بين أولاده - فكلم أبو بكر وعمر بن الخطاب

(1) مسلم رقم: 1358.

(2) البخاري، رقم: 4281، كتاب: المغازي.

(3) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص 396.

(4) البخاري رقم: 4289.

(5) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص 337.

(6) البخاري، كتاب: المغازي، (5/108) رقم: 4280.

(7) قيادة الرسول السياسية والعسكرية، ص 196.

(8) البداية والنهاية (11/355).

في ذلك قيساً، وسألاه أن ينقض ما صنع سعد من تلك القسمة، فقال: نصيبي للمولود، ولا أغير ما صنع أبي ولا أنقضه - خبر صحيح من رواية الثقات⁽¹⁾.

وهذا الخبر الصحيح يبين بطلان الرواية الباطلة التي تنسب لسيد الأنصار العمل على شق عصا المسلمين، والتتكّر لكل ما قدمه من نصرة وجهاد وإيثار للمهاجرين والظعن بإسلامه من خلال ما ينسب إلى سعد بن عبيدة من قول: لا أبياعكم حتى أرميكم بما في كتانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب سيفي، فكان لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع بجماعتهم ولا يقضي بقضائهم، ولا يفيض بإفاضتهم، حتى هلك أبو بكر⁽²⁾.

فقد استغلت هذه الرواية الباطلة للظعن بوحدة المهاجرين والأنصار وصدق أخوتهم، فالراوي صاحب هوى وهو إخباري تالف لا يوثق به⁽³⁾، ولا سيما في المسائل الخلافية وهو لوط بن يحيى أبو مخنف، متروك، ولم يعتد بأبي مخنف ويعتبر بروايته ويعتمد عليها سوى الشيعة؛ فقد كان من أعظم مؤرّخي الشيعة على قول ابن القمي⁽⁴⁾، وزعمت رواية أخرى في غاية الضعف بأن سعداً عاش حتى عهد عمر حيث قالت: . . فلما ولي عمر، لقيه فقال: إيه يا سعد، فقال: إيه يا عمر، فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه؟ قال: نعم، وقد أفضى إليك هذا الأمر، وكان صاحبك والله أحبّ إلينا منك، وقد أصبحت كارهاً لجوارك. قال: من كره ذلك تحول عنه. فلم يلبث إلا قليلاً حتى انتقل إلى الشام، فمات بحوران⁽⁵⁾.

إن الرواية الصحيحة تبين بأن سعد بن عبيدة مات في خلافة الصديق كما مرّ معنا، كما أن سعد بن عبيدة رضي الله عنه بايع أبا بكر بالخلافة في أعقاب النقاش الذي دار في سقيفة بني ساعدة إذ أنه نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة وبايع للصديق بالخلافة، وكان ابن عمه بشير بن سعد الأنصاري أول من بايع الصديق رضي الله عنه في اجتماع السقيفة، ولم يثبت النقل الصحيح أية أزمات لا بسيطة ولا خطيرة، ولم يثبت أي انقسام أو فرق لكل منها مرشح يطمع في الخلافة كما زعم بعض كتاب التاريخ، ولكن الأخوة الإسلامية ظلت كما هي، بل ازدادت توثقاً كما يثبت ذلك النقل الصحيح، ولم يثبت النقل الصحيح تأمراً حدث بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة

(1) الاستيعاب (3/ 1289).

(2) تاريخ الطبري (4/ 42) لا يفيض بإفاضتهم: أي في الحج.

(3) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (3/ 2992).

(4) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري: د. يحيى البحر، ص 45، 46.

(5) سير أعلام النبلاء (1/ 277) إسنادها في غاية الضعف، لأن الواقدي متروك، ومحمد بن صالح التمار

صدوق يخطئ، والزيبر بن منذر مستور.

لاحتكار الحكم بعد وفاة رسول الله (1) ﷺ. فهم كانوا أخشى لله وأتقى أن يفعلوا ذلك (2). وقد حاول بعض الكتاب من المؤرخين من أصحاب الأهواء أن يجعلوا من السيد الكبير الشريف، أبي قيس الأنصاري الخزرجي الساعدي المدني، النبي سيد الخزرج (3) سعد بن عبادة رضي الله عنه منافساً للمهاجرين يسعى للخلافة بالشر، ويدبر لها المؤامرات ويستعمل في الوصول إليها كل أساليب الثفرقة بين المسلمين. هذا الرجل - الذي هو والد قيس - إذا راجعنا تاريخه وتبعنا مسلكه، وجدنا موافقه مع الرسول ﷺ تجعله من الصفوة الأخيار الذين لم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم، فهو النبي في بيعة العقبة الثانية حتى لجأت قريش إلى تعقبه قرب مكة، وربطوا يديه إلى عنقه وأدخلوه مكة أسيراً حتى أنقذه منهم جبير بن مطعم بن عدي حيث كان يجيرهم في المدينة، وهو من الذين شهدوا بدر (4)، وحظي بمقام أهل بدر ومنزلتهم عند الله، وكان من بيت جود وكرم وشهد له بذلك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعتمد عليه - بعد الله - وعلى سعد بن معاذ كما في غزوة الخندق عندما استشارهم في إعطاء ثلث ثمار المدينة لعينة بن حصن الفزاري، فكان رد السعديين يدل على عمق الإيمان وكمال (5) التضحية، فمواقف سعد مشهورة ومعلومة.

فهذا الصحابي الجليل صاحب الماضي المجيد في خدمة الإسلام والصحة الصادقة لرسول الله لا يثبت ولا يعقل أنه كان يريد أن يحيي العصية الجاهلية في مؤتمر السقيفة لكي يحصل في غمار هذه الفرقة على منصب الخلافة، كما أنه لم يثبت ولم يصح ما ورد في بعض المراجع من أنه - بعد بيعة أبي بكر - كان لا يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم (6)، كأنما انفصل سعد بن عبادة رضي الله عنه عن جماعة المسلمين (7)، فهذا باطل ومحض افتراء، فقد ثبت من خلال الروايات الصحيحة أن سعداً بايع أبا بكر، فعندما تكلم أبو بكر يوم السقيفة، فذكر فضل الأنصار وقال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار» (8). ثم ذكر سعد بن عبادة بقول فصل وحجة لا ترد فقال: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت

(1) استخلاف أبو بكر، جمال عبد الهادي، ص 50، 51، 53.

(2) أبو بكر الصديق، للصلابي، ص 144.

(3) سير أعلام النبلاء (270/3).

(4) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (594/2).

(5) الخلافة والخلفاء الراشدين، سالم البهناوي، ص 48.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 49.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 49.

(8) البخاري، كتاب: الثني - رقم: 7244.

قاعد: «قرش ولاة هذا الأمر، فبِرَّ الناس تبع لبرِّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم» قال سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء⁽¹⁾، فتتابع القوم على البيعة وبايع سعد⁽²⁾.

وبهذا ثبت بيعة سعد بن عباد، وبها يتحقق إجماع الأنصار على بيعة الخليفة أبي بكر، ولا يعود أي معنى للترويح لرواية باطلة، بل سيكون ذلك مناقضاً للواقع واتهاماً خطيراً، أن ينسب لسيد الأنصار العمل على شق عصا المسلمين، والتنكر لكل ما قدمه من نصرة وجهاد، وإيثار للمهاجرين، والظعن بإسلامه من خلال ما ينسب إليه من قول ثبت بطالته، وقد بينا أن إسناده في غاية الضعف، وأما منته فهو يناقض سيرة سعد بن عباد وما في عنقه من بيعة علي السمع والطاعة، ولما روي عنه من فضائل⁽³⁾.

هذا وقد كان لسعد وصية أوصى بها ابنه جاء فيها: يا بني أوصيك بوصية فاحفظها، فإن أنت ضيعتها فأنت لغيرها من الإمرة أضيع، إذا توضأت فأتم الوضوء، ثم صل صلاة امرئ مودع ترى أنك لا تعود، وأظهر اليأس من الناس، فإنه غنى، وإياك وطلب الحوائج إليهم فإنه فقر حاضر، وإياك وكل شيء يعتذر منه⁽⁴⁾.

(4) في عهد علي عليه السلام:

استشهد عثمان عليه السلام وعلى مصر محمد بن أبي حنيفة مغتصباً للولاية فيها، ولم يقره عثمان عليها، وبعد وفاة عثمان أقره علي عليه السلام على مصر فترة من الوقت لم تطل، حيث وجه معاوية جيشاً إلى نواحي مصر فظفر بمحمد بن أبي حنيفة فقبض عليه ثم سجن وقتل⁽⁵⁾، وقد ذكر أن علياً لم يعين محمد بن أبي حنيفة على مصر وإنما تركه علي عليه السلام حتى إذا قتل عيين علي قيس ابن سعد الأنصاري على ولاية مصر⁽⁶⁾، فقال له: سر إلى مصر وليتكها، واخرج إلى رحلك واجمع إليه ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن واشتد على المريب، وارفق بالعامه والخاصة فإن الرفق يمن⁽⁷⁾.

وقد ظهر ذكاء قيس وحسن تصرفه في العديد من المواقف، فإنه حين توجه إلى مصر كان

(1) السلسلة الصحيحة رقم: 1156، مسند أحمد رقم: 18.

(2) الأنصار في العصر الراشدي، ص 102، تاريخ الطبري (3/ 223).

(3) الأنصار في العصر الراشدي، ص 102، 103.

(4) تاريخ ابن عساکر (181/ 22).

(5) ولاة مصر للكندي، ص 42، 43، الولاية على البلدان (9/ 2).

(6) ولاة مصر، ص 44، النجوم الزاهرة (1/ 94).

(7) الكامل في التاريخ (2/ 354).

فيها مجموعة ممن غضبوا لمقتل عثمان، ومجموعة ممن اشتركوا في قتله ولقد لقيته خيلاً من مصر قبل دخوله إليها فقالوا: من أنت؟ قال: من فآلة⁽¹⁾ عثمان فأنا أطلب من أوى إليه فانتصر به لله، قالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد، قالوا: امض، فمضى حتى دخل مصر، وهذا الموقف الذي لقيس هو الذي مكته من دخول مصر، ثم أعلن بعد ذلك أنه أمير، وربما لو أنه أعلن لهؤلاء الأجناد أنه أمير لمنعوه من دخول مصر أصلاً، كما حدث لمن وجهه علي إلى الشام فمعتته أجناد الشام من دخولها حينما علموا أنه قد بعث أميراً على الشام⁽²⁾.

وحيثما وصل قيس بن سعد إلى الفسطاط صعد المنبر وخطب في أهل مصر، وقرأ عليهم كتاباً من علي بن أبي طالب عليه السلام وطلب البيعة لعلي⁽³⁾، وهنا انقسم أهل مصر إلى فريقين: فريق دخل في بيعة علي وبايعوا قيساً، وفريق توقف واعتزل، وكان قيس بن سعد حكيماً مع الذين بايعوا والذين امتنعوا، حيث لم يجبرهم على البيعة وكف عنهم وتركهم في حالهم⁽⁴⁾، ولم يكتف بذلك بل إنه بعث لهؤلاء أعطياتهم في مكان اعتزالهم ووفد عليه قوم منهم فأكرمهم وأحسن إليهم⁽⁵⁾، فساعدت تلك المعاملة الطيبة على تجنب الصدام بهم، وبالتالي ساعدته على هدوء الأوضاع بمصر، حتى استطاع قيس أن ينظم الأمور فيها، فوزع الأمراء ونظم أمور الخراج وعين رجالاً على الشرطة⁽⁶⁾، وبذلك استطاع أن يرتب ولاية مصر، وأن يسترضي جميع الأطراف فيها⁽⁷⁾.

وأصبح قيس بن سعد في هذا الموقع يشكل ثقلًا سياسياً وخطراً عسكرياً على معاوية بن أبي سفيان في الشام، ونظراً لقرب مصر من الشام ولترتيب قيس لها وتنظيمها، وما اشتهر عن قيس من حزم ودهاء، وخوف معاوية من حركات عسكرية مناوئة له خرج من مصر، ولذلك فإنه أخذ يرأسل قيس بن سعد في مصر مهدداً له، وفي الوقت نفسه يحاول إغراءه بالانضمام إليه، وكانت إجابات قيس على تلك الرسائل إجابات ذكية بحيث لم يستطع معاوية أن يفهم موقف قيس وما ينوي عمله، وقد تعددت بينهما الرسائل⁽⁸⁾.

وقد انتشرت الروايات الشيعية من الرسائل بين معاوية وقيس بن سعد التي ذكرها أبو

(1) الفألة: الجماعة المنهزمون، لسان العرب (11/531).

(2) الولاية على البلدان (2/10) نقلاً عن نهاية الأرب في تاريخ العرب للنويري.

(3) تهذيب تاريخ دمشق (4/39). (4) ولاية مصر، ص 44.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 44.

(6) الولاية على البلدان (2/11)، النجوم الزاهرة (1/98).

(7) الولاية على البلدان (2/11).

(8) الكامل (2/355)، الولاية على البلدان (2/11).

مخفف في كتب التاريخ وهي باطلة لا تصح، فقد انفرد بها هذا الأخير الذي وضعه رجال الجرح والتعديل بها، وفي متن تلك الرواية الساقطة غرائب من أبرزها ما يلي:

أ - خطاب علي إلى أهل مصر مع قيس بن سعد وفيه: «ثم ولي بعدهما وال، فأحدث أحداثاً، فوجدت عليه الأمة مقالاً فقالوا ثم نعموا عليه فغيروا»، وهذا يعني أن الذين قاموا على عثمان رضي الله عنه، رجال الأمة، وأن الأمة قد غيرت هذا المنكر بقتل عثمان، وعلي رضي الله عنه بريء من هذا القول، وهو يعلم أن الذين قتلوا عثمان هم أوباش الناس، وأن قتله ظلم وفجور، وأقواله تدل على ذلك، ومنها ما رواه ابن عساكر: أن محمد ابن الحنفية قال: ما سمعت علياً ذاكراً عثمان بسوء قط⁽¹⁾.

ب - وأخرج الحاكم وابن عساكر أن علياً رضي الله عنه قال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة» وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتل على الأرض لم يدفن بعد، فانصرفوا فلما دفن رجوع الناس يسألونني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت، فلما قالوا: «أمير المؤمنين» فكانما صدع قلبي وانكسب⁽²⁾ بعبرة وقد أرسل الحسن والحسين رضي الله عنهما للدفاع عن عثمان رضي الله عنه، وأقواله في هذا المعنى كثيرة⁽³⁾، وقد جمعتهما في كتابي (تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان)⁽⁴⁾.

ج - قول قيس بن سعد: «أيها الناس إنا قد بايعنا خير ما نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم وهذا مردود، إذ إن الثابت تفضيل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، على بقية الصحابة وعلى علي رضي الله عنه، كما صح عن علي نفسه: أنه صرح بذلك، وهذا لا يشك فيه أحد في ذلك الزمان من الصحابة وغيرهم، وعليه فلا يصح نسبة هذا الكلام لقيس بن سعد رضي الله عنه ولا لغيره من الصحابة، ولم يشتهر هذا إلا عند الشيعة المتأخرين⁽⁵⁾، قال ابن تيمية: الشيعة المتقدمون كلهم متفقون على تفضيل أبي بكر وعمر⁽⁶⁾.

(1) تاريخ ابن عساكر، ترجمة عثمان، ص 395.

(2) المستدرک (2/355)، صحيح علي شرط الشيخين.

(3) مرويات أبي مخنف د. يحيى يحيى، ص 211.

(4) عثمان بن عفان، للصلاحي، ص 407، 409.

(5) مرويات أبي مخنف، ص 211.

(6) منهاج السنة (1/111).

والأدلة في تفضيل أبي بكر وعمر كثيرة، منها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فنخبر أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان⁽¹⁾، والأحاديث في ذلك كثيرة⁽²⁾ ومشهورة، وحقيقة الأمر كما مر معنا في الروايات الصحيحة السابقة أن معاوية طلب من أمير المؤمنين تسليمه قتلة عثمان ولم يتهم أمير المؤمنين علياً به.

د - رسالة معاوية إلى قيس بن سعد: وإشارته فيها إلى كون علي طرفاً في قتل عثمان، وهذا لا يصح صدوره من معاوية، ذلك أن الأمر واضح فيه براءة علي رضي الله عنه كما في الفقرة السابقة، وهذا لا يجهله معاوية رضي الله عنه فضلاً أن يقره لقيس بن سعد رضي الله عنه، وهذا محمد بن سيرين من كبار التابعين ومن الذين عاصروا ذلك المجتمع يقول: لقد قتل عثمان وما أعلم أحداً يتهم علياً في قتله⁽³⁾، ويقول أيضاً: لقد قتل عثمان يوم قتل وإن الدار يومئذ لغاصة، فيهم عبد الله بن عمر، وفيهم الحسن بن علي في عنقه السيف، ولكن عثمان عزم عليهم أن لا يقاتلوا⁽⁴⁾، وأخرج ابن أبي شيبة بسند رجاله ثقات عن محمد ابن الحنفية أن علياً قال: لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر⁽⁵⁾، والنصوص الصحيحة في هذا المعنى كثيرة جداً⁽⁶⁾، مما يؤكد اشتهاً كراهية علي رضي الله عنه لقتل عثمان⁽⁷⁾.

هـ - وأما ما أورده من اتهام معاوية للأنصار في دم عثمان، فهذا لا يصح من معاوية وهو يعلم أن الذي قام بالدفاع جميعاً هم الأنصار، فقد أخرج ابن سعد بسند صحيح: أن زيد بن ثابت رضي الله عنه جاء إلى عثمان رضي الله عنه وهو محصور فقال: هذه الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال: فقال عثمان: أما القتال فلا⁽⁸⁾.

و - ما ذكره من اختلاق معاوية كتاباً على لسان قيس بن سعد، فهذا من الكذب الذي لا يعقل صدوره من معاوية، ذلك أن العرب كانوا يعدون الكذب من أقبح الصفات التي يتنزه عنها الرجال الكرام، وهذه قصة أبي سفيان وهو يومئذ على الشرك فيما أخرجه البخاري في قصة سؤال هرقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي

(1) البخاري رقم: 3697.

(2) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص 212.

(3) تاريخ ابن عساکر، ترجمة عثمان، ص 395، مرويات أبي مخنف، ص 212.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 350.

(5) المصنف (268/15).

(6) تاريخ ابن عساکر، ترجمة عثمان، ص 395.

(7) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص 213.

(8) الطبقات (70/3) سنده صحيح.

كذباً لكذبت عنه⁽¹⁾، فهذه منزلة الكذب عند العرب، وعند المسلمين أشد وأخزى ولا يقول قائل: هذه خدعة والحرب خدعة، فإن الخدعة ليس معناها الكذب، كما هو معلوم من كلام العرب، ومعاوية رضي الله عنه أحذق من أن يفعل هذا⁽²⁾.

ز - رواية هذه الكتب الكثيرة بين قيس ومعاوية وعلي رضي الله عنه بهذا التسلسل وبهذه الدقة تدخل الشك والريبة على الفارئ لجهالة المطلع والناقل لها.

يقول الدكتور يحيى اليعقوبي: إن ولاية قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه على مصر من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمر مجمع عليه⁽³⁾، وكل من ترجم لقيس لم يذكر هذه التفاصيل⁽⁴⁾، أي التي ذكرها أبو مخنف في روايته - وحتى مؤرخو مصر المعتبرون لم يذكروا ذلك⁽⁵⁾، هذا وقد نقل رواية أبي مخنف من الطبري بعد حذف واختصار كل من: ابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون، وابن تغري بردي⁽⁶⁾، وقد أخرج الكندي أيضاً عن عبد الكريم الحارث قال: لما ثقل مكان قيس علي معاوية كتب إلى بعض بني أمية بالمدينة: أن جزى الله قيس بن سعد خيراً واكتموا ذلك، فإني أخاف أن يعزله علي إن بلغه ما بينه وبين شيعتنا حتى بلغ علياً، فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة: بئس قيس وتحول، فقال علي: ويحكم إنه لم يفعل، فدعوني، قالوا: لتعزله فإنه قد بدل، فلم يزالوا به حتى كتب إليه: إني قد احتجت إلى قريبك، فاستخلف علي عمك وا قدم⁽⁷⁾، وقد رجح هذه الرواية الدكتور اليعقوبي في كتابه القيم «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» قال:

- إنها من رواية مصري ثقة، وهو أعلم بقطره من غيره.

- أخرجها مؤرخ مصري.

- خلوها من الغرائب.

- متنها مما يتفق مع سيرة أولئك الرجال.

- بينت تردد علي في عزل قيس حتى ألح عليه الناس، فاستبقاه عنده، وهكذا القائد لا يفرط بالقيادات الحاذقة وقت المحن⁽⁸⁾.

(1) البخاري رقم: 7.

(2) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص 214.

(3) تاريخ خليفة، ص 201، فتح مصر، ص 274، سير أعلام النبلاء (12/3).

(4) طبقات ابن سعد (6/52)، تاريخ بغداد (1/177) سير أعلام النبلاء (3/102).

(5) النجوم الزاهرة (1/97)، البداية والنهاية (251/07).

(6) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص 210.

(7) ولاية مصر، ص 45 - 46 وفيها المداني وهو صدوق وبقية رجالها ثقات إلا أنها مرسله.

(8) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص 210.

هذا وقد تدخل بعض الناس للإفساد بين علي وقيس بن سعد لكي يعزله، وفي نهاية المطاف طلب بعض مستشاري علي منه أن يعزل قيساً، وصدقوا تلك الإشاعات التي قيلت فيه، وألحوا في عزله، فكتب إليه علي: إني قد احتجت إلى قريبك فاستخلف علي عمك واقدم⁽¹⁾. كان هذا الكتاب بمثابة عزل لقيس عن ولاية مصر، وقد عين علي مكانه الأشتر النخعي⁽²⁾، على أكثر الأقوال، وقد التقى علي بالأشتر قبل سفره إلى مصر، فحدثه حديث أهل مصر وخبره خبر أهلها، وقال: ليس لها غيرك، اخرج رحمتك الله فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك، واستعن بالله على ما أمرك فاخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ واعزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة⁽³⁾.

قد توجه الأشتر إلى مصر ومعه رهط من أصحابه، إلا أنه حينما وصل إلى أطراف بحر القلزم - البحر الأحمر - مات قبل أن يدخل مصر، وقد قيل: إنه سقي شربة مسمومة من غسل فمات منها، وقد اتهم أناس من أهل الخراج أنهم سموه بتحرير من معاوية⁽⁴⁾، والتهمة الموجهة إلى معاوية في قتل الأشتر بالسم لا تثبت من طريق صحيح واستبعد ذلك ابن كثير⁽⁵⁾، وابن خلدون⁽⁶⁾، وسار على نهجهم الدكتور يحيى اليحيى⁽⁷⁾، وملت إلى هذا القول.

هذا وقد مات الأشتر قبل أن يباشر عمله في مصر، ومع ذلك فإن المصادر تتحدث عنه كأحد ولاة مصر لعلي بن أبي طالب وقد ولي بعده علي مصر محمد بن أبي بكر⁽⁸⁾، وقد سبق لمحمد بن أبي بكر أن عاش في مصر في عهد عثمان، وتدل الروايات على أن محمد بن أبي بكر قد وصل إلى مصر قبل أن يغادرها الوالي الأول قيس بن سعد، وقد دارت محاوراة بين قيس بن سعد ومحمد بن أبي بكر، قدم فيها قيس عدة نصائح لمحمد، خصوصاً فيما يتعلق بالناس الغاضبين لمقتل عثمان، والذين لم يبايعوا علياً بعده، وقد قال قيس: يا أبا القاسم إنك قد جئت من عند أمير المؤمنين، وليس عزله وإيائي بماتني أن أنصح لك وله، وأنا من أمركم هذا على بصيرة، ودع هؤلاء القوم ومن انضم إليهم - يقصد الذين لم يبايعوا علياً ولا غيره - على ما هم عليه، فإن أتوك فاقبلهم وإن تخلفوا عنك فلا تطلبهم، وأنزل الناس على قدر

(1) ولاية مصر، ص 45 - 46.

(2) فتوح البلدان، ص 229، الولاية على البلدان (2/12).

(3) النجوم الزاهرة (1/103).

(4) النجوم الزاهرة (1/104). سير أعلام النبلاء (4/34).

(5) البداية والنهاية (8/303).

(6) تاريخ ابن خلدون (4/112).

(7) مرويات أبي مخنف، ص 224.

(8) النجوم الزاهرة (1/106).

منازلهم، وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل، فإن هذا لا ينقصك⁽¹⁾. ثم رجع قيس إلى المدينة وبعدها التحق بأمرير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة وشهد معه معركة صفين وهو القاتل يومها:

هذا اللواء الذي كُننا نحفُّ به مع النسبي وجبريل لنا مدد
ما ضرَّ من كانت الأنصار عيبته⁽²⁾ أن لا يكون له من غيرهم أحد
قوم إذا حاربوا طالت أكتفُهُم بالمشرفية حتى يفتح البلد⁽³⁾

ويبقى مع أمير المؤمنين علي حتى قتل. فصار مع الحسن وسار في مقدمته إلى معاوية، فلما بايع الحسن معاوية - وسيأتي تفصيلها بإذن الله - دخل قيس في بيعة معاوية، وعاد إلى المدينة⁽⁴⁾، وأقبل على العبادة⁽⁵⁾.

(5) قول قيس: إنا لا نعود في شيء أعطيناه⁽⁶⁾:

عن موسى بن أبي عيسى - أن رجلاً استقرض من قيس بن سعد بن عبادة ثلاثين ألفاً، فلما ردّها عليه أبي أن يقبلها وقال: إنا لا نعود في شيء أعطيناه⁽⁷⁾.

(6) قول قيس: لقد سألت فأحسنت⁽⁸⁾:

جاءت عجوز إلى قيس بن سعد بن عبادة قد كان يعرفها، فقال لها: كيف أنت؟ فقالت: أحمد الله إليك، ما في بيتي فأرة تدبّ، فقال: لقد سألت فأحسنت، لأملأن عليك بيتك فأراً، فأمر لها بدقيق كثير، وزيت وما يحتاج إليه، وانصرفت⁽⁹⁾. وقد ذكرها ابن عبد البر وقال: مشهورة صحيحة⁽¹⁰⁾.

(7) حال الرجل الذي تمتى قيس أن يعمل مثله⁽¹¹⁾:

قال قيس بن سعد: تمتيت أن أكون في حال رجل رأيته، أقبلنا من الشام فإذا نحن بخباء فقلنا: لو نزلنا ههنا، فإذا امرأة في الخباء، فلم نلبث أن جاء رجل بدود له، فقال لامرأته: من هؤلاء؟ فقالت: قوم نزلوا بك، فجاء بناقة فضرب عرقوبيها ثم قال: دونكم، وقال: يا هؤلاء انحروها، قال: فنحرتها فأصبنا من أطايبها، فلما كان من الغد جاءنا بأخرى، فضرب

(1) تاريخ ابن عساکر (22/181).

(2) المشرفية: سيوف مشوية إلى المشارف وهي قرى من أرض اليمن.

(3) أسد الغابة (4/452).

(4) المصدر السابق نفسه (3/1291).

(5) تاريخ دمشق (52/286).

(6) الاستيعاب (3/1292).

(7) المصدر السابق نفسه (3/1291).

(8) تاريخ دمشق (52/286).

(9) الاستيعاب (3/1292).

(10) تاريخ دمشق (52/285).

عرقوبها، وقال: يا هؤلاء اتحروها، قال: فحترناها، فقلنا: اللحم عندنا كما هو، قال: إننا لا نطعم أضيافنا الغائب، قال: فقلت لأصحابي: إن هذا الرجل إن أقمنا عنده لم يبق عنده بعير، فارتحلوا بنا، وقلت لقيمي: اجمع ما عندك، قال: ليس عندي إلا أربع مائة درهم، قلت: هاتها، وهات كسوتي، فجمعناها فقلت: بادروه، فدفعناه إلى امرأته، ثم سرتنا، فلم نلبث أن رأينا شخصاً، فقلت: ما هذا؟ قالوا: لا ندري، فدنا، فإذا رجل على فرس يجزّ رمحه، فإذا صاحبنا، فقلت: وأسوأناه استقل والله ما أعطيناه، قال: فدنا، فقال: دونكم متاعكم، فخذوه، فقلت: والله ما كان إلّا ما رأيت، ولقد جمعنا ما كان عندنا، قال: إنّي والله لم أذهب حيث تذهبون فخذوه، قلنا: فلا نأخذه، قال: والله لأميلنّ عليكم برمحي ما بقي منكم رجل أو تأخذونه، قال: فأخذناه قولى وقال: إننا لا نبيع القُرَى⁽¹⁾ - أي الضيافة.

8) هل أسخى الناس قيس بن سعد، أم عبد الله بن جعفر، أم عرابة الأوسي؟

امترى ثلاثة في الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال آخر: أسخى الناس في عصرنا هذا قيس بن سعد بن عباد، وقال الثالث: أسخى الناس عرابة الأوسي، فتلاحوا وأفرطوا وكثر ضجيجهم في ذلك بفتاء الكعبة، فقال لهم رجل: قد أكثرتم، فلا عليكم، يمضي كل منكم إلى صاحبه، يسأله حتى ينظر ما يعطيه، ونحك على العيان، فقام صاحب عبد الله بن جعفر، فصادفه وقد وضع رجله في غرز راحلته، يريد ضيعة له، فقال له: يا بن عم رسول الله ﷺ، قال: قل ما تشاء، قال: ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله من الغرز وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، ولا تحد عن السيف، فإنه من سيوف علي بن أبي طالب وامض لشأنك، قال: فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خزّ، وفيها أربعة آلاف دينار، وأعظمها وأجلها خطراً السيف، ومضى صاحب قيس بن سعد بن عباد فلم يصادفه وعاد، فقالت له الجارية: هو نائم فما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبع مائة دينار، ما في دار قيس مال في هذا اليوم غيره، وامض إلى معاطن الإبل إلى مولانا بغلامينا، فخذ راحلةً مرخلةً، وما يصلحها، وعبداً، وامض لشأنك، فقيل: إن قيساً انتبه من رقدته، فخبرته المولاة بما صنعت، فأعتقها، وقال لها: ألا نبهتني فكنت أزيد من عروض ما في منزلنا، فلعل ما أعطيت لم يقع بحيث ما أراد. ومضى صاحب عرابة الأوسي إليه فألفاه وقد خرج من منزله يريد الصلاة، وهو متوكئ على عبيدين، وقد كُفّ بصره فقال: يا عرابة، قال: قل ما تشاء، قال: ابن سبيل ومنقطع به قال: فخلّى عن العبيدين، ثم صقّ بيده اليمنى على اليسرى ثم قال: أوه!

والله ما أصبحت ولا أميت وقد تركت الحقوق لعرابة من مال، ولكن خذهما فهما حران، وإن شئت فأعتق، وإن شئت فخذ، وأقبل يلتمس الحائض بيده قال: فأخذهما وجاء بهما. قال: فحكمت الناس على ابن جعفر قد جاد بمالٍ عظيم، وإن ذلك ليس بمستكر له إلا أن السيف أجلاًها، وأن قيساً أحد الأجواد حكّم مملوكة في ماله بغير علمه، واستحسانه ما فعله وعتقه لها وما تكلم به، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي لأنه جهد من مقل⁽¹⁾، ومن قيم ذلك العصر الواضحة المعالم التنافس في الكرم والجود وفعل الخير.

(9) خير منسوب إلى قيس لا يصح إثباته:

بعث قيصر إلى معاوية بن أبي سفيان: أن ابعث على سراويل أطول رجل من العرب، فقال لقيس بن سعد: ما أظننا إلا قد احتجنا إلى سراويلك قال: فقام فتنحى فجاء بها فألقاها إلى معاوية، فقال معاوية: رحمك الله، ما أردت إلى هذا؟ ألا ذهبت إلى منزلك ثم بعثت بها إلينا؟ فقال قيس:

أردت بها كي يعلم الناس أنها	سراويل قيس والوقوف شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه	سراويل عادي نعمته ثمود
وإني من الحيّ اليماني لميّد	وما الناس إلا سيد ومسمود
فكدهم بمشلي إن مشلي عليهم	شديد وخلقي في الرجال مديد

قال: فأمر معاوية أطول رجل في الجيش فوضعها على أنفه فوقعت بالأرض، قال: فدعا معاوية بسراويل، فلما جيء بها قال له قيس: نج عنك ثيابك هذا، فقال معاوية:

أما قريش فأقوم مسرولة	واليشرييون أصحاب الشبايين
-----------------------	---------------------------

فقال قيس:

تلك اليهود التي يعني ببلدتنا كما قريش هم أهل السخاخين⁽²⁾

وجاء في رواية أخرى: أن قيصر كتب إلى معاوية: إني قد وجهت إليك رجلين: أحدهما أقوى رجل ببلادي، والآخر أطول رجل في أرضي، وقد كانت الملوك تتجارى في مثل هذا وتتحاجى به، فأخرج إليهما ممن في سلطانك من يقاوم كل واحد منهما، فإن غلب صاحبك حملت إليك من المال وأسارى المسلمين كذا وكذا، وإن غلب صاحبي هادنتني ثلاث سنين، فلما ورد كتاب قيصر على معاوية أهّمه وشارر فيه أصحابه، فقيل له: أما الأيد فادع

(1) تاريخ دمشق (286/52).

(2) المصدر السابق نفسه (293/52، 294).

لمناهضته إما محمد ابن الحنفية وإما عبد الله بن الزبير، فقال: فأحضر محمد بن علي والأيد الرومي حاضر، فأخبره بما دعاه له، فقال محمد للرومي: ما تشاء؟ فقال: يجلس كل واحد منا ويدفع يده على صاحبه، فمن قلع صاحبه من موضعه أو رفعه عن مكانه فقد فلع عليه، ومن عجز عن ذلك وقهره صاحبه قضى بالغبلة له، فقال محمد: هذا لك، فاختر أينا يبدأ بالجلوس، فقال له: اجلس أنت، فجلس وأعطاه يديه، فجعل يمارسه ويجتهد في إزالته عن موضعه فلم يتحرك محمد، وظهر عجز الرومي لمن حضر، فقال له محمد: اجلس الآن، فجلس وأخذ بيده فما لبث أن اقتلعه ورفع في الهواء ثم ألقاه على الأرض، فسّر معاوية وحاضروه من المسلمين. وقال معاوية لقيس بن سعد والرومي الطوال: تطاولا، فقال قيس: أنا أخلع سراويلي ويلبسها هذا العليج، فإن ما بيننا وبين ذلك، ثم خلع سراويله، وألقاها إلى الرومي فلبسها، فبلغت ثدييه وانسحب بعضها في الأرض، فاستبشر الناس بذلك، وجاءت الأنصار إلى قيس فقالت له: تبدلت بين يدي معاوية، ولو كنت مضيت إلى متزك وبعثت بالسراويل إليه، فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها	سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه	سراويل عادي نمته وشمود
وإني من القوم اليمانيين سيّد	وما الناس إلا سيّد ومحدود
وفضلني في الناس أصلي والدي	وباع به أعلو الرجال مديد ⁽¹⁾

قال أبو عمر بن عبد البر حافظ الأندلس الشهير: حَبَّرَهُ في السراويل عند معاوية كذب وزور مختلق ليس لها إسناد، لا يشبه أخلاق قيس، ولا سيرته في نفسه ونزاهته، وهي حكاية مفتعلة وشعر مزور⁽²⁾.

10 دهاة العرب حين ثارت الفتنة:

كان قيس بن سعد بن عبادة من ذوي الرأي من الناس، قال ابن شهاب: وكان يعدون دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة رهط، يقال لهم ذوو رأي العرب في مكيدتهم: معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وقيس بن سعد والمغيرة بن شعبة، ومن المهاجرين: عبد الله بن بُدَيْل الخُزاعي، وكان قيس وابن بديل مع علي عليه السلام، وكان المغيرة معتزلاً بالطائف وأرضها حتى حكم الحكماء واجتمعوا بأذرح⁽³⁾، وكان قيس يقول: لولا الإسلام لمكرت مكرأ لا تطبيقه العرب⁽⁴⁾.

(1) تاريخ دمشق (52/294).

(2) الاستيعاب (3/1293).

(3) تاريخ دمشق (52/288).

(4) المصدر السابق نزهة (52/287).

11) لوددنا أن نشترى لقيس لحية بأموالنا⁽¹⁾:

ذكر الزبير بن بكار: أن قيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن الزبير، وشريحاً القاضي، لم يكن في وجوههم شعرة ولا شيء من لحية، وذكر غير الزبير أن الأنصار كانت تقول: لوددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا. وكان مع ذلك جميلاً صحيح⁽²⁾.

12) قول قيس: لم ترين قلّ عوادي؟

باع قيس بن سعد مالا من معاوية بتسعين ألفاً، فأمر منادياً في أهل المدينة، من أراد القرض فليأت منزل سعد، فأقرض أربعين أو خمسين وأجاز الباقي، وكتب على من أقرضه صكاً، فمرض مرضاً قلّ عواده، فقال لزوجته قريية بنت أبي قحافة أخت أبي بكر: يا قريية لم ترين قلّ عوادي؟ قالت: للذي لك عليهم من الدين، فأرسل إلى كل رجل بصكه⁽³⁾، وجاء في رواية: . . . فمرض واستبطأ عواده، ف قيل له: إنهم يستحيون من أجل دينك، فأمر منادياً يتنادي: من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له، فأتاه الناس حتى هدموا درجة كانوا يصعدون عليها إليه⁽⁴⁾.

13) قيس بن سعد يطعم الناس في أسفاره:

كان قيس بن سعد يطعم الناس في أسفاره مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت له صحيفة يدار بها حيث دار، وكان إذا أنفذ ما معه يستدين، قال: وكان يتادي في كل يوم: هلموا إلى اللحم، والثريد⁽⁵⁾.

14) خبر لا يصح بين قيس ومعاوية صحيح:

قال معاوية لقيس بن سعد: إنما أنت حبر من أحبار يهود، إن ظهرنا عليك قتلناك، وإن ظهرت علينا نزعناك، فقال: إنما أنت وأبوك صنمان من أصنام الجاهلية، دخلتما في الإسلام كُرْهاً وخرجتما منه طوعاً⁽⁶⁾، قال الذهبي: هذا منقطع، والمنقطع من أنواع الضعيف.

15) وفاة قيس بن سعد صحيح:

مات في أواخر خلافة معاوية، وذهب إلى ذلك خليفة بن خياط⁽⁷⁾، والذهبي⁽⁸⁾، وقال ابن حبان: مات سنة 85 هـ في خلافة عبد الملك⁽⁹⁾، ووافق ابن حجر خليفة والذهبي⁽¹⁰⁾ وقال

(2) المصدر السابق نفسه (1292/3).

(4) الاستيعاب (1293/3).

(6) سير أعلام النبلاء (3/111).

(8) سير أعلام النبلاء (3/112).

(10) الإصابة (5/361).

(1) الاستيعاب (1292/3).

(3) تاريخ دمشق (284/52).

(5) تاريخ دمشق (283/52).

(7) الإصابة (5/361).

(9) الإصابة (5/361).

ابن عبد البر: .. لزم قيس المدينة، وأقبل على العبادة حتى مات بها ستة ستين هجرية، وقيل: سنة تسع وخمسين في آخر خلافة معاوية، وكان رجلاً طويلاً سُنْطاً⁽¹⁾.

ثانياً: عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي: أبو محمد

هو عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ⁽²⁾، وأمّه أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن بن بجير الهُزَمِ بن رُوَيْبَةَ بن عبد الله بن هلال بن عامر ابن صعصعة⁽³⁾، وأخوه عبد الله، وكثير، والفضل، وقثم، ومعبد، وتقام⁽⁴⁾.

(1) أولاده وزوجاته:

ولد لعبيد الله بن العباس: محمد وبه كان يكنى، وأمّه الفرعة⁽⁵⁾ بنت قطن بن الحارث ابن حزن بن بُجَيْرِ بن الهُزَمِ بن هلال بن عامر. والعباس⁽⁶⁾، والعالية، تزوجها علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب فولدت له محمد بن علي، وفي ولده الخلافة من بني العباس، وميمونة، وأمهم عائشة بنت عبد الله من مذجع⁽⁷⁾ ولبابة وأم محمد، وأمها عمرة بنت عَزْبِ بن الحميري⁽⁸⁾، وعبد الرحمن وقثم وأمهما أم حكيم بنت قارظ بن خالد الكنانية⁽⁹⁾، وعبد الله وجعفر وأُم كلثوم وعمرة وأم العباس وأمهم أم ولد⁽¹⁰⁾.

(2) عمره ورؤيته لرسول الله ﷺ:

كان عبيد الله بن العباس أصغر سنّاً من عبد الله بن العباس بسنة⁽¹¹⁾، فكان رسول الله ﷺ قبض وهو ابن اثني عشرة سنة، وقد رأى النبي ﷺ وسمع منه⁽¹²⁾، وقيل: له رؤية وله حديث عن النبي ﷺ في سنن النسائي: أن الغميصاء أو الرميضاء أتت النبي ﷺ تشكي زوجها أنه لا يصل إليها فلم يلبث أن جاء زوجها، فقال: يا رسول الله هي كاذبة، وهو يصل إليها، ولكنها تريد أن ترجع إلى زوجها الأول، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك حتى تلوثي عسيلته»⁽¹³⁾ وأورده أحمد من طريق هشيم لنفس الإسناد، ورجاله ثقات، إلا أنه ليس بصريح بأن عبيد الله

(1) السناط: بالكسر، وبالضم: لا لجة له أصلاً أو الخفيف العارض. أو لجة في الذقن وما بالعارضين شيء.

(2) الطبقات تحقيق السلمي (1/214)، سير أعلام النبلاء (3/512).

(3) الطبقات تحقيق السلمي (1/212). (4) سير أعلام النبلاء (3/513).

(5) الطبقات تحقيق السلمي (1/212). (6) المصدر السابق نفسه (1/212).

(7) المصدر السابق نفسه (1/212). (8) المصدر السابق نفسه (1/213).

(9) المصدر السابق نفسه (1/213). (10) نسب قریش، ص 31، الطبقات (1/214).

(11) الاستيعاب (3/1009). (12) الطبقات تحقيق السلمي (1/214).

(13) سنن النسائي (6/148) وقد تحرف في المطبوع من عبيد الله إلى عبد الله.

شهد القصة⁽¹⁾، وأورده الهيثمي في المجمع⁽²⁾ مختصراً عن عبيد الله والفضل بن العباس، وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح⁽³⁾، وقال الذهبي عن حديثه في سنن النسائي: حكمه بأنه مرسل⁽⁴⁾ وحدث عنه: ابنه عبد الله، عطاء، وابن سيرين، وسليمان بن يسار، وغيرهم، وكان أميراً، شريفاً جواداً، مُمدحاً⁽⁵⁾.

أ - كان رسول الله يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً بـ بني العباس:

عن عبد الله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله، وكثيراً بني العباس، ثم يقول: «من سبق إليّ فله كذا». فيستبقون إليه، فيقعرون على ظهره وصدرة فيقبلهم ويلزمهم⁽⁶⁾.

ب - كان عبيد الله أحب إلى العباس من قثم:

قال عبد الله بن جعفر: لو رأيتي وقثماً وعبيد الله ابنا العباس ونحن صبيان تلعب، إذ مرّ النبي ﷺ على دابة فقال: «ارفعوا إليّ هذا»، فحملني أمامه. وقال لقثم: «ارفعوا إليّ هذا»، فحمله وراءه، قال: وكان عبيد الله أحبّ إلى العباس من قثم، فما استحيا من عمه أن حمل قثماً وترك عبيد الله⁽⁷⁾.

3) استعمال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عيد الله على اليمن:

استعمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عيد الله بن العباس على اليمن، وأمره على الموسم، فحجّ بالناس سنة ست وثلاثين سنة سبعمائة وثلاثين، فلما كان سنة ثمان وثلاثين بعثه أيضاً على الموسم، وبعث معاوية في ذلك العام يزيد بن شجرة الرهاوي ليقيم الحج، فاجتمعوا فسأل كل واحد منهما صاحبه أن يُسلم له، فأبى، واصطلحا على أن يصلي بالناس شية بن عثمان، وفي هذا الخبر اختلاف بين أهل السير، منهم من جعله لقثم بن العباس، وقال خليفة: في عام أربعين بعث معاوية بسر بن أرطاة العامري إلى اليمن، وعليها عيد الله بن العباس، فلم يزل عليها حتى قتل علي بن أبي طالب عليه السلام⁽⁸⁾.

4) بسر بن أبي أرطاة وحقيقة قصة مقتل ولدي عبيد الله:

تذكر بعض كتب التاريخ بأن عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله بن العباس قتلها بسر بن أبي

(1) مستد أحمد (214/1) رجاله ثقات، إلا أنه ليس بصريح بأن عيد الله شهد القصة.

(2) المجمع (340/4) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

(3) سير أعلام النبلاء (513/3).

(4) المصدر السابق نفسه (513/3).

(5) المصدر السابق نفسه (513/3).

(6) مستد أحمد (459/1) رقم: 1836.

(7) تاريخ دمشق (353/39)، الطبقات، تحقيق السلمي (14/2) إسناده حسن.

(8) الاستيعاب (3/1009).

أرطاة باليمن: وقتل أيضاً بعض أنصار علي عليه السلام هناك ثم رجع إلى الشام، وكان أمير المؤمنين قد وجه جارية بن قدامة السعدي، قيل: ففعل مثلما فعل بسر، وقتل بعض محبي عثمان في اليمن⁽¹⁾ قال ابن كثير: وهذا الخبر مشهور عند أهل السير وفي صحته عندي نظر⁽²⁾.

ولا شك أن قتل الأبرياء لم يحصل في تلك المرحلة حتى في أيام البصرة وصفين عندما قامت الحرب بين الطرفين، فكيف يقتل الأطفال والأبرياء في مرحلة الهدنة؟ لذلك لا يمكن قبول هذه الأعراف المناقضة لأعراف المسلمين وقيمهم ودينهم⁽³⁾.

كما أن رواية قتل بسر بن أبي أرطاة للطفلين، ذكرها ابن سعد من طريق الواقدي وهو متروك، وذكره الطبري في تاريخه⁽⁴⁾، ذكر عن زياد البكائي عن عوانة قال: أرسل معاوية. وهذا إسناد متقطع على ما في عوانة بن الحكم الأخباري من كلام⁽⁵⁾، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب⁽⁶⁾ قصة قتله لابن عبيد الله بن عباس من طريق هشام الكلبي عن أبي مخنف وهما متروكان⁽⁷⁾، فأما هشام بن محمد بن السائب الكلبي، اتفقوا على غلوّه في التشيع، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أحداً يحدث عنه، وقال الدارقطني: متروك⁽⁸⁾ وقال ابن حبان: كان غالباً في التشيع⁽⁹⁾، وقال ابن عساکر: رافضي ليس بثقة⁽¹⁰⁾، وقال الذهبي: الرافضي النسابة⁽¹¹⁾، وأما أبو مخنف، لوط بن يحيى، قال عنه ابن عدي: شيعي محترق، صاحب أخبارهم⁽¹²⁾، وعده ابن تيمية في الشيعة وقال عنه: متروك كذاب⁽¹³⁾، ولم يذكر قتل بسر لشيعة علي باليمن أو الحجاز المؤرخ الثقة خليفة بن خياط في تاريخه⁽¹⁴⁾، وطبقاته⁽¹⁵⁾ وإنما ذكر خبر بعث معاوية له للاستيلاء على اليمن والحجاز، وكذلك البخاري في الكبير⁽¹⁶⁾، والحاكم في المستدرک⁽¹⁷⁾.

ولا يصح أبداً قتل بسر بن أبي أرطاة العامري لابني عبيد الله باليمن، ويرى أهل الشام

- (1) تاريخ الطبري (55/6).
- (2) البداية والنهاية (334/7).
- (3) الإنصاف، د. حامد، ص 575.
- (4) تاريخ الطبري (139/5)، الطبقات، تحقيق السلمي (213/1).
- (5) الطبقات، تحقيق السلمي (213/1).
- (6) الاستيعاب (89/1).
- (7) الطبقات، تحقيق السلمي (213/1).
- (8) المجروحين لابن حبان (91/3)، تذكرة الحفاظ (343/1).
- (9) المجروحين (91/3).
- (10) سير أعلام النبلاء (102/10).
- (11) تذكرة الحفاظ (343/1).
- (12) الكامل في ضعفاء الرجال (2110/6).
- (13) منهاج السنة (82/5).
- (14) تاريخ خليفة، ص 198.
- (15) طبقات ابن خياط، ص 27.
- (16) التاريخ الكبير في البخاري (123/2).
- (17) المستدرک (591/03).

بأن بسر بن أبي أرطاة سمع من النبي ﷺ، وهو أحد الذين بعثهم عمر بن الخطاب مدداً إلى عمرو بن العاص لفتح مصر، على اختلاف فيه، فيمن ذكره فيهم، قال: كانوا أربعة: الزبير، وعمير بن وهب، وخارجة بن حذافة، وبسر بن أرطاة، والأكثرون يقولون: الزبير، والمقداد، وعمير بن وهب، وخارجة بن حذافة وهو أولى بالصواب⁽¹⁾.

ولبس بن أرطاة عن النبي ﷺ حديثان:

أحدهما: «لا تقطع الأيدي في المغازي»⁽²⁾.

والثاني: في الدعاء: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»⁽³⁾.

وأمام البحث النزاه لا يصح مقتل ولدي عبيد الله بن العباس على يدي بسر بن أبي أرطاة العامري، وما ترويه كتب التاريخ والأدب في الشعر المنسوب إلى عائشة بنت عبد الله والدة الطفيلين من شعر ليس له أساس من الصحة، حيث زعموا أنها قالت:

ها من أحسن بابني اللذين هما	كالدترتين تشظي عنهما الصدف
ها من أحسن بابني اللذين هما	سمعي وعقلي فقلبي اليوم مُختطف
حدثت بسراً وما صدقت ما زعموا	من مثلهم ومن الإثم الذي اترفوا
أنحى على ودجي ابني مرهفة	مشحوة وكذاك الإثم يُقترَف

فزعموا أنها وسوست، فكانت تقف في الموسم تشد هذا الشعر، وتهيم على وجهها⁽⁴⁾. وكذلك الشعر المنسوب لعبيد الله بن العباس - ليس له أساس من الصحة، فقد ذكر المؤرخون بأنه دخل على معاوية في خلافته، وبعد حديث أنشأ عبيد الله بن عباس يقول:

يابن صخر وابن حرب تبين	من تقيسون بعبيد المطلب
من إذا رأته قريش وجهه	عظموا المرء وخزوا للركب
صاحب الفيل وساقني زمزم	ثمت الفدية رأس في العرب
وهدي آخرنا آخركم	فيه الملك لكم أجرى الحقب
إن بسراً قتل ابني وما	بين بسر وبني فهر نسب
فاقتل العبد بفرخي هاشم	إن هذا من بواء العجب
أجعل الفضة فينا ذهباً	ونضار القوم فينا كالغرب
لا يقر العين إلا قتل من	سبب القتل وللقتل سبب

(1) الاستيعاب (1/88).

(2) مسند أحمد (4/181) الحديث الصحيح.

(3) مسند أحمد (4/181) مسنده حسن.

(4) الاستيعاب (1/89).

ذاك ما ذاك ابن حرب إنه قُطِبَ الشَّرُّ وللشَّرِّ قُطِبُ⁽¹⁾
وزعموا أن معاوية رضي الله عنه رد عليه في آيات منهما:

إن بُحراً قُتِلَ ابنُك علي غير جُرم قاطعاً منك النَّسب
أنزل الله ببسر بأسه وعلى بُسر من الله الغضب
أضرب العبد علي يافوخه ضربة تذهب منه ما ذهب
في مقيل الدهر من ضعف به ليس هذا من مناف بعجب⁽²⁾

(5) قول عبيد الله: والله لهو أسخى منا وأجود، وإنما أعطيناه بعض ما نملك وجاد هو علينا وأثرنا على مهجة نفسه وولده⁽³⁾:

خرج عبيد الله بن العباس في سفر له، ومعه مولى له، حتى إذا كان في بعض الطريق رفع لهما بيت أعرابي، قال: فقال لمولاه: لو أنا مضيئا فنزلنا بهذا البيت وبتنا به؟ قال: فمضى، وكان عبيد الله رجلاً جميلاً جهوريًّا، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته: لقد نزل بنا رجل شريف، وأنزله الأعرابي، ثم إن الأعرابي، أتى امرأته فقال: هل من عشاء لضيفنا هذا؟ فقالت: لا، إلا هذه السُّومِة⁽⁴⁾ التي حياة ابنتك من لبنها. قال: لا بد من ذبحها: قالت: أفقتل ابنتك؟ قال: وإن! قال: ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول:

يا جارتني لا توقظي البُنْيَةَ إن توقظيها تنتحب عليَّ
وتنزع الشُّفرة من يديَّ⁽⁵⁾

ثم ذبح الشاة، وهياً منها طعاماً، ثم أتى به عبيد الله ومولاه، فعشاهما وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما، فلما أصبح عبيد الله قال لمولاه: هل معك شيء؟ قال: نعم، خمسمائة دينار فضلت من نفقتنا. قال: ادفعها إلى الأعرابي. قال: سبحان الله! أتعطيه خمسمائة دينار وإنما ذبح لك شاة ثمنها خمسة دراهم؟ قال: ويحك! والله لهو أسخى منا وأجود، إنما أعطيناه بعض ما نملك، وجاد هو علينا وأثرنا على مهجة نفسه وولده. قال: فبلغ ذلك معاوية، فقال: لله درُّ عبيد الله! من أي بيضة خرج؟ ومن أي عش درج⁽⁶⁾؟ وجاء في رواية: عبيد الله معلم الجود، وهو والله كما قال الحطيئة:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

(1) تاريخ دمشق (39/354، 355).

(2) تاريخ دمشق (39/355).

(3) أسد الغابة (3/543).

(4) السومة: تصغير سائمة.

(5) أسد الغابة (3/543).

(6) أسد الغابة (3/543).

وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها وإن أنعموا لا كذروها ولا كذوا⁽¹⁾

6) بين عبد الله بن جعفر والحسن بن علي وعبيد الله بن العباس رضي الله عنهم :

قال أبو الزناد: قيل: أي هؤلاء الثلاثة أسخى: عبد الله بن جعفر، أو الحسن بن علي، أو عبيد الله بن العباس؟ فقال: ما رأينا أحداً أعطى الجزيل من الحسن، وما رأينا أحداً أعطى الجزيل وغير الجزيل من عبد الله بن جعفر، وما مررنا بأبيات عبيد الله بن العباس في ساعة قط إلا رأينا عنده قوتاً رطباً، قال: وكان ينحر كل يوم جزوراً في مجزرته وبه سميت مجزرة ابن عباس، قال: فقلت الجزر حتى بلغت خمسة عشر ديناراً وعشرين ديناراً، فعاتبه عبد الله بن جعفر على ذلك وقال: لا يقوم لهذا مال، فقال: والله لا أدع ذلك أبداً⁽²⁾.

7) ضيوف جاؤوا لبيت عيد الله بدون موعد:

أراد رجل بالمدينة أن يسوء عيد الله بن العباس بن عبد المطلب، ويضار به، فجعل يأتي وجوه أهل المدينة فيقول: قال لكم عيد الله بن العباس: تغفوا عندي، فجاء الناس حتى ملأوا عليه الدار، وعبيد الله غافل، فقال: ما شأن الناس؟ قال: جاءهم رسولك أن يتغفوا عنك، فعمل ما أريد به، فأمر بالباب فأغلق، وأرسل إلى السوق في أنواع الفاكهة، وذكر الأترج⁽³⁾، والعسل والموز فشغلهم، وأمر بالأطعمة فطبخت وشويت فلم يفرغوا من الفاكهة حتى أتوا بالطعام حتى صدروا عنه. فقال عيد الله: أوجود هذا كلما شئت؟ فقالوا: نعم، قال: ما أبالي من أتاني⁽⁴⁾.

8) امرأة أصيبت في بيتها:

قدمت امرأة إلى البصرة في سنة شهباء ومعها ابنان لها، فلم يأت عليها الحول حتى دفنتهما فقعدت بين قبريهما فقالت:

فله عيناى اللذان نراهما قريبين مني والمزار بعيد
 هما تركا عيني لا ماء فيهما وشكنا سواد القلب، فهو عميد
 مقيمان بالبدياء لا يبرحانها ولا يسألان الركب: أين يريد؟

فقيل لها: لو أتيت عيد الله بن العباس فقصت عليه القصة فأتته، فقالت له: يا بن عم رسول الله ﷺ إني أصبحت لا عند قريب يحميني، ولا عند عشيرة تؤويني، وإني سألت عن

(1) تاريخ دمشق (29/360).

(2) تاريخ دمشق (39/357)، الطبقات (2/23) إسناده ضعيف.

(3) الأترج: شجر يملو، ذكي الرائحة، حامض كالليمون الكبار.

(4) تاريخ دمشق (39/357).

المرجى سببه، المأمول تائله، المعطي سائله، فأرشدت إليك، فاعمل بي واحدة من ثلاث: إما أن تقيم أودي، أو تحسن صلتي، أو تردّ بي إلى أهلي، فقال عبيد الله: كلّ يفعل بك⁽¹⁾.

(9) الجمال والفقّه والسخاء في دار العباس:

ذكر أبو العباس أحمد الطبري المكي في كتابه في تراجم آل بيت رسول الله ﷺ (ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى): . . . وكان يقال: من أراد الجمال والفقّه والسخاء فليأت دار العباس: الجمال للفضل، والفقّه لعبد الله، والسخاء لعبيد الله⁽²⁾.

(10) خيري الدنيا والآخرة في دار ابن عباس:

من أراد الدنيا والآخرة فعليه بدار العباس بن عبد المطلب:

دخل أعرابي دار العباس بن عبد المطلب وفي جانبها عبد الله بن عباس لا يرجع في شيء يُسأل عنه، وفي الجانب الآخر عبيد الله بن العباس يطعم كل من دخل، فقال الأعرابي: من أراد الدنيا والآخرة فعليه بدار العباس بن عبد المطلب، هذا يفتي ويفقه الناس، وهذا يُطعم الطعام⁽³⁾، وعن مصعب بن عبد الله، قال: قال بعض أهل العلم: كان عبد الله يوسعهم علماً، وكان عبيد الله يوسعهم طعاماً⁽⁴⁾، وكان عبيد الله يتجر⁽⁵⁾.

(11) حكيم المعضلات وتيار الفرات:

كان عبد الله بن عباس يُسمّى حكيم المعضلات، وكان عبيد الله يسمّى تيار الفرات، وكان يطعم كل يوم، فقال له أبوه: يا بُنّي ما لك تغدّي ولا تعشي؟ إذا غدّيت فعشّ، فقال عبيد الله لغلام له: يا بُنّي انحر غدوة وانحر عشية⁽⁶⁾.

(12) ما قيل في جوده من شعر:

كان معاوية يقول: إن عبيد الله بن عباس علّم قريشاً الجود، وكان عبيد الله أجود العرب وقد قال فيه شاعر من قريش:

وعلّمها عبيد الله ما لم	تكن تأتيه من شيم الكرام
وورثها مكارم ثابتات	نفس عنها بها لوم اللثام
وصيبة هاشم وبني أبيه	قُصي والهمام بن الهمام ⁽⁷⁾

(1) تاريخ دمشق (358/39).

(2) تاريخ دمشق (356/39).

(3) الإصابة (331/4).

(4) تاريخ دمشق (355/39).

(2) ذخائر العقبي، ص 394.

(4) المصدر السابق نفسه (356/39).

(6) تاريخ دمشق (356/39)، الإصابة (331/4).

(13) صيامه يوم عرفة:

عن عبد الله بن عباس: أنه دعا أخاه عبيد الله يوم عرفة إلى طعام، فقال: إني صائم. فقال: إنكم أئمة يقتدى بكم، قد رأيت رسول الله ﷺ دعا بحلاب في هذا اليوم فشرب⁽¹⁾.

(14) طلبه للعلم:

قيل لعبيد الله بن العباس: لم تطلب العلم؟ قال: إذا نشطت فهو لذتي، وإذا اغتامت فسلوتي⁽²⁾.

(15) إحسانه لعجوز وأولادها الثلاثة:

مرّ عبيد الله بن العباس بقرب عجوز لها أولاد، فأكرمتهم وأحسنت وفادتهم، فأراد عبيد الله أن يصلح من شأنهم ويحسن إليهم، فلما اجتمعوا عند عبيد الله أدناهم من مجلسه، وقال: إني لم أبعث إليكم ولا إلى أمكم لما تكرهون، قالوا: فما بعد هذا؟ قال: أحب أن أصلح من أمركم، وألتم من شعركم، قالوا: إن هذا قلّ ما يكون إلّا عن سؤال أو مكافأة لفعل قديم، قال: ما هو لشيء من ذلك، ولكن جاورتكم في هذه الليلة، وخطر بيالي أن أضع بعض مالي فيما يُحب الله ﷻ، قالوا: يا هذا، إن الذي يحب الله لا يحب لنا إن كنا في خفض من العيش، وكفاف من الرزق، فإن كنت هذا أردت فوجهه نحو من يستحقّه، وإن كنت أردت النوال مبتدئاً لم يتقدمه سؤال فمعروفك مشكور، وبرّك مقبول، فأمر لهم عبيد الله بعشرة آلاف درهم، وعشرين ناقة، وحوّل أثقاله إلى البغال والدواب، وقال: ما ظننت أن في العرب والعجم من يشبه هذه العجوز وهؤلاء الفتيان. فقالت العجوز لفتيانها: ليقل كل واحد منكم شيئاً من الشعر في هذا الشريف، ولعلّي أن أعينكم، فقال الكبير:

شهدتُ عليك بطيب الكلام وطيب الفعّال وطيب الخبر

وقال الأومط:

تبرّعت بالجرود قبل السؤال فعال كريم عظيم الخطر

وقال الأصغر:

وحنّ لمن كان ذا فغله بأن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز:

فعمرك الله من ماجد ووُقيت سوء الردى والحدرد⁽³⁾

(2) الإصابة (4/ 332)، تاريخ دمشق (39/ 364).

(1) الإصابة (4/ 331) منده صحيح.

(3) المصدر السابق نفسه.

(16) وفاته:

اختلف في تحديد سنة وفاته على عدة أقوال: قال البخاري⁽¹⁾ والفسوي⁽²⁾: مات زمن معاوية⁽³⁾، وقال خليفة⁽⁴⁾ وغيره: سنة ثمان وخمسين⁽⁵⁾، وقال أبو عبيد، وأبو حسان الزبدي: مات سنة سبع وثمانين⁽⁶⁾، وقيل: توفي أيام يزيد وهو الأكثر، وكان موته بالمدينة وقيل: باليمن والأول أصح⁽⁷⁾، ولنا في وفاة إخوة عبيد الله عبدة وذكرى لأصحاب القلوب الحية، فعبد الله بن عباس دفن بالطائف، واستشهد معبد بأفريقية، واستشهد قثم بسمرقند⁽⁸⁾ وعبد الله بالمدينة، وكلهم أبناء أب واحد وأم واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [المنان: 34].

ثالثاً: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه:

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، السيد العالم، أبو جعفر القرشي الهاشمي، الحبيشي المولد، المدني الدار، الجواد بن الجواد ذي الجناحين⁽⁹⁾، وأمه أسماء بنت عميس الخثمية أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، ولدت عبد الله بن جعفر بالحبة وهو أول من ولد لها من المسلمين⁽¹⁰⁾، وولدت هناك: محمداً وعوناً⁽¹¹⁾، ثم ولد للنجاشي بعدما ولدت أسماء ابنها عبد الله بأيام ابن، فأرسل إلى جعفر: ما سميت ابنك؟ قال: عبد الله. فسمى النجاشي ابنه عبد الله، وأخذته أسماء بنت عميس، فأرضعته حتى فطمته بلبن عبد الله بن جعفر، ونزلت أسماء بذلك عندهم منزلة، فكان من أسلم من الحبة يأتي أسماء بعد فيخبرها خبرهم⁽¹²⁾، وقد تزوجت أسماء بعد استشهاد جعفر، أبا بكر الصديق، فولدت محمداً، ثم تزوجها علي فولدت له يحيى⁽¹³⁾، فيكون عبد الله بن جعفر أخو محمد بن أبي بكر الصديق، ويحيى بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأمه⁽¹⁴⁾، ويعتبر عبد الله بن جعفر آخر من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم قبل وفاته⁽¹⁵⁾.

(1) البخاري في تاريخه الصغير، ص 73. (2) المعركة والتاريخ (322/3).

(3) تاريخ الإسلام، حوادث سنة 81 - 100هـ، ص 147.

(4) في تاريخه، ص 225.

(5) تاريخ الإسلام، حوادث سنة 81 - 100هـ، ص 147.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 147. (7) أسد الغابة (544/3).

(8) تاريخ دمشق (350/39). (9) سير أعلام النبلاء (456/3).

(10) الإصابة (36/4). (11) الطبقات، للشمي (7/2).

(12) الطبقات، للشمي (7/2). (13) الإصابة (37/4).

(14) أسد الغابة (199/3). (15) البداية والنهاية (300/12).

(1) أولاده وأزواجه:

ولد لعبد الله بن جعفر: جعفر الأكبر وبه كان يكنى، وأمه الأمية وتكنى أم عمرو بنت خراش العبية⁽¹⁾، وعلي وعون الأكبر، ومحمد وعباس، وأم كلثوم وأمهم زينب بنت علي بن أبي طالب، وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ⁽²⁾، وحسين ذريح، وعون وعون الأصغر قتل مع الحسين ابن علي لا بقية له⁽³⁾، وأمهما جمانة بنت الصيب بن نجبة بن ربيعة بن عوف من بني فزارة⁽⁴⁾، وأبو بكر وعبيد الله، ومحمد، وأمهم الخوصاء بنت خصفة بن ثقف بن عابدين بن عدي بن الحارث بن تميم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل⁽⁵⁾ وصالح لا بقية له. ويحيى وهارون لا بقية لهما، وموسى لا بقية له وجعفر وأم أبيها وأم محمد، وأمهم ليلى بنت مسعود بن خالد، وحמיד والحسن لأم ولد، وجعفر، وأبو سعيد، وأمهما أم الحسن بنت كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة⁽⁶⁾، ومعاوية وإسحاق وقثم لا بقية له، وأم عون لأمهات أولاد شتى⁽⁷⁾.

(2) مجيء جعفر بن أبي طالب بأسرته من الحبشة إلى المدينة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، ومعه زوجته أسماء وأولاده عبد الله، وعون ومحمد، وفرح لقدمه رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل في طلبهم من النجاشي: عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدمهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدمه أبو موسى الأشعري ومن بصحبته من الأشعريين، فمن أبي موسى الأشعري⁽⁸⁾ قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة، فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر⁽⁸⁾.

(3) لكم أنتم أهل السفينة هجرتان:

فمن أبي موسى: ... كان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر - فدخل

(1) الطبقات الكبرى (6/2) تحقيق السلمي.

(2) المصدر السابق نفسه (6/2).

(3) المصدر السابق نفسه (6/2).

(4) المصدر السابق نفسه (6/2).

(5) المصدر السابق نفسه (6/2).

(6) المصدر السابق نفسه (6/2).

(7) المصدر السابق نفسه (6/2).

(8) البخاري، كتاب: المغازي، رقم: 4230، 4231، معين السيرة، ص 253.

عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء: ابنة عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعمم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله، وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاءت النبي ﷺ قالت: كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان»⁽¹⁾، فأخذت أسماء والدة عبد الله بن جعفر هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا⁽²⁾، كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي ﷺ⁽³⁾، وقد أشركهم النبي ﷺ مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة ﷺ الذين شاركوا في فتحها⁽⁴⁾.

(4) استشهاد جعفر بن أبي طالب في مؤتة:

عن يحيى بن أبي يعلى، قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول: أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمي فنعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، وعيناه تُهراقان الدموع حتى تقطر لحيته، ثم قال: «اللهم إن جعفرأ قد قدم إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته»، ثم قال: «يا أسماء: ألا أبشرك؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمي، قال: «إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة». قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فأعلم الناس بذلك، فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدي يمسح رأسي حتى رقا على المنبر، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلم فقال: «... ألا إن جعفرأ قد استشهد، وقد جعل له جناحان يطير بهما في الجنة». ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلني معه، وأمر بطعام فصنع لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغديتنا عنده والله غداء طيباً مباركاً، عَمَدَتْ سَلْمَى خَادِمُهُ إِلَى شَعِيرِ فُطْحَتِهِ ثُمَّ نَسَفَتْهُ⁽⁵⁾، ثم أنضجته.. فتغديت أنا وأخي معه⁽⁶⁾.

(5) لا تبكوا أخي بعد اليوم:

قال عبد الله بن جعفر: إن النبي ﷺ أتاهم بعدما أخبرهم بقتل جعفر بعد ثلاثة، فقال: «لا

(1) البخاري، كتاب: المغازي، رقم: 4231. (2) فقه السيرة، للفضبان، ص 535.

(3) مسلم رقم: 2502، 2503. (4) الصراع مع اليهود لأبي فارس (96/3).

(5) نسفت: نقت الجيد من الرديء، لسان العرب (9/328).

(6) الطبقات، تحقيق السلمي (8/2) إسناده ضعيف جداً، وله شواهد.

تَبَكُّوا أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ» ثم قال: «اتَّوْنِي بَيْنِي أَخِي»، فجيء بنا كأننا أفرخ، فقال: «ادعوا لي الحلاق» فأمره فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبّه عمَّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأما عبد الله؛ فشبّه خَلْقِي وَخُلُقِي»، ثم أخذ بيدي، فأشالها. ثم قال: «اللَّهُمَّ اخْلِفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَتِهِ» قال: فجاءت أُمَّنَا، فذَكَرْتُ يَمَّنَا. فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟»⁽¹⁾. معنى العيلة: الفقر.

(6) حمل النبي ﷺ له على دابته:

عن عبد الله بن جعفر قال: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تُلِّقِي بِالصَّيَّانِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُقِيَ بِي إِلَيْهِ قَالَ: فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ - إِمَّا حَسَنًا وَإِمَّا حُسَيْنًا - فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ. قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عَلَى الدَّابَّةِ⁽²⁾.

(7) دعاء النبي ﷺ له:

عن عمرو بن حريث: أن رسول الله ﷺ مرَّ بَعْدَ اللَّهِ بِبَنِي جَعْفَرٍ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامَانِ أَوْ الصَّيَّانِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي بَيْعَتِهِ أَوْ فِي صَفْقَتِهِ»⁽³⁾، وعن عبد الله بن جعفر: أن رسول الله ﷺ مسح على رأسه ثلاثاً كلما مسح قال: «اللَّهُمَّ اخْلِفْ جَعْفَرًا فِي وَلَدِهِ»⁽⁴⁾.

(8) ذكر بيعته للنبي ﷺ:

عن هشام بن عروة عن أبيه: عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر بايعا للنبي ﷺ وهما ابنا سبع سنين، وأن رسول الله ﷺ لما رآهما تبسّم وبسط يده فبايعهما⁽⁵⁾، والصحيح أن عبد الله ابن الزبير ولد عام الهجرة⁽⁶⁾.

(9) تفقد رسول الله ﷺ لأبناء جعفر:

قال جابر بن عبد الله: إن النبي ﷺ قال لأسماء بنت عميس: «ما شأن أجسام بني أخي ضارعة أتصيهم حاجة؟» قالت: لا، ولكن تسرع إليهم العين⁽⁷⁾، فأرقبهم؟ قال: «وبماذا؟» فَرَضْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «أَرَقِبِهِمْ»⁽⁸⁾ ومعنى ضارعة: الضارع: النحيف الضاوي الجسم.

(1) مسند أحمد (24/1) من طريق وهب بن جرير، عن أبيه بهذا الإسناد وهو قوي.

(2) مسلم رقم: 2428.

(3) سير أعلام النبلاء (3/458) مجمع الزوائد (9/286) رجالها ثقات.

(4) مسند أحمد (1/204) من طريق وهب بن جرير عن أبيه بهذا الإسناد وهو قوي.

(5) المستدرک (3/566 - 567) في سننه إسماعيل بن عياش ضعيف عن غير أهل بلده.

(6) الإصابة (4/38).

(7) ما يصيب المرء إذا نظر إليه عدو أو حمود، فأثرت فيه فمرض بسببها.

(8) الرقية: العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك.

(10) علمتني أسماء شيئاً أمرها رسول الله أن تقول عند الكرب:

عن عبد الله بن جعفر، قال: علمتني أمي أسماء بنت عميس شيئاً أمرها رسول الله ﷺ أن تقول عند الكرب: «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً»⁽¹⁾.

(11) شكوى الجمل لرسول الله ﷺ:

عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسر إليّ حديثاً لا أحدث به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحب ما استر به في حاجته هدفاً⁽²⁾، أو حائش⁽³⁾ نخل. - زاد يزيد بن هارون في هذا الحديث بهذا الإسناد - فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار - يعني النبي ﷺ - فإذا جمل قد أناخ فجرجر⁽⁴⁾ وذرفت عيناه، فصيح رسول الله ﷺ سرأته⁽⁵⁾، وذفراه⁽⁶⁾، فسكن، فقال رسول الله ﷺ: «من صاحب هذا الجمل؟»، فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملككها الله، إنه شكا إليّ أنك تُجبعُهُ وتُدبِيهِ»⁽⁷⁾.

هذا وكان عمره عشر سنين عند موت النبي ﷺ⁽⁸⁾ وقد ثبتت صحبه لرسول الله، وروى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عن أمه أسماء بنت عميس، وعمه علي بن أبي طالب، وروى عنه بنوه، إسماعيل وإسحاق، ومعاوية، ومحمد بن علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وعروة ابن الزبير، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مليكة، وعبد الله ابن شداد بن الهاد، والشعبي، وعباس بن سهل بن سعد، ومورق العجلي، ومحمد بن سارة، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي رافع النهدي⁽⁹⁾.

(12) سلام ابن عمر على عبد الله بن جعفر:

قال الشعبي: كان ابن عمر إذا سلم على عبد الله بن جعفر، قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين⁽¹⁰⁾.

(1) الطبقات، تحقيق السلمي (11/2) إسناده ضعيف.

(2) الهدف: كل بناء مرتفع مشرف.

(3) الحائش: النخل الملغف المجتمع.

(4) الجرجرة: صوت البعير عند الفجر، النهاية في غريب الحديث (1/255).

(5) سرأته: أي ظهوره.

(6) وذفراه: ذفر البعير: أصل أذنيه، النهاية في غريب الحديث (1/161).

(7) تدبته: تكده وتصبه، الطبقات، تحقيق السلمي (2/13/14) إسناده صحيح.

(8) الإصابة (4/37). (9) تاريخ دمشق (29/169).

(10) سير أعلام النبلاء (3/459)، أخرجه البخاري (62/7).

أبا جعفر ضنّ الأمير بما له وأنت على ما في يديك أمير
أبا جعفر يا بن الشهيد الذي له جناحان في أعلى الجنان يطير
أبا جعفر ما مثلك اليوم أرتجي فلا تشركني بالفضلة أدور⁽¹⁾

فقال: يا أعرابي سار الثقل، فعليك الراحة بما عليها، وإياك أن تُخدع عن السيف، فإني أخذته بألف دينار⁽²⁾.

2 - وهل أعطيتاه إلا ما يبلى ويفنى وأعطانا مدحاً يُرَوَى وثناء يبقى:

مدحه «نصيب» أحد الشعراء، فأعطاه إيلاً وخيلاً وثياباً وذنائب ودراهم، فقيل له: تُعطي لهذا الأسود مثل هذا؟ فقال: إن كان أسود فشعره أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيتاه إلا ما يبلى ويفنى، وأعطانا مدحاً يروى وثناء يبقى، وقد قيل: إن هذا الخبر إنما جرى لعبد الله بن جعفر مع عبيد الله بن قيس الرقيات⁽³⁾ ومن شعره في عبد الله بن جعفر *تَبَيَّنَا*:
وما كنت إلا كالأغر بن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكراً⁽⁴⁾

ومن شعره أيضاً في عبد الله بن جعفر:

نفدت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلاً ونهارها
يسزور امرأً قد يعلم الله أنه تجود له كفّ قليل غرارها
فوالله لولا أن تزور ابن جعفر لكان قليلاً في دمشق قرارها
أتيتك أنسي بالذي أنت أهله عليك كما أثنى على الروض جازها
ذكرتك إذا فاض الفرات بأرضنا وجلّ أعلال الزقّتين بحارها
فإن مث لم يوصل صديق ولم تقم طريق من المعروف أنت منارها⁽⁵⁾

وقال مصعب بن عبد الله: قال عبد الملك بن مروان: أي ويحك يا ابن قيس أما اتقيت

حين تقول في ابن جعفر:

أنت رجلاً قد يعلم الله أنه يجود له كفّ قليل غرارها

ألا قلت قد يعلم الناس، ولم تقل: قد يعلم الله، قال له ابن قيس: قد والله علمه الله

وعلمته، وعلمه الناس⁽⁶⁾.

(1) تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات (61 - 80) ص 31.

(2) سير أعلام (3/459).

(3) الاستيعاب (3/882) وقد ذكر أن اسمه عبد الله.

(4) الإصابة (4/38).

(5) المصدر السابق نفسه (4/38).

(6) تاريخ دمشق (29/185).

وقال الشماخ بن ضرار يمدح عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
وَرَبُّ ضَيْفِ طَرِيقِ الْحَيِّ سُرَى صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى⁽¹⁾

وجاء أعرابيٌّ إلى عبد الله بن جعفر وهو محموم، فأنشأ يقول:

كم لوعةٍ للندى وكم قلق للجود والمكرمات من قلقك
ألمسك الله منه عافيةً في نومك المعترى وفي أرقك
أخرج من جسمك الشقام كما أخرج ذمّ الفعّال من عنقك
فأمر له بمائة ألف دينار⁽²⁾.

وذاث يوم كان عبد الله بن جعفر في سفر له فمرّ بفتيان يوقدون تحت قدر لهم فقام إليه أحدهم فقال:

أقول له حين الفينة عليك السلام أبا جعفر
فوقف وقال: عليك السلام ورحمة الله، فقال:

وهذي ثيابي قد أخلقت وقد عثني زمن منكر
قال: فهذي ثيابي مكانها - وعليه جبة خز - ونعيتك على زمك، فقال:

فأنت كريم بنسي هاشم وفي البيت منها الذي يذكر
قال: يا بن أخي، ذاك رسول الله ﷺ⁽³⁾.

وكتب رجل إلى عبد الله بن جعفر رقعة فجعلها في ثني الوسادة التي يتكئ عليها، فقلب عبد الله الوسادة، فنظر بالرقعة، فقرأها فردها في موضعها، وجعل مكانها كيساً فيه خمسة آلاف دينار فجاء الرجل فدخل عليه، فقال: اقلب المرفقة فانظر ما تحتها فخذها، فأخذ الرجل الكيس وخرج وأنشأ يقول:

زاد معروفك عندي عظماً أنه عندك مستور حقير
تناساه كأنه لم تأته وهو عند الله مشهور كبير⁽⁴⁾

3 - ديون الزبير بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر:

أسلف عبد الله بن جعفر الزبير ألف ألف درهم، فلما توفي قال ابن الزبير لعبد الله بن

(2) تاريخ دمشق (29/194).

(1) الإصابة (4/39).

(4) المصدر السابق نفسه (29/189).

(3) المصدر السابق نفسه (29/199).

جعفر: إني وجدت في كتب أبي أنّ له عليك ألف ألف درهم، قال: هو صادق، فاقبضها إذا شئت، ثم لقيه بعد فقال: إنما وهمت عليك، المال لك عليه، قال: فهو له، قال: لا أريد ذلك⁽¹⁾. قال الذهبي: هذه الحكاية من أبلغ ما بلغنا في الجود⁽²⁾.

وجاء في رواية ابن عساكر عندما قال عبد الله بن الزبير لعبد الله بن جعفر: لا أريد ذلك، قال ابن جعفر: فاختر إن شئت فهو له، وإن كرهت ذلك فلك فيه نظرة ما شئت، فإن لم تُرد ذلك فبعني من ماله ما شئت، قال: أبيعك، ولكنني أقوم، فقوم الأموال ثم أتاه فقال: أحب أن لا يحضرني وإيّاك أحد، فقال له ابن جعفر: يحضرنا الحسن والحسين فيشهدان لك، قال: ما أحب أن يحضرنا أحد. قال: انطلق فمضى معه، فأعطاه خراباً وسباخاً لا عمارة له، وقومه عليه حتى إذا فرغ قال عبد الله لغلامه: ألقي لي في هذا الموضع مصلى، فألقى له في أغلظ موضع من تلك المواضع مصلى، فصلّى ركعتين وسجد، فأطال السجود يدعو، فلما قضى ما أراد من الدعاء قال لغلامه: احفر في موضع سجد، فحفر، فإذا عين، فملاً تبطنها فقال له ابن الزبير: أقلني، قال: أما دعائي وإجابة الله إياي فلا أقيلك، فصار ما أخذ منه أعمر مما في يدي ابن الزبير⁽³⁾.

4 - لئن والله وُعدنا نعيم الآخرة، فقد عجلت نعيم الدنيا⁽⁴⁾:

عن محمد بن عبيد الله بن أبي مليكة، عن أبيه، عن جده، قال: دخل ابن عمار - وهو يومئذ فقيه أهل الحجاز - على نخاس يعترض منه جارية، فعرض عليه جارية بأكثر مما كان معه من الثمن، وكانت حسنة الوجه جداً، فعلق بها، وأخذته أمر عظيم، ورآه النخاس فتباعد عليه في الثمن، واستهتير بذكرها فمشى إليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذبونه، فكان جوابه أن قال:

يلومني فيك أقوام أجالسهم فما أبالي أطار السوم أم وقعا

قال: فبلغ خبره عبد الله بن جعفر، فبعث إلى مولى الجارية، فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيمة جواريه أن تزينها وتحليها ففعلت، وقدم المدينة، فجاءه الناس يسلمون عليه، وجاءه جلة أهل الحجاز فقال: ما لي لا أرى ابن أبي عمار زائراً؟ فأخبر الشيخ، فأتاه، فلما أراد أن ينهض استجلسه فقال له ابن جعفر: ما فعل حبك فلانة؟ قال: في اللحم والدّم والمُخّ والمصّب والعظم، فقال له: أتعرفها إن رأيتها؟ قال: جعلت فداك، هي مصورة في

(1) تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات (80/61)، ص 431.

(2) المصدر السابق نفسه. (3) تاريخ دمشق (187/29).

(4) سير أعلام النبلاء (3/461).

نُصِبَ عيني عند كل خطرة وفكرة، قال: والله ما نظرت إليها منذ ملكتها، يا جارية أخرجيها، فأخرجت ترفل في الخُلي والحلل فقال: هي هذه؟ فأنشأ يقول:

هي التي هام قلبي من تذكرها والنفس مشغولة أيضاً بذكرها

قال: فشأنك بها، فخذها، فبارك الله لك فيها، قال: جعلت فداك، لقد تفضلت بشيء ما كان يتفضل به إلا الله، - فلما ولّى بها قال: يا غلام احمل معها مائة ألف درهم، كي لا يهتّم بها، ولا تغتم به، فبكى ابن عمّار - سروراً، ثم قال: ﴿اللَّهُ أَهْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ والله جعلت فداك، لئن كان الله وعدنا نعيم الآخرة، لقد عَجَلت نعيم الدنيا⁽¹⁾.

5 - ما غلبنا بالسخاء إلا الشيخ العُدري:

عن بُديع مولى عبد الله بن جعفر قال: خرجت مع عبد الله بن جعفر في بعض أسفاره، فنزلنا إلى جانب خباء من شِعْر قال: وإذا صاحب الخباء رجل من بني عذرة، قال: فيينا نحن كذلك، إذا نحن بأعرابي قد أبّل يسوق ناقة حتى وقفت علينا ثم قال: أي قوم ابغوني شفرة فناولناه الشفرة، فوجأ في لُبّتها وقال: شأنكم بها، قال: وأقمنا اليوم الثاني، وإذا نحن بالشيخ العُدري، يسوق ناقة أخرى، فقال: أي قوم ابغوني شفرة، قال: فقلنا: إنّ عندنا من اللحم، قال: فقال أبحضرتي تأكلون الغاب؟⁽²⁾، ناولني الشفرة، فوجأ في لُبّتها، ثم قال: شأنكم بها، وبقينا اليوم الثالث، فإذا نحن بالعُدري يسوق أخرى حتى وقف علينا، فقال: أي قوم ابغوني شفرة، قال: فقلنا: إن معنا من اللحم ما ترى، قال: أبحضرتي تأكلون الغاب؟ إني لأحسبكم قوماً لثاماً، ناولوني الشفرة، فوجأ في لُبّتها ثم قال: شأنكم بها، قال: وأخذنا في الرحيل، فقال ابن جعفر لمولى: ما معك؟ قال: رزمة ثياب وأربع مائة دينار، قال: اذهب بها إلى الشيخ العُدري، قال: فذهب بها، فإذا جارية في الخباء، فقال: يا هذه خذي هدية ابن جعفر، قالت: إنا قوم لا نقبل على قرى⁽³⁾ أجرأ، قال: فجاء إلى ابن جعفر، فأخبره، فقال: عُد إليها فإن هي قبلت وإلا فأرم بها على باب الخيمة فعادوها فقالت: اذهب عنا بارك الله فيك، فإننا قوم لا نقبل على قرانا أجرأ، فوالله لئن جاء شيخي فرأك هاهنا لتلقين منه أذى، قال: فرمى بالرزمة والضرة على باب الخباء ثم ارتحلنا فما سيرنا إلا قليلاً حتى إذا نحن بشخص يرفعه السراب مرة ويضعه أخرى، فلما دنا منا إذا نحن بالشيخ العُدري ومعه الصرة والرزمة، فرمى بذلك إلينا ثم ولّى مدبراً، فجعلنا ننظر في قفاه هل يلتفت فبهيات قال: فكان ابن جعفر يقول: ما غلبنا بالسخاء إلا الشيخ العُدري⁽⁴⁾.

(1) تاريخ دمشق (195/29).

(2) أغب اللحم: أنتن كغبت، وأغب القوم: جاهم يوماً وترك يوماً كغبت عنهم.

(3) قرى: ضياقة. (4) تاريخ دمشق (190/29).

6 - ما سمعت بأعجب من هذا:

خرج عبد الله بن جعفر حاجاً، حتى إذا كان ببعض الطريق تقدم ثقله على راحلة له، فانتهى إلى أعرابية جالسة على باب الخيمة، فنزل عن راحلته ينتظر أصحابه، فلما رآته قد نزل، قامت إليه، فقالت: إليّ برك الله مساكن الأبرار، قال: فأعجب بمنطقها، فتحول إلى باب الخيمة، فألقت إليه وسادة من آدم، فجلس عليها، ثم قامت على عُنْبِزَة لها في كسر الخيمة، فما شعر حتى قدمت منها عضواً فجعل ينهش، وأقبل أصحابه فلما رأوه نزلوا، فأتتهم بالذي بقي عندها من العنز، فطعموا وأخرجوا سقُورهم فقال عبد الله: ما بنا إلى طعامكم حاجة سائر اليوم، فلما أراد أن يرتحل دعا مولاه الذي كان يلي نفقته فقال: هل معك من نفقتنا شيء؟ قال: نعم، قال: وكم هو؟ قال: ألف دينار، قال: أعطها خمس مائة واحتبس لنفقتك باقيها قال: فدفعه إليها، فأبت أن تقبل، فلم يزل عبد الله يكلمها وهي تقول: أي والله أكره عدل بعلي⁽¹⁾، فطلب إليها عبد الله حتى قبلت فودَّعها وارتحل هو وأصحابه، فلم يلبث أن استقبله أعرابي يسوق إبلاً له، فقال عبد الله: ما أراه إلا المحذور، فلو انطلق بعضكم فعلم لنا علمه ثم لحقنا، فانطلق بعض أصحابه راجعاً متكرراً حتى نزل قريباً منه، فلما أبصرت المرأة الأعرابي مقبلاً قامت إليه تَفْدَاهُ وتقول: بأبي أنت وأمي:

توسمته لما رأيت مهابة	عليه فقلت: المرء من آل هاشم
ولا فمن آل المرار فإنهم	ملوك ملوك من ملوك أعظم
فقممت إلى عنز بقيت أعنز	فأذبحها فعل امرئ غير نادم ⁽²⁾
يعرضني منها غناه ولم يكن	يساوي لحيم العنز خمس دراهم

فأظهرت له الدنانير، وقصت عليه القصة، فقال: بشن لعمرو الله معقل الأضياف كنت، أبعيت معروفك بما أرى من الأحجار؟ قالت: إني والله قد كرهت ذلك، وخفت العدل، قال: وهذه لم تخافي العار، وخفت العذل؟ كيف أخذ الركب؟ فأشارت إلى الطريق، قال: وهذا يعني: الرجل الذي أرسله عبد الله، فقال: أسرجي لي فرسي، قالت: تصنع ماذا؟ قال: ألحق القوم، فإن سلموا لي معروفني وإلا حاربتهم، قالت: أنشدكم الله أن تفعل فتسوءهم، فأقبل عليها ضرباً، وقال: ركنت إلى إحقاق المعروف؟ قال: وركب فرسه، وأخذ رمحه، فجعل الرجل صاحب عبد الله يسير معه ويقول له: ما أراك تدرك القوم، فقال: والله لآتينهم ولو بلغوا كذا وكذا، فلما رأى الرجل أنه غير منته قال: على رسلك، أدرك لك القوم وأخبرهم بخبرك، فتقدم الرجل، فأخبر ابن جعفر، وقص عليه القصة، فقال: عبد الله: قد كانت حذرة من

(2) تاريخ دمشق (29/192).

(1) البعل: الزوج.

المشؤوم، فقال: فرهِقَهُمْ، فسَلَّمَ عليه ابن جعفر وأخبره بحسن صنيع المرأة، فقال: والله ما رأيت ذلك بتمامه، فلم يزل يكلمه، وسأله، فأبى الأعرابي إلا رذها، فلما رأى عبد الله ذلك قال: لننظر ما عنده، ما تحب أن يرجع إلينا شيء قد أمضيناه، قال: فقام من بين يديه، فتحنى، فصلّى ركعتين ثم قام فركب فرسه، وأخرج قوسه وتبله، فقال له عبد الله: ما هاتان الركعتان؟ قال: استخرت فيها ربي ﷻ في محاربتكم، وقال: فعلى ما عزم لك من ذلك؟ قال: عزم لي عليه رشداً أو تُرجعون أحجاركم وتسلمون لنا معروفنا، فقال له عبد الله: نفعك فأمر بالدنانير فقُبِضت، فولى الأعرابي متصرفاً، فقال له عبد الله: ألا نزودك طعاماً؟ قال: الحي قريب فهل من حاجة؟ قال: نعم قال: وما هي؟ قال: المرأة تخبرها بسوء فعلك، فاستضحك الأعرابي، وولى متصرفاً، فقدم عبد الله بن جعفر بعد ذلك على يزيد بن معاوية، فحدثه حديث الأعرابي، فقال يزيد: ما سمعت بأعجب من هذا⁽¹⁾.

7 - إن الله لا يحب المسرفين:

جاءت امرأة إلى عبد الله بن جعفر بدجاجة مسموطة في مِكتَلٍ فقالت: بأبي أنت، هذه الدجاجة كانت مثل بنتي أكل من بيضها وتؤنسي، فأليت أن لا أدفنها إلا في أكرم موضع أقدر عليه، ولا والله ما في الأرض موضع أكرم من بطنك، قال: خذوها منها، واحملوا إليها من الحنطة كذا، ومن التمر كذا، وأعطوها من الدراهم كذا، فعندئذ شيئاً، فلما رأت ذاك قالت: بأبي، إن الله لا يحب المسرفين⁽²⁾.

8 - كساد سلعة مجلوبة إلى سوق المدينة:

جلب رجل من أهل البصرة سكرأ إلى المدينة، فكسد عليه، فذكر لعبد الله، فأمر قهرمانه⁽³⁾ أن يشتريه فيدعو الناس فينهبهم⁽⁴⁾ إياه⁽⁵⁾، وفي رواية قالوا للرجل: انت عبد الله بن جعفر، فأناه فاشتراه منه بده داورده، وقال: من شاء أخذ، فقال الرجل: آخذ معهم؟ قال: خذ⁽⁶⁾.

9 - إتقاه مالا وصله من يزيد بن معاوية:

وجّه يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر مالا جليلاً هدية، ففرقه في أهل المدينة، ولم يدخل منزله منه شيئاً، وفي ذلك يقول عبيد بن قيس الرقيات:

(1) تاريخ دمشق (193/29).

(2) تاريخ الإسلام (80/61)، ص 431 - 432.

(3) القهرمان: كلمة فارسية وهو كالخازن والحافظ لما تحت يده.

(4) ينهبهم إياه: أي يعطيه لهم نُهبٍ بدون ثمن.

(5) الطبقات، للسلمي (19/2).

(6) تاريخ دمشق (193/29).

وما كنت إلا كالأغر بن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكراً⁽¹⁾
وعندما وفد عبد الله بن جعفر على يزيد، أمر له بألفي ألف⁽²⁾ وعلق الذهب فقال: ما ذاك
بكثير، جائزة ملك الدنيا لمن هو أولى بالخلافة منه⁽³⁾.

10 - دعاء أعرابي لعبد الله بن جعفر عليه السلام :

قال أعرابي لعبد الله بن جعفر: لا ابتلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم الله عليك
نعمة يعجز عنها شكرك⁽⁴⁾.

11 - ذاك مالي جدت به :

رُئي عبد الله بن جعفر (يماكس) في درهم، فقيل له: تماكس في درهم وأنت تجود من
المال بكذا أو كذا؟ فقال: ذاك مالي جُدْتُ به، وهذا عقلي بخلت به⁽⁵⁾.

12 - هذا رجل أراد أن ييخل الناس، أمطر المعروف مطراً:

ذكر بعض أهل العلم، أن عبد الله بن جعفر عليه السلام أنشد:

إن الصنبيعة لا تكون ضيعةً حتى يُصاب بها طريق المقنع

فقال محمد بن عبد الله المهراني: هذا رجل أراد أن ييخل الناس، أمطر المعروف مطراً،
فإن صادفت موضعاً فذاك ما أردت، وإلا رجع إليك⁽⁶⁾.

13 - إنما الجواد الذي يبدي المعروف:

قال عبد الله بن جعفر ذي الجناحين: ليس الجواد الذي يعطي بعد المسألة، لأن الذي يبذل
السائل من وجهه وكلامه أفضل مما يبذل من نائله، وإنما الجواد الذي يبدي المعروف⁽⁷⁾.

14 - إنا لا نأخذ على المعروف ثمناً:

يروى أن دُعقَاناً من أهل السواد كلّم ابن جعفر في أن يكلم أمير المؤمنين علياً في حاجة،
فكلّمه فيها، فقضاها له فبعث إليه الدّعقان أربعين ألفاً، فقالوا: أرسل الدّعقان الذي كلّم
له، فقال للرسول: قل له: إنا أهل بيت لا نبيع المعروف⁽⁸⁾، وفي رواية: .. إنا لا نأخذ على
المعروف ثمناً⁽⁹⁾.

- (1) الإصابة (38/4).
(2) سير أعلام النبلاء (457/3).
(3) المصدر السابق نفسه (457/3).
(4) تاريخ دمشق (201/29).
(5) تاريخ دمشق (201/29) والمماكسة: محاولة تنزيل السعر من البائع.
(6) المصدر السابق نفسه (201/29).
(7) المصدر السابق نفسه (200/29).
(8) تاريخ دمشق (186/29).
(9) المصدر السابق نفسه (187/29).

15 - هو والناس في ماله شركاء:

قيل لمعاوية بن عبد الله بن جعفر: ما بلغ من كرم عبد الله بن جعفر؟ قال: كان ليس له ما دون الناس، هو والناس في ماله شركاء، كان من سأله أعطاه، ومن استتمحه شيئاً منحه، لا يرى أنه يقتصر فيقتصر، ولا يرى أنه يحتاج فيدخر⁽¹⁾.

خامساً: من أخبار عبد الله بن جعفر مع معاوية:

كان عبد الله بن جعفر يفد على معاوية، وعلى عبد الملك، وكان كبير الشأن كريماً، جواداً، يصلح للإمامة⁽²⁾، وكانت علاقته بمعاوية متميزة وقوية، حتى أنه سقى أحد أولاده بمعاوية.

وعن أبان بن تغلب، قال: ذكر لنا أن عبد الله بن جعفر قدم على معاوية وكانت له وفادة في كل سنة، يُعطيه ألف ألف درهم، ويقضي له منه حاجة⁽³⁾، وقد ذكرت كتب الأدب والتاريخ روايات بين معاوية وابن جعفر لا تثبت ولا تصح وهي كثيرة:

منها: ما قال يحيى بن سعيد بن دينار: بينما عبد الله بن جعفر ذات ليلة عند معاوية بالخضراء⁽⁴⁾ بدمشق، إذ ورد على معاوية كتاب عمّه من حسين بن علي، فضرب به الأرض، ثم قال: من يعذرني من ابن أبي تراب، والله لهما أن أفعل به وأفعل. قال: فجعل عبد الله ابن جعفر يجيبه بنحو مما يشتهي ويداريه حتى قام، فأنصرف، قال: وكانت بينهما خوخة، فلما صار على منزله دعا برواحله فقعدها عليها وخرج من ساعته متوجهاً إلى المدينة قال: ودخل معاوية على امرأته⁽⁵⁾ بنت قرظة متعمّاً فقال: ماذا صنعت الليلة بابن جعفر، فحشت عليه وأسمعت في ابن عمه ما يكره، وحال ابن جعفر حاله ووجه لنا ومودته إيانا. فقالت: بشس والله ما صنعت ما أقبح ما أتيت إليه؛ فبات ليلته مغتماً يتذكر صنيعه به ولا يأخذه النوم حتى أسحر، فقام فتوضأ وقال: والله لا يتبّه من فراشه غيري، فمشى إليه، فدخل فإذا ليس فيه أحد فسأل عنه فقيل له: رحل إلى المدينة ساعة من عندك، فبعث في إثره، وقال: أدركوه فردوه ولو دخل منزله، فلحقوه فردوه إليه، فجعل معاوية يعتذر إليه منه تلك الليلة، وقال: قد أقطعك ووهبت لك كل شيء⁽⁶⁾ مررت به في مسيرك، قال: وقد كان مرّاً بابل وغنم كثيرة لمعاوية فأمر بها فقبضها وذهب ما كان في نفسه⁽⁷⁾. هذا الخبر لا يصح لأن إسناده ضعيف منقطع، فيحیی بن

(1) تاريخ دمشق (198/29).

(2) سير أعلام النبلاء (458/3).

(3) المصدر السابق نفسه (459/3).

(4) قصر معاوية بدمشق.

(5) هي فاختة بنت قرظة بنت عمرو بن نوفل بن عبد مناف.

(6) المراد: كل شيء تملكه.

(7) الطبقات (19/2، 20) تحقيق السليبي، إسناده ضعيف منقطع.

سعید بن دینار السعدي، شيخ للواقدي، مجهول⁽¹⁾، فهذا الأثر على سبيل المثال لا الحصر. وتذكر كتب التاريخ والأدب مساجلات شعرية بين معاوية وعبد الله بن جعفر: منها: عن يونس بن ميسرة بن حلبس يقول: بلغ معاوية أن عبد الله بن جعفر أصابه خفقٌ وجهد هذا أو نحوه، فكتب إليه بيتين من شعر:

لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من المسئوع
يسد به نوائب معتريه من الأيام كالشهر الشروع

وكتب إليه يأمره بالقصد ويرغبه فيه وينهاه عن السفر ويعيه عليه، قال: فأجابه عبد الله بن جعفر:

سلي الطارق المعتري يا أم خالد إذا ما أتاني بين ناري ومخزري
أأسط وجهي أنه أول القيرى وأبذل معروفني بهم دون منكري
وقد أشتري عرضي بمالي وما عسى أخوك إذا ما ضيغ العرض يشتري
يؤدي إلي الليل إتيان ما جدي كريم ومالي سارح مال مقتر

فأعجب معاوية ما كتب إليه، وبعث بأربعين ألف دينار عوناً له على دينه⁽²⁾.

سادساً: ابن جعفر وسماع الغناء:

نسبت كثير من كتب التاريخ والأدب إلى عبد الله بن جعفر سماعه للغناء، وانشغاله بالجواري وهذا لا يصح، ولا يثبت، وإنما جاءت روايات ضعيفة، فقد ذكر ابن عساكر رواية مطولة، عن جماعة من مشايخ قریش من أهل المدينة قالوا، وذكر فيها قصة المغنية عمارة، وأنه كان يجد بها جداً شديداً⁽³⁾، وذكر ابن كثير القصة بصيغة قيل⁽⁴⁾، وقال أبو عمر بن عبد البر: ويقال... وكان لا يرى بسماع الغناء بأساً⁽⁵⁾، وأما الذهبي فلم يذكر في تقريره أي إسناد يعتمد عليه⁽⁶⁾، فهذه أقوال لا سنام لها ولا خطام، وبعضها مشكوك في أصله، وعليه لا يمكثي التسليم بأن عبد الله بن جعفر كان يستمع لغناء الجواري وكان له معهن قصص من الحب والغرام، كما تزعم الروايات.

(1) الطبقات (19/2).

(2) تاريخ دمشق (200/29).

(3) تاريخ دمشق (195/29).

(4) البداية والنهاية (301/12).

(5) الاستيعاب (681/3).

(6) سير أعلام النبلاء (462/3).

سابعاً: وفاته:

توفي عبد الله بن جعفر سنة ثمانين، وهو عام الجُحَاف⁽¹⁾ نسبة إلى السيل الجحاف بمكة، لأنه جحف على كل شيء مرّ به، وحمل الحجاج من بطن مكة والجمال بما عليها، والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن يتقدّم منه، وبلغ الماء إلى الحجون⁽²⁾، وغرق خلق كثير وقيل: إنّه ارتفع حتى كاد أن يُغطي البيت⁽³⁾، وقيل: إنه توفي سنة أربع أو خمس وثمانين، وهو ابن ثمانين سنة، ورجع ابن عبد البر وفاته عام 80هـ، وصلى عليه أبان بن عثمان وهو يومئذ أمير المدينة⁽⁴⁾، في عهد عبد الملك بن مروان، وقد وضع على قبره بيتين من الشعر جاء فيها:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لساؤك لأُرجى وأنت قريب
تزيد بلى في كل يوم وليلة وتُنسى كما تُبلى وأنت حبيب⁽⁵⁾

المبحث الرابع

صلح الحسن بن علي مع معاوية

بويع الحسن رضي الله عنه بيعة عامة، وبايعه الأمراء الذين كانوا مع والده، وكل الناس الذين بايعوا لأمر المؤمنين علي رضي الله عنه، وبأشر سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مائة مائة فاكتسب بذلك رضاهم⁽⁶⁾، وكان في وسعه أن يخوض حرباً لا هوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية السياسية والعسكرية والأخلاقية والدينية تساعد على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عباد، وحاتم بن عدي الطائي وغيرهم من قادة المسلمين الذي لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير، إلا أن الحسن بن علي مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، ورغبة فيما عند الله وزهده في الملك، وغير ذلك من الأسباب التي سيأتي بيانها وتفصيلها.

وقد قاد الحسن بن علي مشروع الإصلاح الذي توجّح بوحدة الأمة، وظل زمام الموقف في جانبه ويده ويد أنصاره، وكانت جبهته العسكرية قوية كما جاء في رواية البخاري، وقد

(1) نسبة إلى سيل الجحاف، الطبقات، تحقيق السلمي (2/25).

(2) الحجون: جبل بأعلى مكة، معجم البلدان (2/215).

(3) البداية والنهاية (12/296).

(4) الاستيعاب (3/881).

(5) تاريخ دمشق (29/195).

(6) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص 67، مقاتل الطالبين، ص 55.

عبر عن ذلك عمرو بن العاص عندما قال: إني لأرى كتابي لا تولي حتى تقتل أقرانها⁽¹⁾، وقال الحسن بن علي: كانت جماجم العرب بيدي تحارب من حاربت وتسال من سالمت⁽²⁾.

ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية رضي الله عنه إلى أن يفاضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، وكان عرف ضعف جانب الحسن وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه، وتفوق جانب معاوية على الحسن لا مرء فيه، فهل صالح الحسن معاوية لهذا السبب⁽³⁾؟

قال ابن تيمية في منهاج السنة:

فقد كان بمقدور الحسن أن يقاتل معاوية بمن كان معه وإن كان أقل ممن كان مع معاوية، صنيع الذين قاتلوا خصومهم على قلة من كان معهم من الأعوان والأنصار، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح إلى السلم وكراهة الفتنة ونبد الفرقة، جعل الله به رأب الصدع، وجمع الكلمة⁽⁴⁾.

وكان رضي الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل، وبواعث، وتغلب على العوائق وكتبت فيها شروط، وترتبت عليها نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن ابن علي رضي الله عنه على مر العصور وتوالي الأزمان، حتى قال الدكتور خالد الغيث حفظه الله: كان الحسن رضوان الله عليه في صلحه مع معاوية رضي الله عنه، وحققه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في الردة⁽⁵⁾، ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعد علماً من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكر رضي الله عنه قال: رأيت رضي الله عنه على المنبر - والحسن بن علي على جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»⁽⁶⁾. إن صلح الحسن مع معاوية رضي الله عنه من الأحداث العظام في تاريخ الأمة الإسلامية.

وقد أسهم في تبوّؤ هذا الحدث لهذه المنزلة عدة أسباب منها:

1 - كونه علماً من أعلام النبوة.

(1) البخاري، كتاب: الصلح 2704.

(2) المستدرک (3/ 170)، صحيح على شرط الشيخين.

(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، بطاينة، ص 60، 61.

(4) منهاج السنة (4/ 536)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 61.

(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، خالد الغيث، ص 134.

(6) البخاري رقم: 7109.

2 - إن من ثمار هذا الصلح حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم على إمام واحد بعد سنوات من الفرقة.

3 - كون الحسن عليه السلام أول خليفة يتنازل عن منصبه ويخلع نفسه طواعية، وبدون أي ضغوط، ومن مركز قوة لا من مركز ضعف، من أجل إصلاح ذات بين المسلمين.

4 - كون الحسن عليه السلام آخر خلفاء مرحلة النبوة.

من هذه الأسباب وغيرها امتلأت كتب العقيدة والسنة والتاريخ والأدب وغيرها من المصادر بأخبار صلح الحسن مع معاوية رضي الله عنه، والقارئ لتلك المصادر - بما فيها تاريخ الطبري - يلاحظ كثرة روايات الصلح وتضاربها مع بعضها واختلاط ضعيفها بصحيحها وتشابه بعض أحداثها، يضاف إلى ذلك عدم مراعاة المصادر للترتيب الزمني لوقوع الحدث، مع أن التسلسل الزمني لمجريات الصلح يعد بالغ الأهمية لفهم الحدث ⁽¹⁾.

ولقد قام الأخ الكريم الدكتور خالد الغيث بجهد كبير في دراسة تلك المصادر واستخراج الروايات الصحيحة منها، واعتمدها في ترتيب أحداث الصلح ترتيباً زمنياً، كما استفاد من بعض الروايات الضعيفة المتوافقة مع الروايات الصحيحة - وفقاً للمنهج الذي بينه في رسالته المعروفة بـ «مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري» من أجل استكمال تفاصيل الحدث ⁽²⁾، ولقد استفدت من ذلك الجهد الرائع، والترتيب المبدع، والتسلسل الجميل لمجريات الصلح.

أولاً - أهم مراحل الصلح:

المرحلة الأولى:

دعوة الرسول ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة التي دفعت الحسن رضي الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم ⁽³⁾، فقد قال ﷺ: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ⁽⁴⁾، فلم تكن نبوءة رسول الله ﷺ عن الحسن بن علي أنه سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين مجرد إنباء يسمعه الحسن والمسلمون ويصدقونه كالنبوءات النبوية الأخرى، بل كانت الكلمة الموجهة الرائدة للحسن بن علي رضي الله عنه في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، لا بدّ أنها حلّت

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 125.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 125.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 1625.

(4) البخاري رقم: 7109.

في قرارة نفسه، واستولت على مشاعره، وامتزجت بلحمه ودمه، واعتبرها كوصية من الرسول ﷺ - وهو نبيه وجدّه - وهو يتكلم بهذه الكلمات رأى السرور في أسارير وجهه، والبريق في عينيه ﷺ، فتمسك بها كهدف من أهداف حياته، وكالمثل الأعلى له في مستقبله.

وقد ظهرت آثار هذه النبوءة في جميع حركاته وسكناته، حتى في الحديث مع والده الكبير الذي يحبه حبّ الأبناء البررة للأباء العظام الذين خصهم الله بمواهب ومناقب، قلما يشاركونهم فيها أفراد الأمة، وكان من أعرف الناس بها بحكم النبوة والصحة، ويجلّه إجلال العارفين والمعجبين، وقد أشار على أبيه علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان أن يعتزل الناس إلى حيث شاء من الأرض حتى تثوب إلى العرب عوازب أحلامها، وقال له: لو كنت في جحر ضب لاستخرجوك منها فبايعوك دون أن تعرض نفسك لهم، ولما عزم عليّ على قتال أهل الشام، وعزم على التجهز، وخرج من المدينة وهو عازم على أن يقاتل بمن أطاعه من عصبة، جاء إليه الحسن بن علي وقال: يا أبت دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين ووقوع الاختلاف بينهم⁽¹⁾.

ولكنّ علياً لم يقبل ما أشار به الحسن ولم يكن ليترك الناس في فتنه دون أن يؤدي ما يدين الله به من أمر معروف ونهي عن منكر، وردّ الأمر إلى نصابه، والحق إلى أصحابه ولكلّ وجهة هو موليها⁽²⁾ وكان علي رضي الله عنه مصيباً في رأيه، وقد ظهرت المعجزة النبوية، وبلغت ذروتها بتريية الحسن بن علي التريية الإسلامية الربانية، من كون هذا الإمام الفذّ سيداً جليلاً.

وليست السيادة بالقهر وسفك الدماء، أو إهدار الأموال والحرمان، بل السيادة بصيانتها وإزالة البغضاء والشحناء، فصلحه وحقنه لدماء الصلّمين بلغ فيه ذروة السيادة، التي لا يستطيعها من فكر بالقوة وهو يملك طرفاً منها، وقد صالح الحسن معاوية وحوله الألوف فيهم من هو طامع مدسوس، ولكن فيهم الكثير الكثير من المخلصين الأوفياء، فما أراد أن تراق بسية فطرة دم، أو يخدش مسلم في هذا السبيل، وإن الرئاسة للأقوام إن لم تكن لصيانتها، وحياطتها وحفظها، وترقيتها فهي نوع من الطاعوت الأعمى والتهور الأحق، والمغامرة والمقامرة التي تجلب معها الدمار والخراب، والإذلال والسباب وينتهي أصحابها إلى غضب الله، ولعنة التاريخ، وهل تدافع أمواج الدماء البشرية عبر العصور والقرون إلا من الحرص على الرئاسة والسلطان والتكالب على الدنيا⁽³⁾!!

(1) البداية والنهاية (7/ 229 - 230) نقلًا عن المرتضى للتدوي، ص 198.

(2) المرتضى للتدوي، ص 198.

(3) الدوحة النبوية الشريفة، ص 94.

لقد كان الحسن زاهداً في الدنيا والملك والرئاسة، ولو أرادها لأدار الحرب الطحون سنين وسنين، ولكنه كان ينظر إلى الدار الآخرة، ويريد حفظ دماء أمة محمد ﷺ. قال الحسن البصري: فلما ولي الحسن ما أهرق في سببه محجمة دم⁽¹⁾. وكان يعلنها صريحة ويفتخر بذلك ويعتز بتفذيده للوصية النبوية، وسلوكه مسلك التربية الإيمانية⁽²⁾، فقد أصلح الله بالحسن بين أهل العراق والأمة كلها، فجعل النبي ﷺ الإصلاح من فضائل الحسن، مع أن الحسن نزل عن الأمر وسلم الأمر إلى معاوية، فلو كان القتال هو المأمور به دون ترك الخلافة ومصالحة معاوية لم يمدحه النبي ﷺ على ترك ما أمر به وفعل ما لم يؤمر به، ولا مدحه على ترك الأولى وفعل الأدنى، فعلم أن الذي فعله الحسن هو الذي كان يحبه الله ورسوله لا القتال⁽³⁾.

المرحلة الثانية:

شرط البيعة الذي وضعه الحسن ﷺ أساساً لقبوله مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب⁽⁴⁾، فعن ميمون بن مهران، قال: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضي به⁽⁵⁾، وفي رواية أخرى، من طريق خالد بن مُصَرَّب، قال: سمعت الحسن بن علي يقول: والله لا أبايكم إلا علي ما أقول لكم قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت⁽⁶⁾، ويستفاد من الروايتين ابتداء الحسن ﷺ في نيته لنية الصلح قبل استخلافه، وذلك تحقيقاً منه لنبوءة المصطفى⁽⁷⁾، وأدخل الحسن ﷺ بشرطه في عقلية العراقيين بأن خيار السلم قابل للنقاش والأخذ والعطاء، وليس فيه إرادة التسلم على الحرب، فهو يشمل عليهما معاً، وإن كان يوحى بالسلم وهذا دليل على عبقريته وحسن قيادته، ومعرفته بالأمور، كما أنه ﷺ تقدم للخلافة لما كانت مصلحة الإسلام والمسلمين في ذلك.

المرحلة الثالثة:

وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن ﷺ بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع

(1) دلائل النبوة لليهقي (6/443) الدوحة النبوية الشريفة، ص 95.

(2) الدوحة النبوية الشريفة، ص 95.

(3) الفتاوى (28/300).

(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 156.

(5) الطبقات، تحقيق السلمي (1/316، 317) إسناده حسن.

(6) المصدر السابق نفسه (1/386، 387) إسناده صحيح.

(7) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 111.

معاوية رضي الله عنه وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل، وهو ما أشارت إليه الروايات التالية: ما أخرجه ابن سعد في طبقاته من طريق أبي جميلة⁽¹⁾: أن الحسن بن علي لما استخلف حين قتل علي، بينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر - وزعم حصين ابن عبد الرحمن السلمي أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد - وحسن ساجد، قال حصين: وعمي أدرك ذلك، قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهراً ثم برئ، ففعد على المنبر فقال: يا أهل العراق اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيافانكم، أهل البيت الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: 33]. قال: فما زال يقول ذلك حتى ما رؤي أحد من أهل المسجد إلا وهو يخن بكاء⁽³⁾

وما أخرجه ابن سعد في طبقاته من طريق هلال بن يساف⁽⁴⁾، قال: سمعت الحسن بن علي وهو يخطب وهو يقول: يا أهل الكوفة، اتقوا الله فينا فإننا أمراؤكم وإنا أضيافكم، ونحن أهل الست الذين قال الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قال: فما رأيت يوماً قط أكثر باكياً من يومئذ⁽⁵⁾.

المرحلة الرابعة:

خروج الحسن رضي الله عنه بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش وهي شرطة الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة⁽⁶⁾، وقد أشار ابن سعد في طبقاته إلى ذلك في الرواية التي أخرجها من طريق الشعبي، قال: بايع أهل العراق بعد علي ابن أبي طالب الحسن بن علي، ثم قالوا له: سر إلى هؤلاء القوم الذين عصوا الله ورسوله ارتكبوا العظيم وابتزوا⁽⁷⁾ الناس أمورهم، فإننا نرجو أن يمكن الله منهم، فسار الحسن إلى أهل الشام، وجعل على مقدمته قيس بن سعد بن عبادة في اثني عشر ألفاً، وكانوا يسمون: شرطة الخميس⁽⁸⁾.

من خلال الرواية السابقة يتضح أن أهل العراق هم الذين دفعوا الحسن رضي الله عنه إلى

(1) مسرة بن يعقوب، أبو جميلة الطهوي الكوفي، ذكره ابن حبان في ثقافته (5/ 427).

(2) الخئين: البكاء في الأنف، القاموس المحيط، ص 1541.

(3) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 323).

(4) هلال بن يساف الأشجعي، أخرج له البخاري حديثه معلقاً، ومسلم والأربعة، التقريب، ص 576.

(5) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 381) إسناده صحيح.

(6) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 321).

(7) الابتزاز: أخذ الشيء بجفاء وقهر.

(8) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 319 - 321) إسناده لا بأس به.

الخروج لقتال أهل الشام من غير رغبة منه، وهذا الأمر قد أشار إليه ابن كثير رحمته الله بقوله: ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يُسمع بمثله، فأمر الحسن بن علي قيس بن سعد بن عبادة، على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام، فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدم المقدمة بين يديه⁽¹⁾، وقد أظهر الحسن حنكة كبيرة دلت على سعة أفقه ودهائه وبصيرته، عندما لم يشأ أن يواجه أهل العراق من البداية بعيله إلى مصالحة معاوية وتسليمه الأمر، لأنه يعرف خفتهم وتهورهم، فأراد أن يقيم من سلكهم الدليل على صدق نظرتهم فيهم، وعلى سلامة ما اتجه إليه، فوافقهم على المسير لحرب معاوية وعبأ جيشه⁽²⁾، وكان خروج الحسن بن علي من الكوفة إلى المدائن - على ما رجحه الدكتور خالد الغيث - في شهر صفر من السنة التالية وهي سنة 41هـ⁽³⁾.

المرحلة الخامسة:

خرج معاوية رضي الله عنه من الشام وتوجه إلى العراق بعد أن وصل خير خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه، يقول ابن سعد في طبقاته: وأقبل معاوية في أهل الشام يريد الحسن حتى نزل جسر منبج⁽⁴⁾. ثم أضاف قائلاً: فأقبل من جسر منبج إلى مسكن في خمسة أيام وقد دخل يوم السادس⁽⁵⁾، وقد تأخر خروج معاوية وكان ذلك بعد سماعه لخروج الحسن بجيوشه، وكان معاوية قد أصيب إصابة بليغة من جراء محاولة الاغتيال التي تعرض لها من قبل الخارجي البرك بن عبد الله التميمي، حين خرج لصلاة الفجر، وهي المحاولة التي نفذت في نفس فجر اليوم الذي اغتيل فيه علي رضي الله عنه، وهو فجر اليوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة 40هـ على الصحيح المشهور من الأقوال⁽⁶⁾.

وقد أشار الخلال إلى شدة إصابة معاوية رضي الله عنه في الرواية التي أخرجها من طريق جندب قال: كنا مع سعد بن أبي وقاص في ركب فتزل سعد ونزلت واغتمت نزوله قال: فجعلت أمشي إلى جانبه، فحمدت الله وأثنت عليه وقلت: إن معاوية طعن طعناً بيناً لا أراها إلا قائلته، وإن الناس⁽⁷⁾ قاتلون بقية أصحاب الشورى، وبقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشدك الله إن وليت شيئاً من أمرهم أن تشق عصاهم وأن تفرق جمعهم، أو تدعوهم إلى أمر مهلكة.

(1) البداية والنهاية (11/132).

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د. عبد الشافي محمد، ص 101.

(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 130.

(4) جسر منبج: قرية في الجزيرة القراتية، الطبقات، السلمي (1/321).

(5) الطبقات، تحقيق السلمي (1/323). (6) البداية والنهاية (11/131).

(7) يقصد الخوارج.

فحمد سعد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فوالله لا أشق عصاهم ولا أفرق جمعهم، ولا أدعهم إلى أمر هلكة حتى يأتوني بسيف يقول: يا سعد هذا مؤمن فدعه، وهذا كافر فاقتله⁽¹⁾. وبينما الحسن في المدائن، إذ نادى مناد من أهل العراق: إن قيساً قد قتل، فسرت الفوضى في الجيش، وعادت إلى أهل العراق طيعتهم في عدم الثبات، فاعتدوا على سراق الحسن ونهبوا متاعه حتى أنهم نازعوه بساطاً كان تحته، وطعنوه وجرحوه، وهنا حدثت حادثة لها دلالة كبيرة فقد كان والي المدائن من قبل علي: سعد بن مسعود الثقفي، فأناه ابن أخيه المختار بن أبي عبيد بن مسعود، وكان شاباً، فقال له: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن، وتستأمن به إلى معاوية، فقال له عمه: عليك لعنة الله، أثب علي ابن بنت رسول الله ﷺ، فأوثقه؟ بنس الرجل أنت⁽²⁾، فلما رأى الحسن صنع أصحابه أيقن أنه لا فائدة منهم، ولا نصر يرجي على أيديهم، وهذه كانت قناعته من البداية⁽³⁾، فدفعه ذلك إلى قطع خطوات أوسع والاقتراب أكثر من الصلح.

المرحلة السادسة:

تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما، فقد سجل الإمام البخاري رحمته الله في صحيحه تلك اللحظات الحرجة من تاريخ الأمة المسلمة حين التقى الجمعان، جمع أهل الشام وجمع أهل العراق، وذلك في الرواية التي أخرجها من طريق الحسن البصري، قال: استقبل - والله - الحسن بن علي معاويةً بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين - : أي عمرو، وإن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأموار الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم⁽⁴⁾؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز فقال: اذهب إلى هذا الرجل فاعرضاً عليه وقولا له واطلبا إليه. فأتياه، فدخلا عليه، فتكلما، وقالوا له، وطلبا إليه.

فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال⁽⁵⁾، وإن هذه

(1) السنة للخلال، تحقيق د. الزاهراني، ص 474، 475، إسناده صحيح.

(2) تاريخ الطبري (5/159) نقلاً عن: العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص 101.

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص 101.

(4) قال ابن حجر رحمته الله: يشير - يقصد معاوية - إلى أن رجال الصكرين معظم من في الإقليمين، فإذا قتلوا ضاع أمر الناس وفسد حالهم بعدهم وذرائعهم، والمراد بقوله: ضيعتهم: الأبطال والضعفاء سموا بما يؤول إليه أمرهم، لأنهم إذا تركوا ضاعوا لعدم استقلالهم بأمر المعاش.

(5) أي: فرقنا منه في حياة علي وبعده ما رأينا في ذلك صلاحه، فبه على ذلك خشية أن يرجع عليه بما تصرف فيه: الفتح (13/70، 69).

الامة قد عاثت في دمائها، قالوا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا⁽¹⁾؟ قالوا: نحن لك به⁽²⁾، فما سألهما شيئاً إلا قالوا: نحن لك به، فصالحه فقال الحسن - أي البصري - : ولقد سمعت أبا بكر يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر - والحسن بن علي إلى جنبه - وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»⁽³⁾، وقد تحدث ابن حجر رحمته عن الفوائد المستنبطة من رواية الصلح فقال:

- (1) وفي هذه القصة من الفوائد علم من أعلام النبوة.
 - (2) ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لثقله، ولا لذلة، ولا لعله، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى مصلحة الدين ومصلحة الأمة.
 - (3) وفيها رد على الخوارج الذين كانوا يكفرون علياً ومن معه، ومعاوية ومن معه، بشهادة النبي ﷺ بالطائفتين بأنهم من المسلمين.
 - (4) وفيها فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما في حقن دماء المسلمين.
 - (5) ودلالة على رافة معاوية بالرعية، وشقيقته على المسلمين، وقوة نظره في تديير الملك، ونظره في العواقب.
 - (6) وفيه ولاية المفضول للخلافة مع وجود الأفضل؛ لأن الحسن ومعاوية ولي كل منهما الخلافة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد في الحياة وهما بدریان.
 - (7) وفيه جواز خلع الخليفة نفسه، إذا رأى في ذلك صلاحاً للمسلمين، والتزول عن الوظائف الدينية والدنيوية بالمال، وجواز أخذ المال على ذلك وإعطائه، بعد استيفاء شرائطه، بأن يكون المتزول له أولى من النازل، وأن يكون المبدول من مال الباذل، فإن كان في ولاية عامة وكان المبدول من بيت المال اشترط أن تكون المصلحة في ذلك عامة⁽⁴⁾.
- كما أخرج ابن سعد رحمته رواية لا تقل أهمية عن رواية البخاري في الصلح، وتعد مكملة لها، وهي من طريق عمرو بن دينار⁽⁵⁾: «إن معاوية كان يعلم أن الحسن أكره الناس للفتنة؛ فلما

(1) أي: من ضمن لي الوفاء من معاوية، الفتح (70/13).

(2) نحن نضمن، لأن معاوية كان فوض لهما ذلك، الفتح (70/13).

(3) البخاري رقم: 7109.

(4) فتح الباري (72/13، 71).

(5) عمرو بن دينار المكي الجمحي مولاهم، ثقة ثبت، من الطبقة الرابعة، مات 26 هـ، أخرج له الستة

توفي علي بعث إلى الحسن، فأصلح الذي بينه وبينه سراً، وأعطاه معاوية عهداً إن حدث به حدث والحسن حي لِيُسَيِّئَهُ⁽¹⁾، وليجعلن هذا الأمر إليه، فلما توثق منه الحسن، قال ابن جعفر⁽²⁾: والله إنني لجالس عند الحسن إذ أخذت لأقوم فجذب بثوبي وقال: اقعد يا هناه⁽³⁾، واجلس، فجلست قال: إنني قد رأيت رأياً وأحب أن تتابعني عليه قال: قلت: ما هو؟ قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلهما وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعت السبل، وعُظِّلت الفروج - يعني الثغور - فقال ابن جعفر: جزاك الله عن أمة محمد، فأنا معك على هذا الحديث.

فقال الحسن: ادع لي الحسين، فبعث إلى الحسين فأتاه فقال: يا أخي قد رأيت رأياً وإنني أحب أن تتابعني عليه، قال: ما هو؟ قال: فقص عليه الذي قال لابن جعفر قال الحسين: أعيدك بالله أن تكذب علياً في قبره، وتصدق معاوية. قال الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلا خالفني إلى غيره، والله لقد هممت أن أقذفك في بيت فأطينه عليك حتى أقضي أمري. قال: فلما رأى الحسين غضبه قال: أنت أكبر ولد علي، وأنت خليفته، وأمرنا لأمرك تبع، فافعل ما بدا لك⁽⁴⁾. ويلاحظ على روايتي البخاري وابن سعد اتفاقهما على أن معاوية رضي الله عنه كان صاحب المبادرة في الاتصال بالحسن رضي الله عنه وعرض الصلح عليه⁽⁵⁾.

* مَنِ الْمُبَادِرُ إِلَى الصَّلْحِ: الْحَسَنُ أَمْ مُعَاوِيَةُ؟

وهنا قد يسأل سائل: من المبادر إلى الصلح، أمو الحسن رضي الله عنه - الذي ورد حديث الرسول في الصلح بحقه، والذي كاد أن يقتل في المحاولة الأولى لاغتيااله بسبب شرط البيعة الذي اشترطه على أهل العراق، والذي يفهم منه عزمه على صلح معاوية - أم معاوية رضي الله عنها؟ وجواب ذلك: أن الرغبة في الصلح كانت موجودة لدى الطرفين، فقد سعى الحسن رضي الله عنه إلى الصلح، وخطط له منذ اللحظات الأولى لمبايعته، ثم جاء معاوية فأكمل ما بدأه الحسن، فكان عمل كل واحد منهما مكماً للآخر رضوان الله عليهم أجمعين⁽⁶⁾، والقدر المعلى في السعي في نجاح الصلح للحسن رضي الله عنه.

(1) أي يرشحه للخلافة من بعده، وعندما تتعرض لشروط الصلح، بإذن الله، سوف نبين أن الأمر الذي استقر هو أن يكون بعد وفاة معاوية شوري بين الصلحين.

(2) أي: عبد الله بن جعفر.

(3) يانهاه: يا رجل.

(4) الطبقات، تحقيق السلمي (1/331، 330).

(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 138.

(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 141.

المرحلة السابعة:

* محاولة أخرى لاغتيال الحسن عليه السلام:

بعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، شرع الحسن عليه السلام في تهينة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل، وقد أورد البلاذري خطبة الحسن التي ألقاها في أتباعه، ومحاولة قتله عليه السلام فقال:

إني أرجو الله أن أكون أنصح خلقه لخلقه، وما أنا محتمل على أحد ضعيفته، ولا حقدأ، ولا مريداً به غائلة، ولا سوءاً، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردوا علي، غفر الله لي ولكم.

فنظر بعض الناس إلى بعض وقالوا: عزم والله على صلح معاوية، وضعف وخار، وشدوا على فسطاطه، فدخلوا عليه، انتزعوا مصلاه من تحته، وانتهوا ثيابه، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي جعال الأزدي، فنزع مطرفه⁽¹⁾، عن عاتقه، فبقي متقلداً سيفه قُدِّمَش ثم رجع ذُهُنُهُ، فركب فرسه، وأطاف به الناس، فبعضهم يعجزه ويضعفه، وبعضهم ينحي أولئك منه، ويمنعهم منه.

وانطلق رجل من بني أسد بن خزيمة من بني نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان ابن أسد، يقال له: الجراح بن سنان⁽²⁾ - وكان يرى رأي الخوارج - على مظلم سابط⁽³⁾، فقعد له فيه ينتظره، فلما مر الحسن، ودنا من دابته فأخذ بلجامها، ثم أخرج معولاً⁽⁴⁾، وكان معه وقال: أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل، وطعته بالمعول في أصل فخذه، فشق في فخذه شقاً كاد يصل إلى العظم، وضرب الحسن وجهه، ثم اعتنقا وخرأ إلى الأرض، ووُثب عبد الله بن الخضل الطائي⁽⁵⁾، فنزع المعول من يد الجراح، وأخذ ظييان بن عمارة

(1) مطرفه: أي: رداءه، القيروز أبادي القاموس المحيط 1075.

(2) الجراح بن سنان الأسدي له سابقة في الشر، حيث كان من الذين بهتوا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وسعوا في عزله في الكوفة أيام خلافة عمر، فلما عليهم سعد، فكان له من سوء الخاتمة نصيب، الطبري (4/ 141).

(3) سابط المدائن: موضع على الضفة الغربية لنهر دجلة، ومظلم موضع هناك، معجم البلدان (3/ 166) (5/ 152).

(4) معولاً: حديدة ينقر بها الصخر، القاموس المحيط، ص 1340.

(5) عبد الله بن الخضل الطائي، قائد الثوابين الذين طالبوا بدم الحسين 65هـ.

التميعي⁽¹⁾ بأنتفه فقطعه، وضرب يده إلى قطعة آجرة فشدخ بها وجهه ورأسه حتى مات، وحُمل الحسن إلى المدائن... ثم إن سعد بن مسعود أتى الحسن بطبيب، وقام عليه حتى بري وحولّه إلى أبيض المدائن⁽²⁾ (3).

وقد يعترض بشأن خطبة الحسن رضي الله عنه وأنها وردت عند البلاذري وأبي حنيفة الدينوري قبل صلح الحسن ومعاوية رضي الله عنه.

وجواب ذلك: أن ما ورد في رواية البخاري من وصف لجيش الحسن، يفيد قوة جيش الحسن وتماسكه، مما يعني أن جيش العراق قد قابل جيش الشام وهو في أحسن حالاته المادية والمعنوية، وحيث إن جيش أهل العراق قد اضطرب حاله بعد خطبة الحسن، فإن هذا يعني انتفاء مقابلة جيش العراق لجيش الشام بعد الخطبة، لذا فإن الأقرب للواقع أن خطبة الحسن في معسكره كانت بعد التقاء الجيشين العراقي والشامي، وبعد وقوع الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنه⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى أن خطبة الحسن هذه كانت مدخلاً وتمهيداً منه رضي الله عنه لإخبار أتباعه بالصلح الذي تم بينه وبين معاوية، وهذا ما تبينه الروايات التالية:

ما أخرجه ابن سعد من طريق رياح بن الحارث⁽⁵⁾: إن الحسن بن علي قام بعد وفاة علي رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن كل ما هوأت قريب، وإن أمر الله واقع، وإن كره الناس، وإنني والله ما أحببت أن ألي من أمر أمة محمد ما يزن مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما يضرني مما يفغني فالحقوا بطيكتكم⁽⁶⁾ (7)، وقد يقول قائل: إن هذه الرواية قد قيلت في الكوفة وليست في المدائن، والجواب على ذلك: أن أحمد بن حنبل أخرج الرواية نفسها من طريق رياح بن الحارث وبإسناد صحيح⁽⁸⁾، وفيها: أن الناس اجتمعوا إلى الحسن بن علي بالمدائن⁽⁹⁾. ثم ذكر بقية رواية ابن سعد، وحيث إن هذه الخطبة قد قيلت في المدائن فإن الأرجح أنها قيلت بعد صلح الحسن مع معاوية رضي الله عنه - حيث يرد بشأنها ما

(1) طيبان بن عمار، بروي عن علي، من تابعي أهل الكوفة.

(2) يسمى القصر الأبيض، يقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، الروض المعطار، ص 9.

(3) أنساب الأشراف للبلاذري، مخطوطة، نقلت عن مرويات خلافة معاوية، ص 142.

(4) مرويات خلافة معاوية رضي الله عنه، ص 142.

(5) رياح بن الحارث: ثقة، التزيين، ص 211.

(6) بطيكتكم: أي بوجهتكم، لسان العرب (2/15).

(7) الطبقات، تحقيق السلمي (317/1).

(8) فضائل الصحابة (773/2).

(9) فضائل الصحابة (773/2) إسناد، صحيح.

ورد بشأن خطبة الحسن التي عند البلاذري - بل لعلها كانت جزءاً من خطبة الحسن التي أوردتها البلاذري، وأسفرت عن اضطراب معسكر الحسن.

وقد بقيت الإشارة إلى موقف الحسن عليه السلام تجاه ما حصل له في معسكره وهو ما أخرجه ابن سعد من طريق هلال بن خباب⁽¹⁾، قال: جمع الحسن بن علي رؤوس أصحابه في قصر المدائن، فقال: يا أهل العراق، لو لم تذهل نفسي⁽²⁾ عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي، وانتهابكم ثقلتي، أو قال: ردائي عن عاتقي، وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالمتم وتحاربوا من حاربتم، وإني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا، قال: ثم نزل فدخل القصر⁽³⁾.

1 - موقف شرطة الخميس من الصلح:

أما موقف شرطة الخميس - وهم مقدمة جيش العراق إلى مسكن - من الصلح، فقد أخرج الحاكم عن أبي العَرِيف⁽⁴⁾، قال: كنا في مقدمة جيش الحسن بن علي اثني عشر ألفاً، تقطر أسيافتنا من الحدة على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمرطة⁽⁵⁾، فلما أتانا صلح الحسن ابن علي ومعاوية كأنما كسرت ظهورنا من الحَرَد⁽⁶⁾ والغَيْظ، فلما قدم الحسن بن علي على الكوفة، قام إليه رجل منا يكتئب أبا عامر سفیان بن الليل⁽⁷⁾؟ فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فقال الحسن: لا تقل ذلك يا أبا عامر، لم أذل المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك⁽⁸⁾. ويبدو أن أبا العمرطة كان أميراً على مجموعة من جيش الخميس في المقدمة، وكان فيهم أبو العريف، لأنه من الثابت أن جيش الخميس كان عليه قيس بن سعد عليه السلام، كما أن الروايات الصحيحة لا تذكر أي وجود لعبيد الله بن العباس على جيش الخميس، مما يشير الشك حول وجود عبيد الله بن العباس في العراق في هذه الفترة⁽⁹⁾، ولا

(1) هلال بن خباب العدي، صدوق، التقريب؛ 575.

(2) تذهل نفسي: تملو نفسي، لسان العرب (259/11).

(3) الطبقات، تحقيق السلمي (324/1).

(4) عبيد الله بن خليفة الهمداني المرادي، صدوق، رمي بالشيخ، التقريب: 370.

(5) اسمه عمير بن يزيد الكندي، شارك في حركة حجر بن عدي سنة 51هـ، تاريخ الطبري (259/5)، مرويات معاوية، ص 146.

(6) الحَرَد: الغضب. القاموس المحيط، ص 353.

(7) من الذين شاركوا المختار الثقفي في الطلب بدم الحسين 66هـ.

(8) المستدرک (175/3).

(9) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 114.

يلتفت إلى الروايات الساقطة والموضوعة التي تزعم أن عبيد الله خان الحسن مقابل رشاوي مالية من معاوية.

أما قيس بن سعد فقد تردد في الدخول في الصلح، واعتزل بما أطاعه ثم شرح الله صدره، ودخل في الصلح وباع معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، وفي الروايات التالية بيان موقف قيس حين جاءه خبير الصلح، أخرج ابن حجر من طريق حبيب بن أبي ثابت⁽¹⁾، أنه قال: .. فبعث الحسن بالبيعة إلى معاوية، فكتب بذلك الحسن إلى قيس بن سعد، فقام قيس ابن سعد في أصحابه فقال: يا أيها الناس، أتاكم أمران، لا بد لكم من أحدهما: دخول في الفتنة، أو قتل مع غير إمام، فقال الناس: ما هذا؟ فقال: الحسن بن علي، قد أعطى البيعة معاوية، فرجع الناس، فبايعوا معاوية⁽²⁾.

تشير الرواية السابقة إلى دخول قسم كبير من شرطة الخميس في الصلح فور سماعهم نبأ وقوع الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، ولكنها لا تذكر دخول قائدهم قيس بن سعد في الصلح، وقد أشار ابن كثير رضي الله عنه إلى ذلك بقوله: وبعث الحسن بن علي إلى أمير المقدمة قيس ابن سعد: أن يسمع ويطيع، فأبى قيس بن سعد قبول ذلك، وخرج من طاعتهما جميعاً، واعتزل بمن أطاعه، ثم راجع الأمر، فبايع معاوية⁽³⁾، كما تحدث ابن أبي شيبة عن موقف قيس بن سعد رضي الله عنه - ومن تابعه من شرطة الخميس - من الصلح، فقال: عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان قيس بن سعد بن عباد مع الحسن بن علي رضي الله عنهما على مقدمته، ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعدما مات علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتبايعوا على الموت، فلما دخل الحسن في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: ما شئتم، إن شئتم جالدت بكم حتى يموت الأعجل منا، وإن شئتم أخذت لكم أماناً، فقالوا: خذ لنا أماناً، فأخذ لهم كذا وكذا، وألا يعاقبوا بشيء، وأنه رجل منهم، ولم يأخذ لنفسه خاصة شيئاً، فلما ارتحل نحو المدينة ومضى بأصحابه جعل ينحر لهم كل يوم جزوراً حتى بلغ⁽⁴⁾، وفي الرواية السابقة - على ما فيها من تقديم وتأخير في تسلسل الأحداث - إشارة لعدد الذين تابعوا قيساً من المجموع الكلي لتعداد شرطة الخميس الذي هو اثنا عشر ألفاً⁽⁵⁾.

(1) حبيب بن أبي ثابت بن دينار الأسدي، التزيين: 150.

(2) المطالب العلية (4/ 317 - 319) هذا الإسناد صحيح.

(3) البداية والنهاية (8/ 16).

(4) البداية والنهاية (8/ 16).

(5) مصنف ابن أبي شيبة (7/ 472).

2 - مواقف أمراء علي عليه السلام من الصلح:

اتسمت مواقف أمراء علي عليه السلام من الصلح بالتباين والتفاوت، حيث قبله بعضهم وكرهه بعضهم الآخر، وفيما يلي تبيان لتلك المواقف:

أ - موقف القبول والاستحسان، ويأتي في مقدمة هؤلاء: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام.

ب - موقف الرفض ثم القبول، ويأتي في مقدمة هؤلاء قيس بن سعد بن عبادة عليه السلام، وزياد بن أبيه.

ج - وهناك فريق ثالث دخل في الصلح وهو كاره له، هؤلاء ينقسمون إلى قسمين:

- قسم يرى أن الصلح ملزم له في ظل حياة الحسن عليه السلام فقط، ويمثل هؤلاء حجر بن عدي عليه السلام.

- قسم يرى أن الصلح ملزم له في ظل حياة الحسن ومعاوية عليه السلام، أو الآخر موتاً منهما، ويمثل هؤلاء الحمين بن علي عليه السلام.

المرحلة الثامنة:

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة، وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله ﷻ الحسن بن علي من الفتنة التي وقعت في معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة، وقد تحدث البلاذري عن مسير الحسن إلى الكوفة فقال: قالوا: ولما أراد الحسن المسير من المدائن إلى الكوفة، حين جاءه ابن عامر⁽¹⁾، وابن سمرة⁽²⁾، بكتاب الصلح، وقد أعطاه فيه معاوية ما أراد، خطب فقال في خطبه: ﴿فَقَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا سَيْبًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19] وسار إلى الكوفة⁽³⁾، بعد ذلك سار معاوية عليه السلام من مسكن إلى النخيلة⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول البلاذري: قالوا: وشخص معاوية من مسكن إلى الكوفة ونزل بين النخيلة، ودار الرزق⁽⁵⁾. ثم خرج الحسن عليه السلام من الكوفة إلى النخيلة ليقابل معاوية عليه السلام ويسلم الأمر له، فعن مجالد⁽⁶⁾، عن الشعبي⁽⁷⁾، قال: شهدت الحسن بن علي عليه السلام بالنخيلة حين صالحه معاوية عليه السلام، فقال معاوية: إذا كان ذاقم فكلم وأخبر الناس

(1) هو عبد الله بن عامر عليه السلام.

(2) هو عبد الرحمن بن سمرة.

(3) أنساب الأشراف، مخطوط: 447، نقلًا عن مرويات خلافة معاوية، ص 150.

(4) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، معجم البلدان (278/5).

(5) أنساب الأشراف، نقلًا عن: مرويات خلافة معاوية، ص 150.

(6) مجالد بن سعيد الهمداني، فيه كلام.

(7) عامر الشعبي، ثقة.

أنك قد سلمت هذا الأمر لي، وربما قال معاوية: أخبر الناس بهذا الأمر الذي تركته لي، فقام فخطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه - قال الشعبي: وأنا أسمع - ثم قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس⁽¹⁾ الثقي، وإن أحقق الحقق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة وحقن دمايتهم، أو يكون حقاً كان لا مرمى كان أحق به مني ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾⁽²⁾ [الأنبياء: 111].

كما أخرج هذه الرواية ابن سعد⁽³⁾، والحاكم⁽⁴⁾، وأبو نعيم الأصفهاني⁽⁵⁾، والبيهقي⁽⁶⁾، وابن عبد البر⁽⁷⁾، كلهم بنحو رواية الطبراني من طريق الشعبي، كذلك أخرج رواية البيهقي أحمد ابن حنبل من طريق أنس بن سيرين، قال: قال الحسن بن علي يوم كلم معاوية: «ما بين جابلص وجابلق⁽⁸⁾ رجل جده نبي غيري، وإني رأيت أن أصلح بين أمة محمد ﷺ، وكنت أحققهم بذلك، ألا إنا قد بايعنا معاوية ولا أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»⁽⁹⁾.

وجاء في رواية ابن سعد من طريق عمرو بن دينار، وفيها: . . فقال الحسن فقال: أيها الناس، إني كنت أكره الناس لأول هذا الحديث، وأنا أصلحت آخره لذي حق أدبت إليه حقه أحق به مني، أو حق جدت به لصلاح أمة محمد، وإن الله قد ولاك يا معاوية هذا الحديث لخير يعلمه عندك أو لشر يعلمه فيك ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ [الأنبياء: 111] ثم نزل. وأما الرواية التي تشير أن عمرو بن العاص وأبو الأعور السلمي قالوا لمعاوية لما بايع الحسن بن علي معاوية قالوا له: لو أمرت الحسن فصعد المنبر فتكلم، عبي⁽¹⁰⁾ عن المنطق فيزهد فيه الناس، فقال معاوية: لا تفعلوا، فوالله لقد رأيت رسول الله ﷺ يمض لسانه وشفته، ولن يعنى لسان مصه النبي ﷺ أو شفيتين، فأبوا على معاوية، فصعد الحسن المنبر فحمد الله وأثنى عليه. . فهذه رواية باطلة من حيث الإسناد والتمتن، فإسنادها ضعيف ومنتها منكر⁽¹¹⁾ وليس معاوية بمن يجهل القدرات البلاغية والخطابية للحسن.

(1) أكيس: أعقل، والكيس العقل، لسان العرب (201/16).

(2) المعجم الكبير (26/3) إسناده حسن. (3) الطبقات، تحقيق السلمي (329/1).

(4) المستدرك (175/3). (5) حلية الأولياء (37/2).

(6) دلائل النبوة (444/6). (7) الاستيعاب (388 - 389).

(8) جابلص وجابلق: مدينتان، أحدهما بالمشرق والأخرى بالمغرب.

(9) فضائل الصحابة (769/2) إسناده صحيح.

(10) عبي: المي: خلاف البيان، وعبي في المنطق عيا: أي حصر في الكلام، فلم يستطع البيان، لسان العرب (112/5 - 113).

(11) الطبقات، تحقيق السلمي (325/1) إسناده ضعيف ومنتها منكر.

وجاء في رواية البلاذري أن الحسن دخل بقيس على معاوية ليبايعه، فعن جرير بن حازم، قال: سمعت محمد بن سيرين يقول: لما بايع الحسن معاوية، ركب الحسن إليه إلى عسكره، وأردف قيس بن سعد بن عبادة خلفه، فلما دخلا المعسكر، قال الناس: جاء قيس، جاء قيس، فلما دخلا على معاوية، بايعه الحسن، ثم قال لقيس: بايع. فقال قيس بيده: هكذا. وجعلها في حجره ولم يرفعها إلى معاوية، ومعاوية على السرير، فبرك معاوية على ركبتيه، ومدّ يده حتى مسح على يد قيس، وهي في حجره قال - جرير بن حازم - : وحكى لنا محمد ابن سيرين صنيعه، وجعل يضحك، وكان قيس رجلاً جسيماً⁽¹⁾.

ويتنازل الحسن بن علي عن الخلافة ومبايعته معاوية رضوان الله عليهم أجمعين تنتهي بذلك فترة خلافة النبوة وهي ثلاثون سنة، والحجة في ذلك قول الرسول ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»⁽²⁾، وقال ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»⁽³⁾. وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلّم تسليماً⁽⁴⁾، وبذلك يكون الحسن بن علي رضي الله عنهما خامس الخلفاء الراشدين⁽⁵⁾.

- أهم أسباب ودوافع الصلح:

كانت هناك عوامل وأسباب متعددة ساهمت في دفع أمير المؤمنين الحسن للصلح مع معاوية رضي الله عنهما، فمنها:

أولاً: الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما ردأ على نفيير الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالم، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله⁽⁶⁾، وقال في خطبته التي تنازل فيها لمعاوية: . . . إما كان

(1) أنساب الأشراف، نقلًا عن: مرويات خلافة معاوية، ص 154، إسناده صحيح.

(2) سنن أبي داود مع شرح عون المعبود (259/12)، صحيح سنن أبي داود الألباني (879/3).

(3) سنن الترمذي مع شرحها، تحفة الأحوذى (6/395 - 397) قال الترمذي: هذا حديث حسن، صحيح.

(4) البداية والنهاية (6/8).

(5) مآثر الإنافة للقلشندي (1/105)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 155.

(6) البداية والنهاية (11/206).

حقاً لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة⁽¹⁾.

إن استحضار الحسن رضي الله عنه إرادة وجه الله تعالى وتقديم ذلك، والحرص على إصلاح ذات البين من أسباب الصلح ودوافعه عند الحسن بن علي رضي الله عنه، فمكاته الصلح في الإسلام عظيمة، وهو من أجل الأخلاق الاجتماعية، إذ به يرفع الخلاف وينهي المنازعة التي تنشأ بين المتعاملين مادياً أو اجتماعياً، ويعود بسببه الوُدُ والإخاء بين المتنازعين، لكونه يرضي طرفي النزاع ويقطع دابر الخصام، ولذلك كان الصلح من أسمى المطالب الشرعية لتحقيق به الأخوة التي ينشدها لهم ويصفهم بها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10] وهي الأخوة التي يذهبها الخلاف والنزاع فيما بينهم⁽²⁾. ولذلك اعتنى القرآن الكريم بالصلح كثيراً، أمراً به، وترغيباً فيه، وتوبيهاً به وبأهله، واليك البيان:

1 - الأمر بالإصلاح:

ففي مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَأْتِيَ سُلْطَةً مِنَ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [1] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [1] [الحجرات: 10، 8].

فترى أن الله تعالى أمر عباده بأن يصلحوا ذات بينهم لما بينهم من الإخاء، كما صرح به في آية الحجرات حيث قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذ بينت هذه الآية عليّة الأمر بالإصلاح بين المؤمنين بصيغة القصر، المفيدة لحصر حالهم في حال الأخوة، مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، لما بينهم من انتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الذي هو منشؤه البقاء الأبدي في الجنات، فأشارت جملة: «إنما المؤمنون إخوة» إلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين، . . . ومن هذه الأوامر القرآنية يُعلم أن الإصلاح بين الناس ليس من نافلة القول، بل هو تكليف إلهي للقادرين عليه، حتى لا تفسد أواصر الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وهو مع ذلك من التعاون على البر والتقوى، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أمر الله تعالى بهما في غير ما آية، ومعلوم أن هذين من الواجبات الشرعية التكليفية على المؤمنين في علاقتهم الاجتماعية، فكل هذه الأمور تحتم على المسلم القيام

(1) المعجم الكبير للطبراني (26/3) إسناده حسن.

(2) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة (2/969).

بالإصلاح بين المسلمين بل وبين الناس عامة، ولتستقر الحياة الاجتماعية عامرة بالود والإخاء⁽¹⁾، كانت هذه الأوامر دافعة للحسن بن علي عليه السلام للسمي في الإصلاح.

2 - الترغيب في القيام بالإصلاح:

ولقد رتب الله تعالى على القيام به فضلاً كبيراً وأجرأ عظيماً، يناله القائم بذلك ابتغاء مرضات الله تعالى، كما قال الله جل شأنه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُودِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114]. ووعد القائمين به مغفرته ورحمته، كما يفيد قول الله جل ذكره: ﴿وإن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 128] فإن في هذه الآية إشارة إلى مغفرة الله ورحمته للمصلحين، كما أذن به ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة لله سبحانه وتعالى⁽²⁾، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن عَاقَبَ مِن مَّوَدِّعِنَا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 182]، فإن فيها من الإشارة إلى مغفرته ورحمته سبحانه للمصلح ما في سابقتها، بدلالة نفي الإثم، وتذليلها بصفتي المغفرة والرحمة، وهي إشارة جلية⁽³⁾، وقد وصف سبحانه نفسه بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأمراء: 170].

3 - التنويه بالصلح والقائمين عليه:

وتكرار هذا الوعد يدل على علو شأن الإصلاح بين الناس عند الله تعالى، ولذلك أجزل للقائم به تلك المثوبة الكريمة والأجر العظيم، وقد دل على ذلك أيضاً تنويه الله تعالى به بمثل قوله سبحانه: ﴿وَأَصْلِحْ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128] فإن وصفه بالخيرية دليل على علو منزلته عند الله تعالى، وذلك لما له من عظيم الأثر في إصلاح ذات البين بين الناس، الذي طالما تشوف الشارع الحكيم إليه في المجتمعات الإنسانية، ولما له من دلالة على كريم أخلاق القائم به أو الراضي عنه، ولهذا كان من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَلْطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [آل عمران: 88] كما قال على لسان موسى وهو يخاطب أخاه هارون عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اكْفُتِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأمراء: 142] إلى غير ذلك من الآيات، والإصلاح في مثل هاتين الآيتين عام فيشمل الإصلاح في الدين والدنيا، ومنه

(1) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة (2/ 971).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

الإصلاح بين الناس عند حدوث المقتضى لذلك من نزاع ونحوه مما لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية⁽¹⁾.

فهذا المقصد القرآني الكريم كان دافعاً للحسن بن علي في الصلح، وقد تتبع خطوات جده صلى الله عليه وسلم في الحرص على الصلح، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه في الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد حدث ذات يوم أن أهل قباء اقتتلوا⁽²⁾، حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «أذهبوا بنا نصلح بينهم»⁽³⁾، فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوان عن الذهاب للإصلاح بين المسلمين حينما بدر الشقاق بينهم ليحسم الخلاف، ويعيد الوثام قبل أن يستفحل الأمر وتوسع الخرق على الواقع⁽⁴⁾.

ولأهمية الصلح بين الناس وفضله أجاز الإسلام الكذب فيه إذا كان القصد من ذلك الإصلاح بين المتخاصمين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»⁽⁵⁾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل الكذب إلا في ثلاث: الرجل يحدث امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»⁽⁶⁾، وما ذلك إلا لعظم خطر الخلاف بين المسلمين وفساد ذات بينهم كما بيّنه صلى الله عليه وسلم: «إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة»⁽⁷⁾ أي: الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أراد أنها خصلة سوء تذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر⁽⁸⁾.

ولقد بيّن عليه الصلاة والسلام ما للصلح من أجر عظيم بقوله: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة»⁽⁸⁾، ولذلك كان من أمله الكبير ورجائه العظيم في نسله المبارك الحسن السبط صلى الله عليه وسلم أن يصلح الله به فساد ذات البين الذي أعلمه الله بحدوثه في أمته بعد وفاته، فمن حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به

(1) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة (2/ 971).

(2) أي: فعلوا فعلاً يؤدي بهم إلى القتل من مضاربة بالأيدي والعصي.

(3) البخاري، كتاب: الصلح رقم: 2690.

(4) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن والسنة (2/ 979).

(5) البخاري، كتاب: الأدب رقم: 4900.

(6) سنن أبي داود مع عون المعبود (13/ 263) رقم: 4900.

(7) سنن الترمذي رقم: 2508 قال عنه الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه.

(8) جامع الأصول لابن الأثير (6/ 668).

(9) سنن الترمذي رقم: 2509 وقال الترمذي: حديث صحيح.

بين فئتين عظيمتين من المسلمين⁽¹⁾، فرغبة الحسن بن علي عليه السلام في الأجر والمثوبة وإرادته للإصلاح دفعته لهذا الصلح المبارك.

ثانياً: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين:

إن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسي للصلح والتغلب على العوائق التي في الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت في قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحية، وقسم مراحلها وكان متيقناً من نتائجها، فالحديث النبوي كان دافعاً أساسياً وسيماً مركزياً في اندفاع الحسن للإصلاح.

ثالثاً: حقن دماء المسلمين:

قال الحسن عليه السلام: ... خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دماً، كلهم يحتدي الله فيم هريق دمهم⁽²⁾؟ وقال عليه السلام: ألا إن أمر الله واقع إذ ليس له دافع وإن كره الناس، إني ما أحببت أن لي من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني مما يضرني، الحقوا بطيبتكم⁽³⁾ ⁽⁴⁾.

وقال في خطبه التي تنازل فيها لمعاوية عن الخلافة وتسليمه الأمر إليه: .. إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة وحقن دماهم⁽⁵⁾.

تلحظ من كلام سيدنا الحسن عليه السلام شدة خوفه من الله تعالى ذلك الخوف الذي دفعه إلى الصلح، وقد مدح الله أنبياءه عليهم السلام وأوليائه بمخافتهم الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْحَبِزَاتٍ وَيَذْعُونَكَ رَبِّعًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعُونَ﴾ [الأنبياء: 90] وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُؤْمَلُوا وَيُخْشَرُوا وَتَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرمم: 21] فالخوف المحمود من الله يحث على العلم، ويكدر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور، دون الحديث النفسي الذي لا يؤثر في الكف عن المعاصي والحث على فعل الطاعات، ودون الوصول إلى اليأس الموجب للقنوط⁽⁶⁾.

(1) البخاري رقم: 7109. (2) الهداية والنهاية (11/206).

(3) بطيبتكم: جهنكم ونواحيكم. (4) تاريخ دمشق (14/89).

(5) المعجم الكبير للطبراني (3/26) إسناده حسن.

(6) جامع العلوم والحكم، ص 363، الإيمان أولاً، ص 117.

فالحسن بن علي رضي الله عنه أراد أن يحقن دماء المسلمين قرية إلى الله تعالى ، وخشي على نفسه من حساب الله يوم القيامة في أمر الدماء، ولو أدى به الأمر إلى ترك الخلافة فكان ذلك دافعاً له نحو الصلح، فالحسن بن علي رضي الله عنه يعلم خطورة سفك الدماء بين المسلمين، لأن ذلك من أخطر الأمور التي تهز كيان البشرية، ولذلك ورد تحريمه والوعيد عليه، وتحديد عقوبته في كثير من نصوص الكتاب والسنة، والقتل أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة مما يدل على عظم شأن قتل النفس والاعتداء على حرمة الإنسان.

فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء»⁽¹⁾، فأمر الدماء عظيم يوم القيامة، والعمل على حفظها في الدنيا من مقاصد الشريعة، ولذلك حرص الحسن على الصلح حفظاً لدماء المسلمين.

لقد عنيت الشريعة الإسلامية التي فهمها واستوعبها الحسن رضي الله عنه بالنفس عناية فائقة، فشرعت من الأحكام ما يجلب المصالح لها، ويدفع المفاسد عنها، وذلك مبالغة في حفظها وصيانتها، ودرء الاعتداء عليها لأنه يتعرض الأنفس للضياع والهلاك يُفقد المكلف الذي يتعبد الله سبحانه وتعالى وذلك بدوره يؤدي إلى ضياع الدين، والمقصود من الأنفس التي عنيت الشريعة بحفظها: هي الأنفس المعصومة بالإسلام؛ الجزية أو الأمان⁽²⁾، ولهذا لما قيل للحسن من بعض المعترضين على الصلح: يا عار المؤمنين، قال: للعار خير من النار⁽³⁾. وفي رواية ابن سعد: . . . إني اخترت العار على النار⁽⁴⁾.

ونلاحظ أن الحسن بن علي كان يناقش أتباعه ويبين لهم دوافعه ويرتقي بهم نحو قناعته، ولم يكن ممن تقوده الجماهير، وهم ما يطلبه المستمعون، وإنما شق طريقه وفق تصوراته وفهمه لحقائق الأمور ونأى بنفسه أن يتأثر بضغط عوام الناس ما دامت الخطوات التي يسير بها فيها رضى الله، ومصصلحة المسلمين، وهذا درس كبير لكثير من القيادات الإسلامية، في كون القائد هو الذي يقود عامة الناس ويرتقي بهم نحو أهدافهم، وفي مثل ظروف الحسن عادة يكون الزعماء بين أمور:

أ - ما تطلبه الجماهير.

ب - من لا يهتم ولا يرد على أحد.

ج - عمل الصواب والحق والارتقاء بالجماهير.

(1) البخاري، كتاب: الديات رقم: 6864.

(2) روضة الطالبين (148/9) مقاصد الشريعة، ص 211.

(3) تاريخ دمشق (88/14).

(4) الطبقات، تحقيق السلمي (1/329) إسناده ضعيف جداً.

ونرى الحسن بن علي اختار الطريق الثالث وهو عمل الصواب والحق والارتقاء بالجماهير نحو الأهداف السامية التي رسمها، ولذلك قام بتقديم رؤية واضحة وخطوات تنفيذية عبر مراحل وتمهيدات، ووضع شروط وتغلب على العوائق، واهتم بإقناع المخالفين لوجهة نظره، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

رابعاً: حرصه على وحدة الأمة:

قام الحسن بن علي رضي الله عنه خطيباً في إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إنني قد أصبحت غير محتلم على مسلم ضغينة⁽¹⁾، وإنني ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا عليّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة⁽²⁾، وقد تحقق بفضل الله، ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وتجنباً للمفاسد العظيمة التي ستلحق الأمة كلها في المال إذا بقي مصراً على موقفه، من استمرار الفتنة وسفك الدماء وقطع الأرحام واضطراب المسبل، وتعطيل الثغور وغيرها، وقد تحققت - بحمد الله - وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا، حتى سمي ذلك العام عام الجماعة⁽³⁾، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته نتائج التصرفات، ولهذا الفقه مظاهره في كتاب الله وشواهد، فقد رتب المولى صلى الله عليه وآله الحكم على مقتضى النتائج والشواهد، ومثال ذلك:

1 - النهي عن سب المشركين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ آمَنُوا يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]. رغم أن سب آلهة المشركين أمر جائز لما فيه من إهانة الباطل ونصرة الحق إلا أن الشارع الحكيم لم يقف نظره واعتباره عند هذه الغاية القريبة، بل نظر إلى نتيجة هذا العمل المشروع، وما سينجر عنه من آثار غير مشروعة، ثم قضى بعدم سب آلهة المشركين سداً للذريعة سبهم لله تعالى انتقاماً لآلهتهم، وانتصاراً لباطلهم، إذ إن المصلحة التي تحصل من إهانة آلهتهم أهون بكثير من مفسدة سبهم لرَبِّ العالمين؛ والمفسدة إذا أريت على المصلحة قُدمت درء المفسدة على جلب المصلحة⁽⁴⁾.

2 - النهي عن الجهر، والمخافتة في القراءة:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110] حيث نهى

(1) الضغينة: الحقد.

(2) الأعبار الطوال، ص 200.

(3) اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص 167.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 124.

المولى ﷺ عن الجهر بالقراءة في الصلاة؛ التفافاً إلى مال ذلك إذا سمع المشركون قراءته؛ فيحطلم ذلك على سبب الله تعالى وشتم دينه وكلامه⁽¹⁾، يقول ابن عباس ؓ في سبب نزول هذه الآية: إن الكفار - يعني بمكة حين كان ﷺ مخفياً - كانوا إذا سمعوا القرآن سيّئوه ومن أنزله، ومن جاء به؛ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءة تلك فيسمع المشركون فيسيئوا القرآن ﴿وَلَا تَخَافَتْ يَهَا﴾ عن أصحابك فلا يسمعون ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾⁽²⁾.

3 - خرق الخضر للسفينة:

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَمِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 70]. الاعتداء على ملك الغير بغير حق من الأمور المحظورة على وجه القطع في الشرع، لكننا رأينا الخضر ؓ يهوي على السفينة بالخرق الذي هو في ظاهر الحال تعيب، وإلحاق للخسارة بأهلها؛ ولما أنكر عليه موسى ؓ فغله، وقرره بالجميل الذي أسداه إليهما أهل السفينة حين أركبوهما بغير أجره: - بين له أن هذه المفسدة لم تُرتكب إلا لما فيها من دفع مفسدة أعظم وهي غصب السفينة وذهابها جملة؛ حيث إن وراءهم ملكاً يأخذ كل سفينة سالمة من العيوب غصباً، ولا شك أن ارتكاب ضرر يسير في الحال إذا كان فيه دفع لمفسدة أعظم في المال؛ يعتبر أمراً محموداً؛ والشريعة جارية على ملاحظة النتائج ودفع المفاصد العظيمة المتوقعة في الآجل؛ حتى وإن كان ذلك بارتكاب مفاصد أقل منها في الحال، ثم إن مفسدة خرق السفينة وتعييبها يمكن تداركها بالإصلاح؛ بينما ذهاب ذات السفينة إذا تحقق؛ لم يتعلّق بعودتها أمل⁽³⁾.

4 - ومن مظاهر اعتبار المال في السنة النبوية وشواهد: دفع أعظم المفسدين بأدناهما،

كالاتفاقين عن قتل المنافقين:

فمن جابر بن عبد الله ؓ قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين؛ فسمعها رسول الله ﷺ، قال: «ما هذا؟» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار؛ وقال المهاجري: يا للمهاجرين؛ فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»؛ قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد؛ فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل، فقال

(1) اعتبار المآلات، ص 126.

(2) أسباب النزول، للواحدي، ص 223، 224.

(3) اعتبار المآلات، ص 126.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»⁽¹⁾، إن قتل المنافقين واستئصالهم فيه مصلحة ظاهرة للمسلمين، وتطهير لصفهم من أن تندسّ إليه عناصر التخذيل والإفساد؛ لكن لما كان في ذلك هزُّ الثقة بالمسلمين وزرع لقالة سوء عنهم بحيث ينتشر في الناس: أن النبي صلى الله عليه وسلم يعامل الذين يعتقدون دينه بالقتل والتصفية الجسدية، فإن الأمر يتغير، وأصبح التفاوضي عن قتلهم مصلحة أعلى وأولى من المصالح الأخرى التي تنأى من استئصالهم، ورغم أن بقاء المنافقين فيه من المفاسد المحققة ما لا ينكره عاقل؛ إلا أن في القضاء عليهم مفسدة أعظم من مفسدة بقائهم؛ لذا اقتضت حكمة المصطفى صلى الله عليه وسلم أن تُدفع المفسدة العظمى بالمفسدة الصغرى⁽²⁾.

ومن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات: ترك تجديد الكعبة على قواعد إبراهيم وهو ما ثبت من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قريشاً حين بنت البيت استقصرت؛ ولجعلت لها خلفاً»⁽³⁾ لما كانت الكعبة المشرفة تمثل مهوى أفئدة المؤمنين، ومجلى تاريخ النبوات الأولى، كان الأصل أن تبقى على ما تركها عليه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - لكن قريشاً حين أرادت تجديد بنائها في الجاهلية؛ لم يكن معها من المال الحلال ما يكفي لإعادة البناء إلى ما كان عليه، فانتهت لها الاستطاعة إلى تشييدها على النحو الذي كانت عليه في عهد المصطفى، وقد كانت نفس النبي صلى الله عليه وسلم تشرف إلى تدارك ما قصرت عنه نفقة قريش غير أنه ترك المصلحة المحققة في إعادة بناء البيت على قواعد الأصلية التي أسسها إبراهيم عليه السلام، خشية اهتزاز حرمة البيت من النفوس، وخوف نفور الناس من الإسلام لاعتقادهم أن ذلك جرأة على الكعبة واعتداء على حرمتها⁽⁴⁾.

إن الحسن بن علي رضي الله عنهما في فهمه العميق لفقهِ اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، كان نتيجة طبيعية لتربيته على القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، فقد كان مستوعباً لمقاصد الشريعة قادراً على التطبيق بين هدي الشريعة والواقع الفعلي الذي عاشه، فكانت اجتهاداته فريدة في مجال السياسة الشرعية، فتحت للمسلمين آفاقاً رحبة في تحقيق وحدة الأمة وتلاحم

(1) البخاري، كتاب: الضمير رقم: 4905.

(2) اعتبار المآلات، ص 138، 139.

(3) البخاري، كتاب: الحج، رقم: 1585.

(4) اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص 148، 149.

صفها، وقوة شوكتها، وإعادة دورها الحضاري، وهذا الفقه الدقيق والفهم العميق نحن في أشد الحاجة لهمه والعمل به في حياتنا المعاصرة.

فالحسن بن علي يعلمنا أصلاً عظيماً من أعظم أصول الإسلام: المحافظة على الجماعة؛ وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرقوا - وهو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية رسول الله ﷺ في مواطن عامة وخاصة⁽¹⁾. فقد قام الحسن بن علي بمحاربة التفرق والاختلاف، وعمل بالترجيحات القرآنية الهادفة لتوحيد الأمة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَمِمْوْا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَدَى مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٠﴾ يَوْمَ نَبِّئُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 103 - 106].

خامساً: مقتل أمير المؤمنين علي ؓ:

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن بن علي إلى الصلح ما روع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق، وأثر اغتياله على نفسية الحسن ؓ فترك فيها حزناً وأسى شديدين، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق، ولم يرغ الخوارج سابقته في الإسلام ولا فضائله العظيمة، ولا خدماته الجليلة التي قدمها للإسلام، فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان علي ؓ معلماً من معالم الهدى، وفارقاً بين الحق والباطل، فكان من الطبيعي أن يتأثر المسلمون لفقده ويشعروا بالفراغ الكبير الذي تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيماً، فجللهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه ؓ، وكان مقتله سبباً في تزهيد الحسن في أهل العراق، أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونسبني من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الراحل العظيم ؓ فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

سادساً: شخصية معاوية ؓ:

إن تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية - مع أن معه أكثر من أربعين ألفاً يابعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه، ولحاربه⁽²⁾، فمعاوية ؓ لم

(1) رسالة الألفة بين المسلمين، لابن تيمية، ص 27.

(2) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص 57.

يتزعم أهل الشام من فراغ، فقد ذكر المترجمون لهذا الصحابي الكريم فضائل جمّة، وإليك شيئاً منها:

1 - من القرآن الكريم:

اشترك معاوية رضي الله عنه في غزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26].

ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين، وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي صلى الله عليه وآله (1).

2 - من السنة:

دعاء الرسول صلى الله عليه وآله لمعاوية رضي الله عنه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله: «اللهم اجعله هادياً (2) مهدياً (3)، واهد به (4)». وقوله صلى الله عليه وآله: «اللهم علم معاوية الكتاب، والحساب، ووقه العذاب» (5) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا» (6). قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر (7) مففور لهم». فقلت - أي أم حرام - : أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا» (8). قال المهلب (9): في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر (10).

3 - نظرة أهل العلم لمعاوية رضي الله عنه:

أ - ثناء عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

قال لابن عباس رضي الله عنه: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه قتيبه (11).

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، خالد الفيث، ص 23.

(2) هادياً للناس، أو دالاً على الخير.

(3) مهدياً: أي مهتدياً في نفسه.

(4) صحيح سنن الترمذي للألباني (3/ 236).

(5) موارد الظمان (249/7) إسناده حسن.

(6) أوجبوا: أي: فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة، فتح الباري (6/ 121).

(7) مدينة قيصر: يعني القسطنطينية.

(8) البخاري رقم: 2924.

(9) المهلب بن أحمد الأندلسي، مصنف شرح صحيح البخاري، توفي 435 هـ.

(10) فتح الباري (6/ 120).

(11) فتح الباري (7/ 130).

ب - ثناء عبد الله بن المبارك على معاوية رضي الله عنه :

قال عبد الله بن المبارك: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم، يعني: الصحابة⁽¹⁾.

ج - ثناء أحمد بن حنبل:

سئل الإمام أحمد رضي الله عنه: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنّه خال المؤمنين، فإنه أخذها بالسيف غضباً؟⁽²⁾ قال أبو عبد الله: هذا قول سوء رديء، تجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، وتبين أمرهم للناس⁽³⁾.

د - ثناء القاضي ابن العربي على معاوية رضي الله عنه :

تحدث ابن العربي عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها: . . . قيامه بحماية البيضة، وسد الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدو، وسياسة الخلق⁽⁴⁾، وقد علق محب الدين الخطيب على هذا النص بقوله: وقد بلغ من همته - يعني معاوية - وعظيم عنايته بذلك أنه أرسل يهدد ملك الروم وهو في معمة القتال مع علي في صفين، وقد بلغه: أن ملك الروم اقترب من الحدود في جنود عظيمة⁽⁵⁾، وفي ذلك يقول ابن كثير: وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه، وأذله، وقهر جنده، ودحاهم، فلمّا رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليّ تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة، وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحنّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنّك من جميع بلادك، ولأضيّقنّ عليك الأرض بما رحبت؛ فعند ذلك خاف ملك الروم، وبعث يطلب الهدنة⁽⁶⁾.

هـ - ثناء ابن تيمية على معاوية رضي الله عنه :

قال عنه ابن تيمية: «فإن معاوية ثبت عنه بالتواتر: أنه أمره النبي صلى الله عليه وسلم، كما أمر غيره، وجاهد معه، وكان أميناً له بالوحي، وما اتهمه النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي، وولاه عمر بن الخطاب الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحقّ على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته»⁽⁷⁾.

(1) مرويات خلافة معاوية، ص 28.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 28.

(3) السنة للخلال، تحقيق عطية الزهراني (2/434).

(4) العواصم من القواصم، ص 210، 211.

(5) مرويات خلافة معاوية، ص 31.

(6) البداية والنهاية (8/119).

(7) الفتاوى (4/472)، سير أعلام النبلاء (3/129).

و - ثناء ابن كثير عليه :

قال عنه ابن كثير: وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين... فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح، وعفو، وقال أيضاً: كان حليماً⁽¹⁾، وقوراً، رئيساً، سيداً في الناس، كريماً، عادلاً، شهماً⁽²⁾. وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر رحمه الله تعالى⁽³⁾.

4 - روايته للحديث :

بعد معاوية رضي الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، لكونه صهره، وكاتبه رضي الله عنه، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً عن رسول الله، اتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة⁽⁴⁾.

وكانت سيرة معاوية رضي الله عنه مع الرعية في ولايته من خير سير الولاة مما جعل الناس يحبونه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير أئمتكم - حكامكم - الذين تحببونهم، ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، تلعنونهم ويلعنونكم»⁽⁵⁾.

5 - قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على إمارته :

عن سفيان بن الليل قال: قلت للحسن بن علي لما قدم الكوفة من المدينة: يا مدل المؤمنين، قال: لا تقل ذلك، فإني سمعت أبي يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية، فعلمت أن أمر الله واقع، فكرهت أن تهراق بيني وبينه دماء المسلمين⁽⁶⁾، وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تنذر عن كواهلها كأنها الحنظل⁽⁷⁾، فهذه آثار تشير إلى قدرة معاوية على الإمارة. كما أن أسلوب

(1) أفرد ابن أبي الدنيا، وأبو بكر بن أبي عاصم تصنيفاً في حلم معاوية.

(2) البداية والنهاية (8/118).

(3) البداية والنهاية (8/126).

(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 23.

(5) مسلم، كتاب: الإمارة رقم: 65.

(6) تاريخ دمشق (12/105).

(7) تاريخ دمشق (12/105).

معاوية في التفاوض والتعامل مع الحسن أوجد قواسم مشتركة للوصول إلى الإصلاح، وإن كان المهندس الفعلي لمشروع الإصلاح هو الحسن بن علي، إلا أن شخصية معاوية وسعة أفقه ورحابة صدره، وما أبداه من المرونة ساعد على نجاح الصلح، وقد كان رضي الله عنه يتأدب إلى الحسن ويكرمه ويروي فضائل أهل البيت، فهذا يدل على إثارته الحق مع المنازعة والمخاصمة التي سبقت بقدر الحق سبحانه⁽¹⁾، وقد أخرج أحمد في مسنده عن معاوية قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمصر لسان الحسن وشفثه وإنه لن يعذب الله لساناً أو شفة مصها رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽²⁾.

وكان رضي الله عنه صريحاً مع نفسه معترفاً بذنوبه، طالباً مغفرة ربه، وطامعاً في رحمته وحلمه، فعن ابن شهاب، عن عروة: أن المسور أخبره أنه قدم على معاوية، فقال: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا، وأحسن فيما جئنا له. قال: لتكلمني بذات نفسك مما تعيب علي؟ قال: فلم أترك شيئاً إلا بيّنته، فقال: لا أبرأ من الذنب فهل تعدُّ لنا مما نلي من الإصلاح في أمر العامة، أم تعدُّ الذنوب، وتترك الإحسان؟ قلت: نعم. قال: فإننا نعتز بالله بكل ذنب، فهل لك من ذنوب في خاصيتك تخشاها؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقُّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما نلي، ولا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على سواه، وإني لعلي دين يقبل فيه العمل، ويُجزى فيه بالحنات، قال: فعرفت أنه قد خصمني، قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه⁽³⁾ - أي دعا له -.

والحديث عن معاوية بالتفصيل سوف يأتي بإذن الله تعالى، إن أعطانا الله القوة ويسر الأسباب بمنه وكرمه وجوده في حديثنا عن الدولة الأموية، ومع هذه النية الميثة للحديث عن معاوية رضي الله عنه بالتفصيل، فلا يمنع من ذكر هذه القصة التي تبين خوفه وخشيته من الله تعالى، فعندما كان يروي في مجلسه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، من أمة محمد القارئ المراني، والمنفق المراني، والمجاهد المراني، ويؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذلك وقال لأبي هريرة: «يا أبا هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»⁽⁴⁾، فكان معاوية يقول عندما يسمع هذا الحديث: فقد فعل هؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ فقال الراوي: ثم بكى معاوية بكاء شديداً، حتى ظننا أنه هالك، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا نُوفِيَ

(1) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص 57.

(2) المسند رقم: 16848 إسناده صحيح. (3) سير أعلام النبلاء (3/392).

(4) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني رقم: 1713.

إِنَّهُمْ أَصْلَهُمْ فِيهَا وَمُرَّ فِيهَا لَا يُحْسُونَ ﴿١٥﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الشَّكْرُ وَحَسِبْتُ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَكَبَلْتُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١﴾ [هود: 15 - 16].

إن شخصية معاوية رضي الله عنه وتاريخه في خدمة الإسلام كان عاملاً مهماً في نجاح الصلح، ولا نزعم بأنه من طبقة الخلفاء الراشدين المهديين، ولكنه من الملوك العادلين، كما أن سيرته غنية بالفقه السياسي والإداري والعسكري، والاقتصادي والاجتماعي، وهذا يحتاج إلى دراسة متأنية لعصره، ونسأل الله أن يوفقنا إلى ذلك.

سابعاً: اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة:

كان لخروج الخوارج أثر في إضعاف جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، كما أن الحروب في الجمل وصفين والنهروان، تسببت في ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام في صفين، فإن حربهم ليست كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت من الأطفال ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم، ولولا الصلح أو التحكيم الذي رحب به أمير المؤمنين علي وكثير من أصحابه لكانت مصيبة علي العالم الإسلامي لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع علي رضي الله عنه إلى الشام مرة أخرى أحب إلى فريق منهم وتعليل إليه نفوسهم وإن كانوا يعلمون أن علياً علي حق ⁽²⁾.

ومن المعضلات التي أوهنت جانب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: خروج فرقة تغالي في تعظيم أمير المؤمنين علي وترفعه إلى مقام الألوهية، حتى بدا للبعض أن هذا رد فعل للخوارج الذين يتبرؤون من علي ويكفرونه ⁽³⁾، ولكن هؤلاء كان مقصدهم سيئاً، وهو إدخال معتقدات فاسدة على المسلمين لهدم الدين وإضعاف المسلمين عامة وليس جيش علي فقط ⁽⁴⁾، ولقد تصدى لهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - كما بينا - بحزم وقوة، ولا شك أن مباينة الخوارج وقتلهم أضعف جانب علي كثيراً.

ثم تابعت الفتوق على علي من بعد، فخرج الخريت بن راشد - وقيل اسمه الحارث بن راشد - في قومه من بني ناجية، وكان من ولاية علي على الأهواز، فدعا إلى خلع علي، فأجابه خلق كثير واحتوى على البلاد وجبى الأموال، فبعث إليه علي جيشاً بقيادة معقل بن قيس الرياحي فهزمه وقتله ⁽⁵⁾.

(1) النهاية في الفتن والملاحم (2/ 52).

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد علي، ص 345.

(3) نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، ص 15، 16، مصطفى حلمي.

(4) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص 350.

(5) تاريخ الطبري (6/ 27 - 47).

وطمع أهل الخراج في ناحية علي في كسر الخراج، وانتفض أهل الأهواز، ولا بد أن علياً واجه من أجل ذلك بعض الصعوبات المالية والعسكرية، وقد روي عن الشعبي في هذا الخصوص قوله: لما قتل علي أهل النهروان، خالفه قوم كثير، وانتفضت عليه أطرافه، وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن الحضرمي البصرة، وانتفض أهل الأهواز، وطمع أهل الخراج في كسره، وأخرجوا سهل بن حنيف عامل علي بن أبي طالب من فارس⁽¹⁾ وقد استلم الحسن رضي الله عنه الخلافة، وجيش العراق مضطرب وأهل الكوفة مترددون في أمرهم.

وقد جاء في المجتبى لابن دريد: قام الحسن بعد موت أبيه فقال: والله ما ثننا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في متدبكم إلى صفين دينكم أمام دنياكم، فأصبحتم ودنياكم أمام دينكم، ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين؛ قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نَصْفَة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وإن أردتم الحياة قبلناه. قال: فناداه القوم من كل جانب: التقي التقي، فلما أفرده، أمضى الصلح⁽²⁾.

وإني وإن كنت أشك في صحة نسبة هذه الخطبة ولكنها تصور نفسية سيدنا الحسن وأتباعه، مما عجل بالصلح بينه وبين معاوية⁽³⁾ رضي الله عنه.

وقد تحدث الحسن عن ما فعله به بعض أهل العراق وما قدموا إليه من الإساءات والإهانات، وأظهر القول وجهه به فقال: أرى والله معاوية خيراً لي من هؤلاء، يزعمون أنهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وأخذوا مالي، والله لأن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به في أهلي خير من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي وأهلي، والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوا بي إليه مسلماً، والله لئن أسالته وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمن عليّ فيكون منة على بني هاشم آخر الدهر، وللمعاوية لا يزال يمنٌ بها وعقبه على الحي منا والميت⁽⁴⁾.

وقال أيضاً: عرفت أهل الكوفة وبلوتهم، ولا يصلح لي من كان منهم فاسداً، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل، إنهم مختلفون ويقولون لنا إن قلوبهم معنا، وإن سيوفهم لمشهورة علينا⁽⁵⁾.

(1) تاريخ الطبري (53/6). (2) سير أعلام النبلاء (3/269).

(3) الدوحة النبوية الشريفة، ص 93.

(4) الشيعة وأهل البيت، ص 379، نقلاً عن: الاحتجاج للطبرسي، ص 148.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 376، نقلاً عن: الاحتجاج للطبرسي، ص 148.

فالحسن لم يعد يثق بأهل الكوفة بعدما فعلوه بأبيه، وبعد أن حاولوا قتله وأنهبوا متاعه، وقد عبر عن ذلك في خطبته عندما قال: يا أهل العراق، لو لم تذهل نفسي⁽¹⁾ عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي، وانتهابكم ثقلي، أو قال: ردائي عن عاتقي⁽²⁾.

وقيل للحسن: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثقُ بهم أحد أبداً إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر، لقد نقي أبي منهم أموراً عظيماً، فليت شعري لمن يصلحون بعدي⁽³⁾.

وهذا ليس على إطلاقه، فجيش الحسن يمكن تقويته، كما أنه هناك فصائل منه على استعداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة.

ثامناً: قوة جيش معاوية رضي الله عنه:

وفي الجانب الآخر كان معاوية رضي الله عنه يعمل بشتى الوسائل سراً وعلانية على إضعاف جانب أهل العراق منذ عهد علي رضي الله عنه فاستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه سيطر عليها وضمها إليه، وقد ساعده على ذلك عدة عوامل منها:

- 1 - انشغال أمير المؤمنين علي بالخوارج.
- 2 - عامل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على مصر محمد بن أبي بكر لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد بن عبادة الساعدي الأنصاري، فدخل في حرب مع المطالبين بدم عثمان، ولم يسايسهم كما كان يصنع الوالي السابق فهزموه.
- 3 - اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان في مصر في الرأي فساعده في السيطرة عليها⁽⁴⁾.
- 4 - بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقربها من الشام.
- 5 - طبيعتها الجغرافية، فهي متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعياً لها، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية رضي الله عنه - قوة بشرية واقتصادية كبيرة - وكذلك أرسل أمير المؤمنين علي من يصدها⁽⁵⁾.

(1) تذهل نفسي: تسلو نفسي، لسان العرب (11/259).

(2) الطبقات، تحقيق السلمي (1/324) إسناده حسن.

(3) الكامل في التاريخ (2/448).

(4) الطبقات لأين سعد (3/839) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص 351، سنده صحيح.

(5) تاريخ خليفة، ص 198، بدون سند.

وعمل معاوية رضي الله عنه على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال علي رضي الله عنه - فقد حاول سحب قيس بن سعد رضي الله عنه عامل علي على مصر إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية علي ومستشاريه فيه فعزله (1)، وكان عزل سعد بن قيس مكسباً كبيراً لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل علي رضي الله عنه على فارس ففشل في ذلك (2)، وقد استطاع معاوية رضي الله عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمتيهم ويعدهم، ولما يروه من علو أمره وتفرق أمر علي رضي الله عنه، حتى إنه قال في إحدى خطبه: ألا إن بسراً قد اطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدانتهم الأمانة وبخيانتكم، استعملت فلاناً فقتل وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلاناً فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو اتمنت أحدهم على قدح خشب على علاقته، اللهم إني أبغضتهم وأبغضوني، فأرحهم مني وأرحني منهم (3).

واستمر معاوية رضي الله عنه في الاتصال بالأعيان والزعماء في العراق حتى بعد مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقد اجتمعت لمعاوية رضي الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تحرجه في دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة.

- شروط الصلح:

تحدثت الكتب التاريخية والمصادر الحديثة وأشارت إلى حصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتاب التاريخ، وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها، واستثناساً إلى ما وصلوا إليه نحاول ترتيبها على وفق ما وصل إليه اجتهادي مع التعليق على كل مادة من مواد الصلح بما يناسبها:

أولاً: العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء:

ورواية البخاري ذكرت: أن الحسن ما سأل الوقد (عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر) شيئاً إلا قالوا له: نحن لك به، والتذكير بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الراشدين يتناسب مع الحالة التي تم فيها الصلح، وهو نوع من التذكير والإلزام لمعاوية بالمسير على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين، ولا نوافق ما ذهب إليه بعض المؤرخين

(1) الاستيعاب (2/ 525 - 526).

(2) ولاية مصر، ص 45 - 46.

(3) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 125) بسند منقطع وله شواهد.

ومنهم أستاذي وشيخي الدكتور محمد بطاينة في كون إيراد ذلك ضمن شروط الصلح تعريض من الرواية بمعاوية واتهامه بمجافاة ذلك، مما يعني أن يكون هذا الشرط من شروط الصلح بين الجانبين⁽¹⁾.

وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن حجر الهيثمي حيث ذكر صورة الصلح بين الحسن ومعاوية وجاء فيها: .. صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين⁽²⁾، وحتى بعض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط، وهذا دليل على توقيف الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل من إحدى الشروط على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: أنه يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفاء الراشدين⁽³⁾ - وفي النسخة الأخرى - الخلفاء الصالحين⁽⁴⁾، ففي هذا الشرط ضبط لدولة معاوية في مرجعيتها ومنهجها في الحياة، ونفهم من هذا الشرط أموراً منها:

1 - مصادر التشريع في عهد الخلافة الراشدة:

أ - القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْغَافِلِينَ حَصِيماً﴾ [النساء: 105].

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها.

ب - السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه الدستور الإسلامي أصوله ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية لأحكام القرآن⁽⁵⁾، وقد أمر المولى صلى الله عليه وآله بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله حيث قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]. وقد بين المولى صلى الله عليه وآله خطورة من يخالف أمر الرسول صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 83].

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 68.

(2) الصواعق المحرقة (2/399).

(3) الشيعة وأهل البيت، ص 54.

(4) متهمي الآمال (ج2/212) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص 54.

(5) فقه التكمين في القرآن الكريم، للصلاحي، ص 432.

ونفي الخيار عن المؤمنين إذا صدر حكم عن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 38].

وقد أمر المولى عليه السلام بالرد إلى الرسول عند النزاع، قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]. وجعل الرد إلى الرسول ﷺ عند النزاع من موجبات الإيمان ولوازمه، قال تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 59].

فكان من الطبيعي أن تكون السنة المطهرة من مصادر التشريع في عهد الخلافة الراشدة.

إن دولة الخلافة الراشدة خضعت للشريعة وكانت سيادة الشريعة الإسلامية فيها فوق كل تشريع وفوق كل قانون، وأعطت صورة مضيئة مشرقة على أن الدولة الإسلامية دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكام هذه الشريعة، والحاكم فيها مقيد بأحكام لا يتقدم ولا يتأخر عنها⁽¹⁾. ففي عهد الخلافة الراشدة وفي مجتمع الصحابة، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا قيد الصديق طاعته التي طلبها من الأمة بطاعة الله ورسوله فقال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم⁽²⁾.

2 - أهمية ستة الخلفاء الراشدين:

كان الحسن رضي الله عنه علي رضي الله عنه - كما مر معنا - مستوعباً لعهد الخلافة الراشدة، وقد ذكرنا أهم الدروس والعبر والفوائد التي استفاد منها من عهد الصديق والفاروق وذي النورين، ووالده علي رضي الله عنه أجمعين، فالعهد الراشدي تنجلي أهميته بصلته بالعهد النبوي وقربه منه، فكان العهد الراشدي امتداداً للعهد النبوي، مع المحافظة الكاملة والثامة على جميع ما ثبت في العهد النبوي، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه، والسير في ركابه والاستمرار في الالتزام به، كما أن العهد الراشدي وضع التنظيمات الجديدة المتعلقة بمؤسسات الدولة لترسيخ دعائمها ومواجهة المستجدات المتنوعة، على أصول قواعد الشورى، وحدثت اجتهادات جديدة في مجالات متعددة استفادت الدولة والأمة الإسلامية منها، ويكفي للبرهان على أهمية عهد الخلافة الراشدة للحكام المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قول رسول الله ﷺ: «عليكم بستي وستة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»⁽³⁾، وقول رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»⁽⁴⁾.

(1) نظام الحكم في الإسلام، ص 227.

(2) البداية والنهاية (306/6).

(3) سنن أبي داود (201/4)، الترمذي (44/5) حسن صحيح.

(4) صحيح سنن الترمذي للالباني (200/3).

3 - من معالم الخلافة الراشدة:

أ - كان خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام ينطلقون من حكمهم وتصرفاتهم ورعايتهم لأمر الدولة ومعالجتها للأحداث من الإسلام وباسم الإسلام، وشورى من المسلمين.

ب - لم يتول أحد منهم أمر المسلمين بفرض نفسه عليهم، أو يفرضه من قبل من سبقه في رئاسة الدولة، بدءاً من أبي بكر وانتهاء بعلي، بل كان كل ذلك بشورى من المسلمين، ولكن هذه الشورى قد اتخذت صوراً متعددة، مما يدل على أن الإسلام لم يفرض كيفية معينة لاختيار الخليفة، بل إن ذلك متروك.

ج - بعد الاختيار المنبثق من الشورى تتم مبايعة الخليفة علناً ولا يُلتفت لما قد يحصل من مخالفة البعض، فالعبرة بما تراه غالبية الأمة وسوادهم الأعظم، ثم إذا حصلت البيعة لا يجوز نقضها إلا حين يكون كفوفاً بواحاً.

د - الأمة مسؤولة عن محاسبة الخليفة في كل تصرفاته، بدءاً من الشؤون المالية وانتهاء بشؤون السياسة والحكم والولاية، ولكن ذلك ضمن أطر حددها الإسلام، ويتم ذلك عن طريق أهل الحل والعقد، ولا يجوز للأمة أن تثور بشكل غوغائي لأن ذلك يؤدي إلى الفتنة وانتشار الإشاعات كما حدث في فتنة عثمان رضي الله عنه (1)، ومبدأ محاسبة الحاكم وحق الأمة في مراقبته قرره الخلفاء الراشدون بأقوالهم وأفعالهم؛ فأبو بكر رضي الله عنه يقول: فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني (2)، وعمر يقول: أحب الناس إلي من رفع إلي عيبي (3)، وقال: إني أخاف أن أخطئ فلا يردي أحد منكم تهيئاً (4)، وما قاله عثمان: إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد فضعوا رجلي في القيد (5)، وقال علي رضي الله عنه: إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم إلا أنه ليس لي أمر دونكم (6).

وقد جرى العمل في عهد الخلفاء الراشدين على التسليم للأمة بحق الرقابة على الحكام، ولم ينكره أحد فدل ذلك على الإجماع (7)، كما أن إجماع الصحابة - حكاماً ومحكومين في

(1) الخلفاء الراشدين أعمال وأحداث، د. أمين القضاة، ص 13.

(2) البداية والنهاية (8/305).

(3) الشيخان أبو بكر وعمر ومن رواية البلاذري، ص 231.

(4) الشيخان أبو بكر وعمر ومن رواية البلاذري، ص 231، نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين، ص 198.

(5) مستد أحمد الموسوعة الحديثية رقم: 524، ثبت إسناده إلى عثمان.

(6) تاريخ الطبري (5/449، 457).

(7) الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، فتحي عبد الكريم، ص 378.

عهد الخلافة الراشدة - له معنى واحد وهو الفهم الصحيح للكتاب، والطريق السليم للعمل بالسنة⁽¹⁾.

هـ - للخليفة أن يقوم بما يراه من إجراءات تنظيمية فيما لا نص فيه تحت شعار: المصالح المرسلة، وفي ظلال الشورى حسب ما يراه مناسباً لتحقيق المصلحة العامة.
كما فعل أبو بكر في جمع القرآن، وكما فعل عمر في أرض السواد وقضاياه التنظيمية، كديوان الجند والخراج، وعثمان في نسخه للمصحف وتوزيعه على الأمصار.

و - اختلاف علماء الأمة وعظماؤها أمر طبيعي، ولكن في ظلال الأخوة والتناصح والبحث عن مصلحة الأمة، فتفاوت العقول يؤدي إلى تفاوت الآراء واختلاف وجهات النظر، كما حصل في سقيفة بني ساعدة، وحروب الردة، وجمع القرآن، ويجب أن لا يصل ذلك إلى تفرق الأمة وتنازعها، فذلك مؤد إلى الفشل، لا محالة، والحكم في ذلك كتاب الله وستة نبيه ﷺ⁽²⁾.

ز - يمكن اختزال ملامح الخلافة الراشدة في النظام السياسي إلى المرجعية العليا للكتاب والسنة. حكم الشريعة - دولة القانون - ولكنه السماوي، والتطبيق الشامل له، الحاكم منتخب، الحاكم أجير، بيت المال للأمة وليس للحاكم، نظام الشورى الشاملة، وله آلية تراضي بين أفراد المجتمع، الأمة فاعلة ومشاركة في الأحداث.

وأما في البناء الاجتماعي: تميز عهد الخلافة الراشدة في مجمله بالإعداد النفسي الإيماني، وقوة الوازع الداخلي، ومحاربة العنصرية؛ والإعداد الشامل للإنسان المسلم، وحماية حقوق الإنسان عموماً، وحماية الوحدة الداخلية، وحماية حدود الدولة، والمسؤولية الحضارية على الجميع حكماً ومحكومين، فهذه هي المفاهيم الأساسية في الدولة الإسلامية والتي أصبحت نموذجاً ومقياساً لكل العصور، وعبر عنه المسلمون بلفظ الخلافة الراشدة تمييزاً له عن أي شكل آخر من أشكال الحكم الأخرى⁽³⁾، ولذلك اشترط الحسن بن علي في صلحه مع معاوية رضي الله عنه العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين.

ثانياً: الأموال:

ذكر البخاري في صحيحه أن الحسن قال لو قد معاوية عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله ابن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالوا: نحن

(1) علي بن أبي طالب، للصّليبي (1/345).

(2) المصدر السابق نفسه (1/345).

(3) الذّاكرة التاريخية للأمة، د. قاسم محمد، ص 70.

لك به⁽¹⁾، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب، يريد الحسن: أن لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم⁽²⁾.

وذكر ابن أعثم أن الحسن قال: أما المال فليس لمعاوية أن يشترط لي فيء المسلمين⁽³⁾، وذكر أبو جعفر الطبري برواية عوانة بن الحكم: أن أهل البصرة حالوا بين الحسن وبين خراج دارابجرد، وقالوا: فيتنا⁽⁴⁾، والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة في هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دارابجرد لم يكن في الأموال التي صيرت إلى الحسن⁽⁵⁾.

وُروي أن الحسن قال لمعاوية: إن عليّ عِدَات ودُيوناً، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمئة ألف أو أكثر⁽⁶⁾، وذكر ابن عساكر: يُسلم له بيت المال فيقضى منه ديونه ومواعيده التي عليه، ويحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته⁽⁷⁾، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إيقاعه ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزعه بينهم، ويبقى لمعيته له ولأهل بيته ولأصحابه⁽⁸⁾، ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر.

إن الذي جاء في رواية البخاري هو الذي أميل إليه، فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التي أصابها الحسن وآله في الأيام الخالية⁽⁹⁾.

وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم، وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على بني عبد شمس⁽¹⁰⁾، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة⁽¹¹⁾.

(1) البخاري، كتاب: الصلح رقم: 2704.

(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 64.

(3) الفتح (293/3). (4) تاريخ الطبري (5/165).

(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 64.

(6) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص 7. (7) تاريخ دمشق (14/90).

(8) في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص 268.

(9) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 64.

(10) الأخبار الطوال، ص 218.

(11) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 63.

وأما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات⁽¹⁾.

ثالثاً: الدماء:

ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء في رواية البخاري أن الحسن قال لوفد معاوية: . . . وأن هذه الأمة عاثت في دمايتها، فكفل الوفد للحسن العفو للمجتمع فيما أصابوا من الدماء⁽²⁾.

ولكن الرواية عن الزهري ذكرت أن عبيد الله بن عباس قائد جيش الحسن لما علم بما يريد الحسن من معاوية، بعث إلى معاوية يسأله الأمان، وشرط لنفسه على الأموال التي قد أصاب، ثم خرج إليهم ليلاً ولحق بهم، وأن قيس بن سعد الذي خلفه على الجيش تعاهد والجيش على قتال معاوية حتى يشترط لشعبة علي ولمن كان اتبعه على أموالهم ودمائهم⁽³⁾.

وقد حاول المستشرق فلهوزن أن يلصق هذه التهمة الباطلة بعبد الله بن عباس، وذكر أن قائد الجيش كان عبد الله بن عباس، واستند فلهوزن في ذلك إلى أن الاسم الذي ورد في بعض النسخ المخطوطة من تاريخ الطبري هو عبد الله بن عباس، وأن الاختلاف بين المخطوطات في عبد الله وعبيد الله ليس مرجعه إلى النسخ وإنما إلى الرواة الذين لم يريدوا أن يُلحق هذا العار بعبد الله بن عباس جد العباسيين، وأما أخوه عبيد الله فلم يروا بأساً من التخلي عن الدفاع عنه⁽⁴⁾.

والحقيقة التاريخية تقول: أن قائد الجيش كان الحسن بن علي، وأن قائد مقدمته كان قيس بن سعد ولا ذكر لعبد الله بن عباس أو أخيه عبيد الله في هذا الجانب⁽⁵⁾ إلا في الروايات الضعيفة، والتي لا يقوم عليها دليل، كما أنه مما ورد عند أبي حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال⁽⁶⁾، وابن حجر في المطالب العلية⁽⁷⁾، وابن أعثم في الفتح⁽⁸⁾، أن قطب الرحى في الجيش كانا الحسن بن علي وقيس بن سعد، ولا ذكر لعبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس⁽⁹⁾.

وتأكيد فلهوزن على أن عبد الله بن عباس كان قائداً للجيش لا عبيد الله واحتجاده على

- (1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 63. (2) البخاري، كتاب: الصلح (2/963).
- (3) تاريخ الطبري (5/163 - 164).
- (4) تاريخ الدولة العرية، ص 103 - 106.
- (5) تاريخ الطبري (5/159 - 160).
- (6) الأخبار الطوال، ص 217.
- (7) المطالب العلية (4/318، 319).
- (8) الفتح (3/289).
- (9) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 66.

ذلك بما سبق الإشارة إليه، يخالفه ما نقله زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة بن الحكم الذي لا يتهم بمحاربة العباسيين قال: إن عبيد الله بن عباس كان والياً لعلي على اليمن، ولما بلغه مسير بسر بن أرطاة إليه استخلف على اليمن عبيد الله بن عبد المدائش الحارثي وهرب إلى علي بالكوفة، وذلك عام أربعين للهجرة، وأرسل علي بن أبي طالب جيشاً إلى اليمن يتعقب جيش بسر، وقتل علي في نفس العام، ولم يرد ما يشير إلى أن عبيد الله بن عباس ترك الكوفة إلى اليمن⁽¹⁾.

وسواء كان قائد الجيش عبد الله بن عباس أو عبيد الله أو غيرهما فإن دواعي اتصال قائد جيش الحسن بمعاوية وطلب الأمان منه غير قائمة، فجيش الحسن قوي وممتنع كما جاء عند البخاري، والاتصالات بين الحسن وقيادته موجودة نقلاً وعقلاً، والحسن ولي الأمر ورأسه، وقد جرت المفاوضات بينه وبين وفد معاوية وأخذ الأمان لأتباعه ومن كان في جانبه فضلاً عن بني العباس وغيرهم من بني المطلب بشأن الدماء والأموال، وأعلم الحسن قيادته بالصلح وتنازله عن الخلافة لمعاوية، وأمرهما بالدخول في الجماعة ومبايعة معاوية، ولما رأى قيس ومن معه أنهم لم يعودوا مع إمام مفترض الطاعة، تركوا القتال وبايعوا معاوية، ودخلوا في الجماعة⁽²⁾، ولكن في رواية الزهري ثناء علي قيس دون الحسن وولدي العباس من غير ما ضرورة⁽³⁾.

إن الحسن بن علي اشترط علي معاوية: أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء⁽⁴⁾، والذي يلاحظه المؤرخ: أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان⁽⁵⁾، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي وهي قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضي، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل⁽⁶⁾، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية، حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، تأليفاً لقلوب الجماعة، خاصة وأنه كان بالخيار، وهذا هو العمل العظيم الذي قام به الحسن، حيث أعاد للأمة وحدتها ولحمتها من

(1) تاريخ الطبري (5/ 139 - 140) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 66.

(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 67.

(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 67.

(4) التبيين في أنساب القرشيين، ص 127.

(5) الخلفاء الراشدين، للنجار، ص 482.

(6) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص 341.

جديد، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء في عهد معاوية إلى حد كبير، وقد اجتهد في قضايا سيأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى.

رابعاً: ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين:

قيل: ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن⁽¹⁾، وإن معاوية وعد إن حدث به حدثٌ والحسن حي لِيُسَمِّيَهُ وليجعلنَّ الأمر إليه⁽²⁾، ولكن ابن أعمش روى في هذا الخصوص عن الحسن أنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب في ذلك ولو أردت هذا الأمر لم أسأله⁽³⁾.

وجاء في نص الصلح الذي ذكره ابن حجر الهيثمي: . . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين⁽⁴⁾، وعند التدقيق في روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء مرضاة الله ثم يوافق على أن يكون تابعاً يتطلب أسباب الدنيا، وتشرّب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن نضير قال: قلت للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقد كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمته، ويحاربون من حاربت، فتركته ابتغاء مرضاة الله⁽⁵⁾.

ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئاً من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بعد معاوية، لاتخذها الحسين ابن علي رضي الله عنه حجة، ولكن لم نسمع شيئاً من ذلك على الإطلاق مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة، ولو كان الحسن رضي الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً بعد معاوية من إدارة الدولة أو تولي إحدى الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شؤون الحكم، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى أنّ مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

- سب أمير المؤمنين علي بين معاوية والحسن:

تذكر كتب التاريخ أنّ الحسن رضي الله عنه اشترط على معاوية ألا يُسبَّ عليٌّ وهو يسمع، وكان الحسن عفا عن سب علي رضي الله عنه وهو لا يسمع، ولذلك قال أستاذه وشيخي الدكتور محمد

(2) سير أعلام النبلاء (3/264).

(4) الصواعق المرسله (2/299).

(1) فتح الباري (13/70).

(3) الفتوح (3، 4/293).

(5) البداية والنهاية (11/206).

بظاينة: فقد لا تكون هذه القضية بحثت بين الحسن و معاوية⁽¹⁾، وقد اتهم الشيعة معاوية رضي الله عنه بحمل الناس على سب علي ولعته فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المسلمات التي لا مجال لمناقشتها، ولم يثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري واليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء⁽²⁾ من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطوق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين.

فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً. وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كُتّاب الشيعة الروافض، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والتمن من الاعتراض، ومعلوم وزن مثل هذه الدعوى عند المحققين والباحثين، فكيف بها وقد صدرت من الروافض، ومعاوية رضي الله عنه متزه عن مثل هذه التهم، بما ثبت من فضله في الدين، وكان محمود السيرة في الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير⁽³⁾:

1 - فمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لما ولّاه الشام: لا تذكروا معاوية إلا بخير⁽⁴⁾.

2 - وعن علي رضي الله عنه قال بعد رجوعه من صفين: أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل⁽⁵⁾.

3 - وعن ابن عمر أنه قال: ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسود⁽⁶⁾ من معاوية، فقيل: ولا أبوك؟ قال: أبي عمر - رضي الله عنه - خير من معاوية، وكان معاوية أسود منه⁽⁷⁾.

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 68.

(2) الحسن والحسين، محمد رضا، ص 18، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.

(3) الانتصار للصحب والآل، ص 367، للرحيلي.

(4) البداية والنهاية (25/8).

(5) المصدر السابق نفسه (134/8).

(6) من السيادة وسمي سيذاً لأنه يسود سواد الناس، لسان العرب (229/3).

(7) السنة للخلال (443/1) سير أعلام النبلاء (152/2).

4 - وعن ابن عباس قال: ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية⁽¹⁾، وفي صحيح البخاري أنه قيل لأبن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه فقيه⁽²⁾، وذكر عند ابن عباس معاوية، فقال: لله در ابن هند ما أكرم حسبه، وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضئاً منه بأحسابنا وحسبه⁽³⁾.

5 - وعن عبد الله بن الزبير أنه قال: لله در ابن هند - يعني معاوية - إنا كنا لنفرقه⁽⁴⁾، وما الليث على يرأته بأجرأ منه، فيتفارق لنا، وإن كنا لتخدعه وما ابن ليلى من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا الجبل حجر، وأشار إلى أبي قبيس.

6 - وعن الزهري قال: عمل معاوية بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يخرم منها شيئاً. والآثار عن الصحابة والتابعين وأتباعهم كثيرة وإنما ذكرنا جزءاً منها.

كما أثنى على معاوية رضي الله عنه العلماء المحققون في السير والتاريخ، ونقاد الرجال:

1 - يقول ابن تيمية رحمته الله: وافق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة⁽⁵⁾. وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خير من معاوية، ولا كان الناس زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمان معاوية⁽⁶⁾.

2 - وقال ابن كثير في ترجمة معاوية رضي الله عنه: وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين. فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح ورفق⁽⁷⁾.

3 - وقال ابن أبي العز الحنفي: وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين⁽⁸⁾.

4 - وقال الذهبي في ترجمته: أمير المؤمنين ملك الإسلام⁽⁹⁾. وقال: معاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم⁽¹⁰⁾.

وإذا ثبت هذا في حق معاوية رضي الله عنه فإنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن

(1) البداية والنهاية (8/137).
(2) البخاري رقم: 3765.
(3) تاريخ دمشق (62/128، 129).
(4) مجموع الفتاوى (4/478).
(5) منهاج السنة (6/232).
(6) شرح العقيدة الطحاوية، ص 722.
(7) البداية والنهاية (8/122).
(8) شرح العقيدة الطحاوية، ص 722.
(9) المصدر السابق نفسه، (3/120).
(10) سير أعلام النبلاء (3/120).

يحمل الناس على لعن علي عليه السلام على المتابر وهو من هو في الفضل، وهذا يعني أن أولئك السلف وأهل العلم من بعدهم الذين أثنوا عليه ذلك الثناء البالغ، قد مالؤوه على الظلم والبغي واتفقوا على الضلال⁽¹⁾، وإن هذا من البهتان العظيم لأولئك العلماء من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من العلماء الربانيين، ومن علم سيرة معاوية رضي الله عنه في الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية رضي الله عنه في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال⁽²⁾، وإليك بعض الأمثلة:

1 - قال عبد الملك بن مروان وقد ذكر عنده معاوية: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه⁽³⁾.

2 - وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حليماً، ولا أكثر سودداً، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية⁽⁴⁾.

3 - وتقل ابن كثير: أن رجلاً أسمع معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه؟ فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي⁽⁵⁾.

4 - وقال رجل لمعاوية: ما رأيت أنذل منك، فقال معاوية: بلى من واجه الرجال بمثل هذا⁽⁶⁾، فهل يعقل بعد هذا أن يسع حلم معاوية رضي الله عنه سفهاء الناس وعامتهم المجاهرين له بالسب والشتم، وهو أمير المؤمنين، ثم يأمر بعد ذلك بلعن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام على المتابر، ويأمر ولاته بذلك في سائر الأمصار والبلدان - ويبقى هذا السب إلى أن يأتي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيلغي ذلك؟! والحكم في هذا لكل صاحب عقل وفهم⁽⁷⁾.

وأما ما استدل به الإمامية على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس فيه ما يدل على زعمهم، فمن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم⁽⁸⁾. قال النووي: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعاً أو خوفاً، أو غير ذلك، فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب فأنت مصيب

(1) البداية والنهاية (8/138).

(2) المصدر السابق نفسه (8/138).

(3) المصدر السابق نفسه (8/138).

(4) المصدر السابق نفسه (8/138).

(5) البداية والنهاية لابن كثير (8/138).

(6) المصدر السابق نفسه (8/138).

(7) الانتصار للصحب والآل، ص 372.

(8) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة (4/1871).

محسن، وإن كان غير ذلك فله جواب آخر، ولعل سعد قد كان في طائفة يسبون فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أو أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال.

قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه: ما منعك أن تخطك في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ⁽¹⁾!

وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم معلقاً على وصف ضرار الضدائي لعلي رضي الله عنه وثنائه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال: وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل علي رضي الله عنه ومنزله، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبه، لما كان معاوية موصوفاً به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق، وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن نسب أبا تراب؟ وهذا ليس بتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج ما عنده من ذلك، أو من تقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه⁽²⁾.

قال الدكتور إبراهيم الرحيلي صاحب الكتاب النفيس القيم (الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال): والذي يظهر لي في هذا والله أعلم: أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي رضي الله عنه فإن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً فطناً ذكياً، يحب مطارحة عقول الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي رضي الله عنه فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله رضي الله عنه لابن عباس: أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽³⁾. فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادّعى الإمامية من الأمر بالسب، فحاشا معاوية رضي الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك⁽⁴⁾، والمانع من هذا عدة أمور:

1 - أن معاوية نفسه ما كان يسب علياً رضي الله عنه كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظماً له، معترفاً له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه.

أ - قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على

(1) شرح صحيح مسلم (15/175).

(2) المفهم للقرطبي (6/278).

(3) الإبانة (1/355)، شرح أصول اعتقاد الألكائي (1/94).

(4) الانتصار للصحب والآل، ص 374.

معاوية فقالوا له: هل تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني⁽¹⁾.

ب - ونقل ابن كثير أيضاً عن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبير قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدريين ما فقد الناس من الفضل والفقہ والعلم⁽²⁾، فهل يسوغ في عقل ودين أن يسب معاوية علياً بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا⁽³⁾!!

2 - أنه لا يعرف بنقل صحيح أن معاوية رضي الله عنه - تعرض لعلي رضي الله عنه - بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

3 - أن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً ذكياً مشهوراً بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب علي - حاشاه ذلك - أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو من هو في الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله في الفتنة أصلاً؛ فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيراً، فكيف بمعاوية.

4 - أن معاوية رضي الله عنه انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه له، واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك، فأبي نفع له في سب علي؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضي عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتكفين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية رضي الله عنه الذي شهدت له الأمة بحسن السياسة والتدبير.

5 - أنه كان بين معاوية رضي الله عنه بعد استقلاله بالخلافة وأبناء علي من الألفة والتقارب، ما هو مشهور في كتب السير والتاريخ⁽⁴⁾، ومن ذلك: أن الحسن والحسين وقدا علي معاوية فأجازهما بمائتي ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي، فقال له الحسين: ولم تعط أحد أفضل من⁽⁵⁾، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمر له بثلاثمائة ألف⁽⁶⁾. وهذا مما يقطع الكذب ما يدعى في حق معاوية من حمله الناس على سب علي، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم؟ وبهذا يظهر الحق في هذه المسألة، وتجلى الحقيقة⁽⁷⁾.

(1) الانتصار للصحب والآل (8/133).

(2) المصدر السابق نفسه، ص 375.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 376.

(4) البداية والنهاية (8/139).

(5) الانتصار للصحب والآل، ص 377.

(2) المصدر السابق نفسه (8/133).

(4) المصدر السابق نفسه، ص 376.

(6) البداية والنهاية (8/140).

كما أن ذلك المجتمع في عمومه مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء، فمن ابن مسعود رضي الله عنه - مرفوعاً -: «ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء»⁽¹⁾ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب الأموات المشركين فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين؟ فمن عائشة رضي الله عنها - مرفوعاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»⁽²⁾.

وبعد أن تمّ الصلح تنازل الحسن عن الخلافة - وتمّ بيان ذلك في حديثنا عن المراحل، وبذلك طويت صفحة من الخلاف والفرقة، واجتمعت الكلمة، وصار معاوية خليفة مجتمعاً عليه، قيل: عام أربعين للهجرة⁽³⁾، ولكن ابن إسحاق⁽⁴⁾ والواقدي⁽⁵⁾، وخليفة ابن خياط⁽⁶⁾، يجعلون ذلك عام واحد وأربعين للهجرة، ويختلفون في الشهر الذي وقع فيه الصلح من ذلك العام: هو ربيع الأول أو ربيع الآخر، أو جمادى الأولى، أو جمادى الآخرة؟⁽⁷⁾، ومضى معاوية يقود مسيرة الأمة من غير أن يجعل للفتنة وأحداثها سبيلاً⁽⁸⁾.

- موقف معاوية من قتلة عثمان:

وقد يسأل سائل عما فعل معاوية بقتلة عثمان بعد صيرورة الخلافة إليه؟ ويجيب ابن قتيبة في عيون الأخبار قائلاً: إن معاوية بن أبي سفيان لما قدم بعد عام الجماعة، دخل دار عثمان ابن عفان، فصاحت عائشة بنت عفان بن عثمان وبكت ونادت أباه، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيتناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلاً تحت غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحت حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس⁽⁹⁾.

والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي أبرمت بين معاوية

(1) صحيح ابن حبان رقم: 47، صححه الألباني في الصحيحة رقم: 320.

(2) البخاري رقم: 6516.

(3) المعجم الكبير للطبراني (26/3)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 69.

(4) تهذيب التهذيب (299/2) ترجمة الحسن بن علي.

(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 69.

(6) تاريخ خليفة، ص 203.

(7) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 69.

(8) المصدر السابق نفسه، ص 69.

(9) المصدر السابق نفسه، ص 70.

والحسن وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب، وحقن الدماء، وعدم تهيج النفوس، وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب.

وأما انتصار بني أمية لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها⁽¹⁾، كما أن الصحابة الذين بايعوا معاوية رضي الله عنه جميعاً يستحال أن يرضوا بسب علي على منابر الدولة الأموية ولا يتكلم منهم أحد أو يأمرها بالمعروف وينهوا عن المنكر وإليك أسماؤهم، فقد روي عن الأوزاعي أنه قال: أكدت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم: سعد، وأسامة وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت أضعافاً مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم، حضروا من الكتاب تنزيهه، وأخذوا عن رسول الله تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز في أشباه له، لم ينزعوا يده عن مجامعة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم⁽²⁾.

من نتائج الصلح:

أولاً: توحد الأمة تحت قيادة واحدة:

سجل في ذاكرة الأمة عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التي تزهو به على مر العصور، وتوالي الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميراً عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل في ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحية العظيم الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويعد عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وفضيلة باهرة من فضائل الحسن.

ولا يلتفت إلى ما قاله العقاد في عام الجماعة في هجومه الخاطيء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضللاً، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص 70.

(2) البداية والنهاية (8/ 33) نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، عبد الله الخرعان، ص

الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها⁽¹⁾.

والعقاد رضي الله عنه لم يأت بجديد في حكمه الخاطيء بل سبقه إليه كثير من مؤرخي الشيعة الإمامية، ويكفي معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده بايعوه، فقد بايع معاوية جم غفير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽²⁾، وفي ذلك يقول ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية، ورأى إمامته⁽³⁾.

وتعلم من فقه الحسن وموقف الصحابة من بيعة معاوية فهمهم العميق لآيات النهي عن الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153] فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفترة التي فطر الله الناس عليها، والسُّبُل هي: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحدثات، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني: البدع، والشبهات، والضلالات⁽⁴⁾.

ونهى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات، وأنزل الله إليهم الكتاب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [ال عمران: 105]. ونهى الأمة أن تكون من المشركين، الذين فرّقوا دينهم، وكانوا شيعاً، فقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَاَنْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَةً كُلٌّ فِي حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 30 - 32].

وأخبر سبحانه وتعالى: أن الرسول صلى الله عليه وسلم بريء من الذين يفرّقون دينهم ويكونون شيعاً وأحزاباً⁽⁵⁾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَةً لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]، وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾.

لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم

(1) معاوية بن أبي سفيان، ص 125، للعقاد.

(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 167.

(3) الفصل (6/5).

(4) تفسير مجاهد، ص 227.

(5) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل، ص 49.

من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا يد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات اليمين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وقد تحدث الشيخ عبد الرحمن السعدي على الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة، واتفق الكلمة، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدهم قال: فإن من أعظم الجهاد السعي في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية⁽¹⁾، إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى في أبهى صورة في تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية رضي الله عنه من أجل وحدة الأمة، وحفظ دمايتها، والأجر والثوبة عند الله.

ثانياً: عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه:

إن دعوة الناس للدخول في دين الله تعالى من مقاصد الإسلام الكبرى ومن الوسائل التي استخدمت في عهد الراشدين: حركة الفتوحات المباركة، وتعد الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه أكبر معوق أصاب الدعوة الإسلامية بعد حركة الردة أيام أبي بكر رضي الله عنه، حيث أدى استشهاد عثمان إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية لولا أن تداركها رحمة الله - سبحانه وتعالى - بصلح الحسن بن علي رضي الله عنهما مع معاوية رضي الله عنه، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التي تبين أثر الفتنة في انحسار حركة الجهاد⁽²⁾ وفيما يلي بعضها:

1 - عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعت السبل، وعُظلت الفروج - يعني الثغور⁽³⁾.

2 - ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده، قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية⁽⁴⁾.

(1) وجوب التعاون بين المسلمين، ص 5.

(2) مرويات خلافة معاوية، ص 309.

(3) الطبقات، تحقيق السلمي (1/331).

(4) مرويات خلافة معاوية، ص 310.

3 - قول أبي بكر المالكي: فوقعت الفتنة. . واستشهد عثمان رضي الله عنه ، وولي بعده علي رضي الله عنه ، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضي الله عنه (1).

فمن نتائج الصلح: عودة حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه وأصبحت في عهد معاوية ثلاث جبهات رئيسة هي:

1 - جبهة الروم:

وتعتبر هذه الجبهة من أهم الجبهات، وأخطرها، نظراً لقوة الروم، ومجاورتهم لبلاد المسلمين، هذا فضلاً عن امتلاكهم لجيوش برية وأساطيل بحرية على درجة كبيرة من التنظيم والخبرة، مما دفع المسلمين لقتال الروم في البر والبحر معاً.

2 - جبهة المغرب:

وهذه الجبهة ترتبط بجبهة الروم برباط وثيق، وذلك لوجود مستعمرات رومية على بلاد المغرب كان لها أثر كبير في عرقلة حركة الفتوحات الإسلامية في المنطقة.

3 - جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر (2):

تعتبر سجستان وخراسان من أوائل البلاد التي انتقضت على المسلمين بعد استشهاد عثمان (3) رضي الله عنه. وقد ترك معاوية رضي الله عنه معالم واضحة في سياسته الجهادية أوردها خليفة بن خياط في تاريخه حيث قال: كان آخر ما أوصاهم به معاوية أن شُدوا حِناق الروم، فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم (4)، وقد سلك معاوية خطوات لتحقيق هذه السياسة في أثناء خلافته:

أ - التركيز على عمليات الصوائف والشواتي، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

* استنزاف قوى الروم.

* انتزاع زمام المبادرة من الروم وجعلهم في حالة دفاع مستمر.

* إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية.

ب - مهاجمة الروم في عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب في قلوبهم.

(1) رياض النفوس (1/ 27).

(2) يقصد بمصطلح ما وراء النهر تلك البلاد الواقعة وراء نهر جيحون.

(3) مرويات خلافة معاوية، ص 314.

(4) تاريخ خليفة، ص 230.

ج - تقليص النفوذ البحري للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة في بحر الشام، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية.

وأما سياسة معاوية رضي الله عنه في جبهة المغرب فكانت كالتالي:

1 - أولى معاوية رضي الله عنه جبهة المغرب اهتماماً خاصاً تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصياً، حيث كان معاوية رضي الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة 47 هـ، وهي السنة التي ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والي مصر.

2 - عمل معاوية رضي الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة في قلب بلاد المغرب تكون عزاً للإسلام والمسلمين وذلك ببناء مدينة القيروان⁽¹⁾.

وأما سياسة معاوية رضي الله عنه في جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر فكانت:

1 - استعانة معاوية رضي الله عنه بقاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضي الله عنه، وهو عبد الله بن عامر رضي الله عنه، وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

2 - العمل على تثبيت الحكم الإسلامي، ونشر دعوة الإسلام في هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألفاً من العرب بعيالاتهم في خراسان⁽²⁾. فلولا الله سبحانه وتعالى ثم تنازل الحسن بن علي لمعاوية ما عادت حركة الجهاد والفتوحات إلى ما كانت عليه، فمن نتائج الصلح تحقيق هذا المقصد الشرعي العظيم، فالوحدة بين المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله لها ثمار طيبة في دنيا المسلمين، فلو استوعبت الأمة عموماً وقيادتها خصوصاً هذا المقصد العظيم وطبقتها في حياتها لكان حالها في صعود وارتقاء.

ثالثاً: تفرغ الدولة للخوارج:

من نتائج الصلح تفرغ الدولة الإسلامية للخوارج، فقد استطاع معاوية أن يضعف من شوكتهم وقوتهم، وتصدى لحركة فروة بن نوفل الأشجعي، وحركة المستورد بن عُلف التيمي، وحركة حيان بن ظبيان السلمي، وهذه الحركات ظهرت في الكوفة⁽³⁾، وأما حركة يزيد الباهلي وسهم الهجمي، وحركة قريب الأزدي وزحاف الطائي، وغيرهم فكانت بالبصرة⁽⁴⁾.

ولسنا في محل تفصيل هذا الصراع بين الدولة الإسلامية والخوارج، ولكننا في محل

(1) مرويات خلافة معاوية، ص 363.

(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 364، 365.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 179، 196.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 197 إلى 208.

تقرير نتيجة طبيعية من نتائج الصلح، وهي التضييق والتصدي للخوارج، ولذلك اتسمت حركة الخوارج في عهد معاوية رضي الله عنه بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم، وكانت أشبه ما يكون بعمليات انتحار جماعي، لأنهم: يخرجون بغتات قليلة لا تلبث أن تستأصل، افتقارهم إلى قيادة واعية ومحكمة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسياتهم لتحقيق أهدافهم، تكرارهم لأخطاء بعضهم وعدم الاستفادة كل حركة من تجربة سابقتها، استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة في دعوتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة، اختلاط الدوافع الدينية التي دعوتهم للخروج - بزعمهم - مع دوافع العصبية الجاهلية في حركاتهم، والمتشكلة بخروج بعضهم ثاراً لمن قتل من أصحابهم، شعورهم بالغيرة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار، عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصارهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة⁽¹⁾، فمن نتائج الصلح الملموسة: التضييق على حركة الخوارج.

- انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنه، فقد قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن تكون، يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» ثم سكت⁽²⁾. وقد بين رسول الله ﷺ فقال: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»⁽³⁾، وقوله ﷺ: «الخلافة في أمي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»⁽⁴⁾، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً⁽⁵⁾. وبذلك تكون مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 209، 210.

(2) مسند أحمد (4/ 371 - 272)، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

(3) سنن أبي داود شرح عون المعبود (12/ 259)، صحيح سنن الألباني (3/ 879).

(4) سنن الترمذي شرح تحفة الأحوزي (6/ 395 - 397) حديث حسن.

(5) البداية والنهاية (8/ 16).

لمعاوية في شهر ربيع الأول من سنة 41هـ⁽¹⁾ فالحديث النبوي الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهي:

- 1 - عهد النبوة.
 - 2 - عهد الخلافة الراشدة.
 - 3 - عهد الملك العضوض⁽²⁾.
 - 4 - عهد الملك الجبري.
 - 5 - ثم تكون خلافة علي منهاج النبوة.
- وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة⁽³⁾. ويجوز تسمية من أتوا بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء بدليل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «وفوا ببيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»⁽⁴⁾، فقوله: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً، وأيضاً قوله: «وفوا ببيعة الأول فالأول» دل على أنهم يختلفون؛ والراشدون لم يختلفوا، وقوله: «فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، دليل على مذهب أهل السنة في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغرم⁽⁵⁾، فمعاوية رضي الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملكاً، وكان ملكه ملكاً ورحمة، وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره⁽⁶⁾، ومعاوية رضي الله عنه وإن كان عالماً ورعاً عدلاً، دون الخلفاء الأربعة في العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء؛ بل الملائكة والأنبياء، فإمارته وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن رضي الله عنه إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع في المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة في العبادات والمعاملات فظاهر مما لا ستره فيه⁽⁷⁾.

(1) مرويات خلافة معاوية، ص 165.

(2) العضوض: الشديد فيه عسف وعنف وظلم.

(3) سنن الدارمي (2/114) الأشربة، الفتاوى (14/035).

(4) البخاري رقم: 3455.

(5) الفتاوى (15/35).

(6) الفتاوى (4/292).

(7) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص 78.

وقد حدد ابن خلدون مدى التغيير الذي حدث، فقرر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معاني الخلافة قد بقيت - بعضها - وإنما كان التغيير في الوازع، فبعد أن كان ديناً انقلب عصية وسيفاً: يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصية والقوة، ولكن معاني الخلافة أي مقاصدها وأهدافها بقيت، أي أن غايات هذا الملك كانت لا تزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التي يأمر بها الإسلام: أي أن الحكم أو الملك استمر إسلامياً وشرعياً⁽¹⁾.

ولخص الأدوار التي مرت بها الخلافة فقال: فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبت معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افتردت عصية الخلافة والله مقدر الليل والنهار⁽²⁾، فالدور الأول الذي يشير إليه هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين - ولا يمنع كذلك العثمانيين - وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أي الذي يحقق في نفس الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذي صار يقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية⁽³⁾، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذي حدث والأدوار التي مرت بها الخلافة.

إن الخلافة الحقيقية أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عاماً وهو عصر الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكي نعبّر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل في الأساس الذي قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغيير إذن لم يكن كلياً ولكن جزئياً: أي أن الخلافة في العصر الأول كانت هي الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصره بقيت، فهي خلافة أقل في الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك⁽⁴⁾، والرأي العام في الإسلام يتصمك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهي تلك التي تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة، وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حثمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قبوله لا يكون إلا

(1) النظريات السياسية للريس، ص 194، نقلاً عن المقدمة.

(2) مقدمة ابن خلدون، النظريات السياسية، ص 195.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 195.

(4) المصدر السابق نفسه، ص 196.

موقتاً أو من باب الضرورة، ولكن يلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائماً في فكر الرأي العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشعبة بالمثال الكامل ولا تستخلص مبادئها إلا منه، وتفرق بين الخلافة وهي الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التي بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة⁽¹⁾.

وقد ذكر ابن تيمية: أن مصير الأمر - أي الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاية والقضاة والأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص في الراعي والرعية جميعاً، فإنه كما تكونوا يول عليكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ قَوْلِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْثًا﴾⁽²⁾ [الأنعام: 129] لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكاً وظهر النقص في الأمراء، وكذلك في أهل العلم والدين وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية⁽³⁾.

- هل معاوية رضي الله عنه يعتبر أحد الخلفاء الاثني عشر؟

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: دخلت مع أبي علي النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعتة يقول: «إن هذا الأمر لا يتفضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»⁽⁴⁾، وفي رواية أخرى عن جابر: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة... كلهم من قريش»⁽⁵⁾ وفي رواية أخرى عنه: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة... كلهم من قريش»⁽⁶⁾، زاد أبو داود في سننه، بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: اثم يكون الهرج»⁽⁷⁾ (8).

(1) مقدمة ابن خلدون، النظريات السياسية، ص 197.

(2) الفتاوى (15/35).

(3) الفتاوى (207/10).

(4) صحيح مسلم على شرح النووي (502/12).

(5) صحيح مسلم على شرح النووي (503/12).

(6) صحيح مسلم على شرح النووي (203/12).

(7) هرج الناس: وقموا في فتنه واختلاط وقتل، القاموس المحيط، ص 268.

(8) سنن أبي داود مع شرحها عون المعبود (249/11)، صحيح سنن الألباني (807/3).

وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم: الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة وبعض بني العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المُبشَّر به في الأحاديث الواردة بذكره... وإضافة لمن ذكرهم ابن كثير نضيف خامس الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين الحسن رضي الله عنه، وقد ناقشت معتقد أهل السنة والشيعة الإمامية في المهدي المنتظر في كتابي: (أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شخصيته وعصره)، فمن أراد التفصيل فليرجع إليه مشكوراً، وبالنسبة لمرحلة الخلفاء الاثني عشر فإنه استناداً إلى الوجه الذي ذكره ابن كثير، فإن هذه المرحلة تمتاز بأن مداها الزمني يتخلل المراحل الأخرى كلها، وخلفاء هذه المرحلة يكون ظهورهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً - وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة - ويبدأ ظهورهم من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - أي بخلافة أبي بكر رضي الله عنه وتكتمل هذه المرحلة بظهور آخرهم في آخر الزمان حيث يعقب خلافته الهَرَج⁽¹⁾.

وقد ذكر ابن كثير أن من خلفاء هذه المرحلة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ولما كان معاوية رضي الله عنه أفضل من عمر بن عبد العزيز، فهنا يعني دخول معاوية رضي الله عنه في خلفاء هذه المرحلة، هذا والله تعالى أعلم. وقد تقدم بيان شيء من فضائل معاوية رضي الله عنه.

هل الحسن بن علي رضي الله عنه تنازل لمعاوية من موقف قوة أو موقف ضعف؟

تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية من موقف قوة وهناك دلائل تُشير إلى ذلك منها:

1 - الشرعية التي كان يملكها الحسن:

فقد كانت بيعته في شهر رمضان من سنة 40 هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد اختير الحسن بعده اختياراً شورياً وأصبح الخليفة الشرعي على الحجاز واليمن والعراق وكل الأماكن التي كانت خاضعة لوالده، وقد استمر في خلافته ستة أشهر وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الخلافة في أممي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»⁽²⁾.

(1) مرويات خلافة معاوية، ص 165.

(2) سنن الترمذي مع شرحها نحفة الأحوذى (6/395 - 397) حديث حسن.

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً⁽¹⁾، وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين⁽²⁾.

وقد تحدث عن شرعية الحسن بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم: أبو بكر بن العربي⁽³⁾، والقاضي عياض⁽⁴⁾، وابن كثير⁽⁵⁾، وشارح الطحاوية⁽⁶⁾، والمنائوي⁽⁷⁾ وابن حجر الهيتمي⁽⁸⁾، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لا يمكن ذلك، ولربت حملة إعلامية منظمة في أوساط أهل الشام لكسب ثقتهم أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذ روحي لا يستهان به بحكم الشرعية التي يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

2 - تقييم الحسن بن علي للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفيير بن الحضرمي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمات ويحاربون من حاربت، فتركناها ابتغاء وجه الله⁽⁹⁾. فهذه شهادة من الحسن رضي الله عنه، بأنه كان في وضع قوي، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان رضي الله عنه يملك من الملكات الخطائية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة وقوة التأثير، والقرابة من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكاً، ودليلنا على ذلك ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قد ثبت الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله ﷺ من التحذير من الاشتراك في الفتنة⁽¹⁰⁾، فقد أرسل علي رضي الله عنه قبل الحسن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، وأرسل علي بعد ذلك

(1) البداية والنهاية (134/11).

(2) مآثر الإنافة (105/1) مرويات خلافة معاوية، ص 155.

(3) أحكام القرآن لابن العربي (4/1720).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم (12/201).

(5) البداية والنهاية (134/11).

(6) شرح الطحاوي، ص 545.

(7) فيض القدير (2/4099).

(8) الصواعق المحرقة (2/397).

(9) البداية والنهاية (11/206).

(10) تاريخ الطبري (5/514) مصنف ابن أبي شيبة (15/12) إسناده حسن.

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته لتأثير أبي موسى عليهم⁽¹⁾ وأتبعه علي بعيد الله ابن عباس، فأبطوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن⁽²⁾، وكان للحسن أثر واضح، فقد قام في الناس خطيباً وقال: أيها الناس، أجيئوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهي⁽³⁾، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به⁽⁴⁾ وابتليتم. ولبي كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل⁽⁵⁾، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعري كان والياً على الكوفة، ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو في علمه وزهده ومكانته عند الناس، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

3 - أن صف الحسن بن علي كان يملك من القيادات الكبيرة:

كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عباد - وهو من دهاة العرب - وعدي بن حاتم وغيرهم، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تبعية الناس والدخول في الحرب مع معاوية، وعلى الأقل يكون خليفةً على دولته إلى حين.

4 - كانت له قدرات خاصة في التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم:

ولذلك زاد لهم في العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التي قادها في نجاح مشروعه الإصلاحية كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح وغير ذلك من العوائق، إلا أنه تغلب عليها كلها وحقق الأهداف التي رسمها من حقت الدماء، ووحدة الأمة، وأمن الليل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ، مما يدل على قدراته القيادية الفذة.

5 - تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضي الله عنه:

فقد جاء في البخاري: استقبل الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو ابن العاص: إنني أرى كتائب لا تُؤلي حتى تقتل أقرانها. فقال معاوية - وكان خير الرجلين -: أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث

(1) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص 144، سير أعلام النبلاء (3/486).

(2) فتح الباري (13/53)، علي بن أبي طالب للصّليبي (2/60).

(3) تاريخ الطبري (5/516) أولو النهي: أصحاب العقول.

(4) تاريخ الطبري (5/516).

(5) مصنف عبد الرزاق (5/456 - 457) بسند صحيح إلى الزهري.

إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز - فقال: اذهبوا إلى هذا الرجل فاعرضوا عليه وقولوا له، واطلبوا إليه⁽¹⁾.

أ - فعمرو بن العاص رضي الله عنه القائد العسكري الشهير والسياسي المحنك والذي عركته الحروب يقول: إنني أرى كئيباً لا تولي حتى تقتل أقرانها.

ب - وأما معاوية رضي الله عنه، فتقييمه للموقف العسكري: بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حتماً عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر أن يتحمل ثروة الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية، وأخلاقية للأمة الإسلامية وغيرها.

ج - ولذلك اختار معاوية رضي الله عنه شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أصحاب التفوذ في المجتمع الإسلامي ولهم حضور واحترام عند الحسن رضي الله عنه وهما من قريش:

* عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سعيد القرشي العبشمي الأمير، أسلم عبد الرحمن يوم الفتح وكان أحد الأشراف، نزل البصرة، وغزا سجستان⁽²⁾، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإني إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها»⁽³⁾. وله في مسند بقي بن مخلد أربعة عشر حديثاً، وحدث عنه: ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى، وحياتان بن عمير، وابن سيرين، والحسن، وأخوه سعيد بن أبي الحسن، وحמיד ابن هلال، وقيل: كان اسمه عبد كلال، فغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾ إلى عبد الرحمن، مات بالبصرة سنة خمسين، وقيل: توفي سنة إحدى وخمسين⁽⁵⁾، فبعد عبد الرحمن بن سمرة صحابي جليل مجاهد له مكانته في ذلك العهد، وشارك في الفتوحات وتولى إمارة جيوش الفتح في عهد عثمان، وفتح سجستان صلحاً ثم افتتح فيما بعد «بُست» وما يليها، ومضى إلى كابل وزابلستان فافتتحهما جميعاً، وبعث بالفنائم إلى ابن عامر رضي الله عنه⁽⁶⁾.

* عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي⁽⁷⁾. ولد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك في السنة الرابعة من الهجرة⁽⁸⁾، وعندما اعتمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في السنة السابعة للهجرة عمرة القضاء، ودخل مكة، حمل إليه عبد الله بن

- (1) البخاري، كتاب: الصلح رقم: 2704. (2) سير أعلام النبلاء (2/ 571).
- (3) مسلم، كتاب: الإيمان رقم، 1652. (4) سير أعلام النبلاء (2/ 572).
- (5) سير أعلام النبلاء (2/ 572). (6) تاريخ دمشق (26/ 289، 290).
- (7) البداية والنهاية (91/ 08). (8) تهذيب التهذيب (5/ 272).

عامر، قال ابن حجر: . . . فتلمّظ وتشاءب، فتنفل رسول الله في فيه، وقال: «هذا ابن التُّلمية؟» قالوا: نعم، فقال: «هذا أشبهنا»، وجعل يتفل في فيه، ويعوّذ فجعل يتلغ ريق النبي ﷺ، فقال: «إنّه لمسي»، فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له الماء⁽¹⁾. وقد ترجمت له في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عند حديثي عن مؤسسة الولاية في عهد ذي النورين⁽²⁾، وهو الرجل الذي له من الحسنات والمحبة في قلوب الناس ما لا يُنكر كما يقول ابن تيمية⁽³⁾، وقال فيه الذهبي: وكان من كبار أمراء العرب، وشجعانهم، وأجوادهم، وكان فيه رفق وحلم⁽⁴⁾، وهو ممن اعتزل القتال في الجمل وصفين.

فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضي الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأي ثمن ممكن، وقد ظل زعام الموقف بيد الحسن بن علي رضي الله عنه ويد أنصاره، وكانت جبهته العسكرية قوية كما مرّ معنا في رواية البخاري والروايات الأخرى، وأما ما تعرض له الحسن رضي الله عنه من محاولة القتل والاعتداء فإنه يعود إلى أسباب تتصل بظروف القتال والصلح مع معاوية، حقيقة أو إشاعة كما مر معنا، وقد هزم المرجفون وقتل الرجل الذي قام بالاعتداء عليه، وتقدم هو من بعد ذلك واجتمع بمعاوية، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، وكان عرف ضعف جانب الحسن وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو يتزل على شروطه ومطالبه⁽⁵⁾، وقد كان بمقدور الحسن أن يقاتل معاوية بمن كان معه من الأنصار والأعوان، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح للسلم ويكره الفتنة وينبذ الفرقة، وقد رأب الله به الصدع، وجمع الكلمة، وقد كان رسول الله ﷺ أشار⁽⁶⁾ إلى ذلك فقال: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»⁽⁷⁾.

- الحسن والزهد في الملك:

فالحسن بن علي رضي الله عنه قدوة للمسلمين في الترفع عن حطام الدنيا وطلب ما عند الله تعالى واحتساب الأجر والمثوبة، فالزهد في المتاصب والكراسي من الأمور الثقيلة على

(1) الطبقات (5/ 31)، تهذيب التهذيب (5/ 272).

(2) عثمان بن عفان للصّلاحي، ص 302.

(3) منهاج السنة (3/ 189، 190).

(4) سير أعلام النبلاء (3/ 21).

(5) دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص 61.

(6) المصدر السابق نفسه.

(7) البخاري رقم: 7109.

النفس البشرية، فالإخوان والأصحاب والأقارب يتقاتلون على الكراسي والمناصب، فانظر إلى التاريخ القديم والحديث ترى العجب العجاب، فالزهدي في الرئاسة أقل ما يكون في دنيا الناس، وكم من أناس زهدوا في المال والنساء وغيرها من الأمور، ولكنهم أمام الزعامة والرئاسة والمناصب ينهزمون، فالزهدي في الرياسة أقل ما يكون في دنيا الناس، وقيل بأنه آخر ما ينزع من صدور الصالحين، وتأمل مقولة سفيان الثوري، فقد قال: ما رأيت الزهدي في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهدي في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع حامى عليها وعادى⁽¹⁾. إياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد نفسك واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت⁽²⁾، فالحسن بن علي يعلمنا كيف نترك المناصب والكراسي إذا كان في تركها رضاء الله، ومصلحة للأمة، وحقناً لدمائها وعملاً على توحيدها، ومن الأمور التي تساعدنا على الزهد في الدنيا: قصر الأمل، وذكر الموت وزيارة القبور، وكان الحسن بن علي مكتوب على خاتمه:

قدم لنفسك ما استطعت من الثقى إن المنيبة نازل بك يا فتى
أصبحت ذا فرح كأنك لا ترى أحباب قلبك في المقابر والبلى⁽³⁾

لقد كان الحسن بن علي من زهاد عصره، ونال في مقام الزهد القدح الصعلى، فقد ترك الدنيا وحطامها واشتغل برضا الله تعالى، وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلق، ومع هذا، فقد أعطاه الله المنزلة في قلوب الخلق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك ولا يقف معه، بل يهرب منه أشد الهرب خشية أن يقطع الخلق عن الحق جل جلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَكُمْ الرِّزْقَ وَذَاءُ﴾ (مريم: 98). أي: في قلوب عباده. وفي الحديث: «إن الله إذا أحب عبداً نادى: يا جبريل إني أحب فلاناً فيحبه جبريل، ثم يحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»⁽⁴⁾، ويكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف في الدنيا، وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه، وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الآخرة، ولا يجتمع معه، والسعيد من أثر الباقي على الفاني، قال أبو الفتح البستي:

أمران مفترقان لست تراهما يتشوقان لخلطة وتلاقي
طلب المعاد مع الرياسة والعلی فدع الذي يفنى لما هو باقي⁽⁵⁾

(1) سير أعلام النبلاء (7/ 262).

(2) حلية الأولياء، (6/ 376)، فقه الفتن، عبد الله شعبان، ص 142.

(3) تاريخ دمشق (14/ 86).

(4) مسلم رقم: 2637.

(5) أمراض النفس، د. أنس كرزون، ص 77.

إن الحسن بن علي رضي الله عنه يعلمنا كيف نزهد في الجاه والسلطان والملك والشهرة ابتغاء مرضاة الله تعالى، فالحسن رضي الله عنه ازداد رفعة وسيادة بتنازله في الدنيا وأصبح رمزاً لتكران الذات ومعلماً للإيثار ومدرسة وفخراً للأمة عبر الأجيال في تقديمه مصلحة الأمة في وحدتها وحفظ دمايتها على أي مصلحة أخرى، ولقد بلغت شهوة حب الجاه في قلوب الكثيرين مداها وأصبحوا يتنافسون على بلوغها، ويبدلون من أجلها الأموال والطاقات، ويتحايلون على الوصول إليها بالحيل والخداع، ويقدمونها على شهوة حب المال وذلك للأسباب التالية:

1 - لأن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو العابد الذي تقرر له جاه في القلوب لو أراد اكتساب المال لبذل له الناس من أموالهم وأعمالهم ما يحقق له ذلك.

2 - أن المال معرض للتلف أو الزوال ويتطرق إليه الخطر، أما الجاه فإنه إذا دخل القلوب ملكها واستقر فيها فلا تمتد إليه الأخطار إلا إذا حصل ما يغير نظرة الناس إلى صاحب الجاه.

3 - أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فالناس إذا أعجبوا بشخص أكثروا مدحه والحديث عنه، وانتشر صيته بينهم ⁽¹⁾.

وهناك تداخل كبير بين شهوتي حب النفس وحب الجاه، وينتج عن هذا التداخل المعقد أمراض نفسية منها: الرياء، والكبر والتعالي على الناس والإعجاب بالنفس وحب المدح بين الناس، الأنانية والشح والحسد، وكثرة الغضب، والذل، والمداهنة، وهي في الحقيقة محرمات قلبية تحتاج لمجاهدة وتربية سلوكية على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

كما أن من يحرص على بلوغ الجاه عند أهل الدنيا، ويجعل من ذلك شغله الشاغل، فإنه سيذل لهم من دينه وكرامته لكي يتال ما يطمح إليه، ويذل لهم ليكسب رضاهم ⁽²⁾، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمته الله: وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يروجهم ويخافهم، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم ⁽³⁾.

وهذا كلام خطير، على القيادات الإسلامية أن تستوعبه وتتحرق من رقة القلب ولينه أمام مطالب الجماهير، عندما تكون مطالبهم لا تخدم دين الله وشرعه، فالحسن بن علي يعلمنا

(1) أمراض النفس، د. أنس كرزون، ص 77.

(2) أمراض النفس، د. أنس كرزون، ص 78 إلى 92.

(3) العبودية، لابن تيمية، ص 48 - 49.

الاستعلاء بالمبادئ والقيم على حفظ النفس الخفية، فقد تعرّض لهجوم كاسح من بعض أتباعه الذين لا يريدون الصلح مع معاوية، ومع هذا رد عليهم رداً جميلاً وحاول الارتقاء بهم، وبين لهم دوافعه التي دفعته للتنازل لمعاوية، من حفظ الدماء، ووحدة الأمة، وابتغاء ما عند الله تعالى، ونجح في قيادة الأمة بأسرها لتحقيق مشروعه العظيم، ولم يتأثر بضغوط القواعد الشعبية، ولا بغيرها، وهكذا القادة الربانيون يفعلون.

لقد كان الحسن رضي الله عنه في صلحه مع معاوية مصيباً باراً راشداً ممدوحاً وليس يجد في نفسه حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً، بل هو راض بذلك مستبشر به⁽¹⁾، وكان رضي الله عنه يرد على منتقديه بأدب جم وحنة ظاهرة، فعندما قال له أبو عامر سفيان بن الليل: السلام عليك يا مُذل المؤمنين، فقال له الحسن: لا تقل هذا يا أبا عامر، لست بمُذل المؤمنين، ولكنني كرهت أن أقتلهم على الملك⁽²⁾ وعندما قال لهم: العار خير من النار⁽³⁾، فقول الحسن رضي الله عنه: العار خير من النار، يفتح لنا آفاقاً واسعة في فقه القدم على الله تعالى، فقد كان رضي الله عنه عاملاً به في حياته مستوعباً لأبعاده، يظهر ذلك في سكناته وحركاته واختياراته رضي الله عنه وأرضاه.

- من حياة الحسن في المدينة بعد الصلح:

ترك الحسن الكوفة بعد تنازله لمعاوية ورجع بمن معه من أصحابه وبني هاشم إلى المدينة واستقر بها، وكان الهاشميون محل الإجلال والتكريم والاحترام من معاوية رضي الله عنه، وكانت زعامتهم عند الحسن بن علي رضي الله عنه، وكانت المدينة في تلك الفترة يكنها عدد كبير من علماء الصحابة يضاف إليهم عدد من التابعين ممن تتلمذ على الصحابة العلماء وساروا بسيرتهم ونهجوا نهجهم، وهؤلاء كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار ومن غير المهاجرين والأنصار، وقد جعل هؤلاء القوم همهم العبادة وتعليم الناس ورواية ما حفظوه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يدخلون فيما دخلت فيه الأمة ولا يتزعون يداً من جماعة ومن هؤلاء: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن العباس وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله رضي الله عنه⁽⁴⁾. كانت أجواء المدينة خيراً على الحياة العلمية، حيث تفرغ طلاب العلم فيها لرواية الحديث، وتفسير القرآن، واستنباط الأحكام الفقهية فقصدها الناس من أجل العلم، فقد كان بها الهدوء والاطمئنان الذي يساعد على العلم والبحث⁽⁵⁾.

(1) البداية والنهاية (12/141).

(2) المصدر السابق نفسه (12/141).

(3) المصدر السابق نفسه (12/204).

(4) تاريخ الطبري (6/80)، المدينة في العصر الأموي، شرّاب، ص 84.

(5) المدينة في العصر الأموي، شرّاب، ص 62.

1 - العلاقة بين الحسن ومعاوية رضي الله عنه بعد الصلح :

كان الحسن بن علي يقدم على معاوية في خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبلها⁽¹⁾.

وجاء في رواية: . . . أن الحسن بن علي كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصه بمائة ألف درهم، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء فدعا بدواة ليكتب إليه فأغضى قبل أن يكتب فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه كأنه يقول: «يا حسن أتكتب إلى مخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟» قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال: «قل: اللهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي وحيلتي ولم تنته إليه رغبتني، ولم يخطر ببالي ولم يبلغه أملي، ولم يجر على لساني من اليقين الذي أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين والمهاجرين والآخرين إلا خصصتني به يا أرحم الراحمين». قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء فكت أدعو به فلم يلبث معاوية أن ذكرني فقيل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتين ألف درهم⁽²⁾.

وجاء في رواية: بأن الدعاء الذي علمه رسول الله للحسن في المنام هو: «اللهم ائذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو أحداً غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتي وقصر عنه عملي، ولم تنته إليه رغبتني، ولم تبلغه مسألتي ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصني به يا رب العالمين» قال: فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إلي معاوية بألف ألف وخمسة مائة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: «يا حسن كيف أنت؟» فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثي فقال: «يا بُني، هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق»⁽³⁾.

2 - صلاة معاوية للحسن والحسين وابن الزبير رضي الله عنهم :

أمر معاوية للحسن بن علي بمائة ألف، فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئاً فهو له، وأمر للحسين بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة فقسمها عليهم عشرة آلاف عشرة آلاف، وأمر لعبد الله بن جعفر بمائة ألف⁽⁴⁾.

وكان معاوية إذا تلقى الحسن بن علي قال له: مرحباً وأهلاً بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا

(1) سير أعلام النبلاء (3/269).

(2) تاريخ دمشق (8/14).

(3) المصدر السابق نفسه (62/133).

(4) تاريخ دمشق (8/14).

تلقى عبد الله بن الزبير قال له: مرحباً بابن عمه رسول الله ﷺ، وأمر للحسن بن علي بثلاثمائة ألف ولعبد الله بن الزبير بمائة ألف⁽¹⁾، وجاءت بعض الروايات بسند حسن بأن معاوية كان دائم الوصل للحسين، ويسارع في تلبية مطالبه وحاجاته، وكان يقدق عليه العطاء⁽²⁾، ولقد اعترف الشيعة أنفسهم بعطايا معاوية للحسن والحسين وعبد الله بن جعفر⁽³⁾.

ويبدو أن صلوات الحسين بمعاوية كانت طيبة واستمرت العلاقات بين الطرفين تتسم بكل احترام وتقدير، ولم تنقطع علاقة أهل الكوفة بالحسن والحسين بعد خروجهما من الكوفة واستقرارهما في المدينة، بل استمرت العلاقة بين الجانبين عن طريق الرسائل التي يبعث بها الكوفيون باستمرار، ولقد كانت تلك الرسائل - كما يبدو - تحمل دعوة لمعارضة الحكم القائم، كما تحمل تأكيداً بأحقيتهما في الخلافة، واستنهاض هممهم إليها، وما كانت تلك الكتب لتؤثر على الحسن بل أعطته انطباعاً وتصوراً واضحاً عن أهل التشيع في الكوفة، وأنهم أهل شر وفتنة، ولا يريدون اجتماع الأمة ووحدة كلمتها⁽⁴⁾، قال يزيد بن الأصم: جاءت الحسن إضبارة⁽⁵⁾ من الكتب فقال: يا جارية هات المخضب، فصب فيه الماء وألقى الكتب في الماء، فلم يفتح منها شيئاً ولم ينظر إليها، فقلت، يا أبا محمد: ممن هذه الكتب؟ قال: من أهل العراق من قوم لا يرجعون إلى حق ولا يقصرون عن باطل، أما إنني لست أخشاهم على نفسي ولكنني أخشاهم على ذلك، وأشار إلى الحسين⁽⁶⁾.

ولما توفي الحسن بن علي اجتمعت الشيعة في دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين كتاباً بالتعزية في وفاة الحسن وقالوا في كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، والمسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك⁽⁷⁾، فرد الحسين على كتابهم: إنني لأرجو أن يكون رأيي رأي أخي يظن في المواعدة، ورأي أخي في جهاد الظلمة رشداً وسداداً، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، واكتموا

(1) تاريخ دمشق (133/62).

(2) مصنف ابن أبي شيبة (94/11) بسند حسن، مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص 177.

(3) انظر جلاء العيون للمجلسي، ص 376، والكافي في الفروع كتاب: الحقيقة، باب الأسماء والكنى (6/

19) الأمالي للطوسي (334/22)، شرح ابن أبي الحديد (823/2) وقد فصل الدكتور محمد الشيباني في كتابه (مواقف المعارضة في خلافة يزيد) حول الحسين، ص 177.

(4) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص 178.

(5) إضبارة: الإضبارة: الحزمة من الضحف، لسان العرب (4/479).

(6) المعرفة والتاريخ (756/2) بإسناد حسن، معجم الطبراني، وقال في المجمع (6/243): ورجال رجاء

الصحيح غير عبد الله بن الحكم بن أبي زياد، وهو ثقة.

(7) أنساب الأشراف (152/3) بإسناد جمعي، الأخبار الطوال، ص 221، 222.

الهوى، واحترسوا في الأضناء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله⁽¹⁾.

ولقد كانت مكانة الحسين رضي الله عنه من المسلمين بعد وفاة الحسن مكانة لا تنكر، وأصبح هناك شعور قوي بأن المرشح الوحيد بعد وفاة معاوية للخلافة هو الحسين بن علي رضي الله عنه، وقد كان يزوره كبار أهل الحجاز وزعماء الكوفة وهم لا يشكون في أنه سيكون الخليفة بعد معاوية⁽²⁾، ولم تقتصر محاولات الكوفيين على طلب الحسين فقط، بل إنهم طلبوا من محمد ابن الحنفية القدوم عليهم، فانتبه إلى خطورة أهل الكوفة عليه وعلى آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ يحذر الحسين من الانجرار وراءهم وتصديق مزاعمهم، ومما قاله للحسين: إن القوم يريدون أن يأكلوا بنا ويشيطوا دماءنا⁽³⁾.

ولقد أثارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بني أمية في المدينة فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقاً⁽⁴⁾، ولا يمكن أن تخفي تلك الرسائل على معاوية، ولا العلاقات الوثيقة التي تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين: أن يتقي الله تعالى وأن لا يشق عصا المسلمين، ويذكره بالله في أمر المسلمين⁽⁵⁾، ولقد كان الحسن والحسين رضي الله عنهما مخلصين لعهدهما، والتزما بهنما لمعاوية، وكان الحسين يرى أن الصلح له ملزم في ظل حياة الحسن ومعاوية، وكذلك بعد وفاة أخيه.

3 - هل يصح اتهام معاوية بسم الحسن بن علي رضي الله عنه؟

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي توفي متأثراً بالسم الذي وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن: جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية علي تهتم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طست⁽⁶⁾ وترفع أخرى نحوه من أربعين يوماً⁽⁷⁾، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة⁽⁸⁾،

(1) أنساب الأشراف (152/3)، مواقف المعارضة، ص 179.

(2) أنساب الأشراف (152/3) بإسناد جمعي، نقلاً عن مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص 179.

(3) الطبقات ابن سعد (356/5) يشيطوا دماءنا: ينفكوا دماءنا.

(4) أنساب الأشراف (152/3) مواقف المعارضة، ص 179.

(5) أنساب الأشراف (152/3) مواقف المعارضة، ص 180.

(6) طست: إناء معلوم.

(7) الطبقات، تحقيق السلمي (338/1) إسناد ضعيف.

(8) المصدر السابق نفسه (338/1).

وحاول البعض من الأخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس: أن سمي حسناً فإني سأترجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء، فقال: إنا والله لم نرضك له أفترضك لأنفسنا⁽¹⁾؟ وفي سندها يزيد بن عياض، ابن جعدية كذبه مالك وغيره⁽²⁾.

وقريباً من هذه الرواية جاءت في مقاتل الطالبين، بإسناده عن أحمد بن عبد الله بن عمار، وهو من رؤوس الشيعة⁽³⁾، وفي أسانيد أيضاً عيسى بن مهران رافضي كذاب، قال عنه الخطيب: من شياطين الرافضة⁽⁴⁾. وذكر البلاذري⁽⁵⁾ بسند عن الهيثم بن عدي: أن الذي بعث لها معاوية بمئة ألف هي هند بنت سهيل بن عمرو زوجة الحسن، والهيثم بن عدي كذاب⁽⁶⁾، وقد وردت هذه الروايات في كتب السنة بدون تححيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات ضعيفة⁽⁷⁾، وأما كتب الشيعة الإمامية في اتهام معاوية في مقتل الحسن بالسّم فحدث ولا حرج، وليس لهم روايات صحيحة يعتمد عليها، والقوم متخصصون في الكذب والبهتان والصاق التهم الباطلة، والروايات الظالمة في الطعن في الصحابة وخصوصاً معاوية، وقد تحدث العلماء المحققون عن هذه التهمة الباطلة فقالوا:

أ - قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من سمّه، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلّم الأمر، الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه، في زمن متباعد، ولم تثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم⁽⁸⁾.

ب - وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك بينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا ثقّل يعجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم⁽⁹⁾. وقد جاء عن ابن تيمية في رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة وكانت ابنته تحت الحسن ما يدل على قدرة ابن تيمية

(1) تهذيب الكمال (6/ 453) وفي السند يزيد بن عياض، كذبه مالك وغيره.

(2) تقريب التهذيب: 604. (3) ميزان الاعتدال (1/ 118)

(4) لسان الميزان (4/ 406).

(5) أنساب الأشراف (3/ 59)، فيه الهيثم بن عدي بن كلاب.

(6) مواقف المعارضة، ص 122.

(7) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 393.

(8) العواصم من الفواصم، ص 220 - 221. (9) منهاج السنة النبوية (4/ 469).

للتقيد العلمي القوي للروايات التاريخية حيث قال: وإذا قيل: إن معاوية أمر أباهما كان هذا ظناً محضاً، والنبي ﷺ قال: «ياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث...» ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل: سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي في العام الذي كان يسمى عام الجماعة وهو عام واحد وأربعين، وكان الأشعث حماً للحسن بن علي، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته⁽¹⁾؟

ج - وقال الذهبي: قلت: هذا لا يصلح فمن الذي اطلع عليه⁽²⁾؟

د - وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقالت: إنا والله لم نرضك للحسن أفترضاك لأنفسنا؟ وعندني أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأخرى⁽³⁾.

هـ - وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، وحاشاً لمعاوية من ذلك⁽⁴⁾.

و - الدكتور جميل المصري: وقد علق على هذه القضية بقوله: ... ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد... ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك، لأننا لا نلمس لها أثراً في قضية قيام الحسن، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية⁽⁵⁾.

وقد ناقش الدكتور خالد الغيث في كتابه (مرويات معاوية في تاريخ الطبري) الجانب الطبي في المرويات التي تحدثت عن وفاة الحسن، وفيما يلي النصوص الخاصة بالجانب الطبي في هذه المسألة، فقد أخرج ابن سعد بإسناده، أن الحسن ﷺ: دخل كنيفاً له، ثم خرج فقال: ... والله لقد لفظت الساعة طائفة من كبدي قبل، قلبتها بعود كان معي، وإني سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذا⁽⁶⁾، وأخرج ابن سعد بإسناده، أن الحسن ﷺ قال: إني سقيت السم غير مرة وإني لم أسق مثل هذه، إني لأضع كبدي⁽⁷⁾، وأخرج ابن سعد بإسناده،

(1) المتقى من منهاج الاعتدال، ص 266.

(2) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص 40.

(3) البداية والنهاية (43/8).

(4) تاريخ ابن خلدون (527/2).

(5) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص 482، مرويات خلافة معاوية، ص 395.

(6) الطبقات، تحقيق السلمي (1/335) إسناده ضعيف.

(7) لمصدر السابق نفسه (1/338) إسناده ضعيف.

قال: كان الحسن بن علي سقي السم مراراً، كل ذلك يفلت منه، حتى كان المرة الأخيرة التي مات فيها، فإنه كان يختلف⁽¹⁾ كبده⁽²⁾.

وقد عرضت النصوص المتعلقة بالجانب الطبي في هذه المسألة على أ. د كمال الدين حسين الطاهر، أجاب بقوله: لم يشك المريض⁽³⁾ من أي نزف دموي سائل، مما يرجح عدم إعطائه أي مادة كيميائية (أو سم) ذات قدرة على إحداث تثبيط لعوامل تخثر الدم، فمن المعروف أن بعض الكيمياءات، والسموم، تؤدي إلى التزيف الدموي، وذلك لقدرتها على تثبيط التصنيع الكبدي لبعض العوامل المساعدة على تخثر الدم، أو لمضادات تأثيراتها في عملية التخثر؛ ولذلك فإن تعاطي هذه المواد سيؤدي إلى ظهور نزف دموي في مناطق متعددة من أعضاء الجسم مثل العين، والأنف، والقم والجهاز المعدي - المعوي - يخرج الدم بشكل نزف دبري سائل، منفرداً أو مخلوطاً مع البراز، ولا يظهر في شكل جمادات أو قطع دموية، صلبة كانت أو أسفنجية، أو في شكل قطع من الكبد، ولذلك يستبعد إعطاء ذلك المريض أحد المواد الكيميائية، أو السموم ذات القدرة على إحداث نزيف دموي⁽⁴⁾.

وعن طبيعة قطع الدم المتجمد التي أشارت الروايات إلى أنها قطع من الكبد يقول أ. د كمال الدين حسين الطاهر: هنالك بعض أنواع سرطانات، أو أورام الجهاز المعدي المعوي، الثابتة أو المتقلبة عبر الأمعاء، أو بعض السرطانات المخاطية التي تؤدي إلى النزف الدموي المتجمد، المخلوط مع الخلايا، وبطانات الجهاز المعدي - المعوي - وقد تخرج بشكل جمادات - قطع من الكبد كما في الروايات -، ولذلك فإني أرجح أن ذلك المريض قد يكون مصاباً بأحد سرطانات، أو أورام الأمعاء⁽⁵⁾.

وهذا التحليل الطبي اعتمد روايات ضعيفة وبالتالي يصعب التسليم بالنتيجة التي وصل إليها، وبالنسبة لسم الحسن عليه السلام، فنحن لا نتكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسموماً فهذه شهادة له وكرامة في حقه⁽⁶⁾.

وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن، وهل جمعة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال - كما تذكر الروايات - حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له؟ أليست جمعة ابنة أمير قبيلة كندة

(1) يختلف: المراد يتردد على الحمام مما به من الألم، حتى إن كبده تقطع وتنزل من المخرج.

(2) الطبقات، تحقيق السلمي (339/1) إسناده ضعيف.

(3) مرويات خلافة معاوية، ص 396، المراد: المريض الحسن بن علي.

(4) مرويات خلافة معاوية، ص 396. (5) المصدر السابق نفسه، ص 397.

(6) منهاج السنة (42/4).

كافة وهو الأشعث بن قيس؟ ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازعة؟ إن أمه فاطمة وجدته الرسول ﷺ وكفى به فخراً، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذا ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعده وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير⁽¹⁾؟ إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظاً وحنقاً ما قام به الحسن بن علي، كما أن قناعتهم قوية بأن وجوده حياً صمام أمان للأمة، فهو إمام ألفتها، وبالتالي حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول في نظري هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين وجه لهم الحسن صفة قوية عندما تنازل لمعاوية وجعل حداً للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم الذين طعنوه في فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلهم في النهروان وغيرها⁽²⁾.

4 - رؤية الحسن بن علي في المتنام واقتراب أجله:

عن عمران بن عبد الله بن طلحة، قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فاستبشر به وأهل بيته، فقصوها على سعيد بن المسيب فقال: إن صدقت رؤياه فقل ما بقي من أجله، فما بقي إلا أياماً⁽³⁾.

5 - الأيام الأخيرة من حياة الحسن:

وفي حياته بالمدينة سقي السم مراراً، ثم لما كانت المرة الأخيرة جاء الطيب فقال: هذا رجل قد قطع السم أمعاه⁽⁴⁾، وقال عمير بن إسحاق: دخلت أنا ورجل من قريش على الحسن ابن علي، فقام فدخل المخرج، ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كيدي أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت السم مراراً وما سقيت السم مرة هي أشد من هذه، قال: وجعل يقول لذلك الرجل: سلني قبل أن لا تسألني، قال: ما أسألك شيئاً، يعافيك الله، قال: فخرجنا من عنده، ثم عدنا إليه من غد وقد أخذ في السؤق - أي نزع الموت - فجاء حسين حتى قعد عند رأسه، فقال: أي أخي من صاحبك؟ قال: تريد قتله؟ قال: نعم، قال: لئن كان صاحبي الذي أظن الله أشد لي نعمة، وإن لم يكنه، ما أحب أن تقتل بي بريئاً⁽⁵⁾.

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص 123.

(2) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص 124.

(3) الطبقات، تحقيق السلمي (1/334) إسناده منقطع، عمران لم يدرك الحسن.

(4) الدوحة النبوية الشريفة، ص 97، 98.

(5) الطبقات، تحقيق السلمي (1/335) إسناده ضعيف.

أ - وصية الحسن للحسين عليه السلام:

قال ابن عبد البر: وروينا من وجوه أن الحسن بن علي لما حضرته الوفاة قال للحسين أخيه: يا أخي! إنا أبانا عليه السلام تعالى لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله استشرف لهذا الأمر، رجاء أن يكون صاحبه، فصرفه الله عنه، ووليها أبو بكر، فلما حضرت أبو بكر الوفاة تشوف لها أيضاً، فصرفت عنه إلى عمر، فلما احتضر عمر جعلها شورى بين ستة هو أحدهم، فلم يشك أنها لا تعدوه، فصرفت عنه إلى عثمان فلما هلك عثمان بويع، ثم نوزع حتى جرد السيف وطلبها، فما صفي له شيء منها، وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا أهل البيت، النبوة والخلافة، فلا أعرفنك ما استخفك سفهاء الكوفة فأخرجوك⁽¹⁾، ولم يذكر ابن عبد البر أسانيده في الرواية وأما المتن ففيه نكارة، كما أنه ينافي ما ثبت عن علي عليه السلام في تقديمه لأبي بكر وعمر في الخلافة، وقد بينت ذلك في كتبي عن أبي بكر وعمر عليهما السلام.

ب - تفكره في ملكوت السماء واحتسابه نفسه عند الله:

لما حضر الحسن بن علي قال: أخرجوني إلى الصّخر حتى أنظر في ملكوت السموات - يعني الآيات - فأخرجوا فراشه فرقع رأسه، فنظر فقال: اللهم إني احتسب نفسي عندك، فإنها أعزُّ الأنفس عليّ. قال: فكان مما صنع الله له أنه احتسب نفسه عنده⁽²⁾، وجاء في رواية: اللهم إني احتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها، غير رسول الله صلى الله عليه وآله⁽³⁾، ويظهر في هذا الموقف العظيم والمشهد الرهيب صدق توجه الحسن لله وحده المتفرد بالكبرياء والعظمة والجبروت، وفي هذه العبارات تنفجر معاني الخضوع والتذلل لله تعالى، مع كمال الرجاء وتعلق قلبه بالله وحده، فلا ينبغي أن تتعلق قلوبنا بغير الله تعالى.

كما أنه وهو يودع هذه الدنيا لا ينسى عبادة التفكير في ملكوت السموات وما فيها من المخلوقات المتنوعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

ثم نظر إلى نفسه التي هي أعز الأنفس عليه غير رسول الله صلى الله عليه وآله، فاحتسبها عند الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الذاريات: 21] فإن التأمل والتفكير في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمتها؛ وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الأبواب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته؛ وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا

(1) الاستيعاب (1/391).

(2) صفة الصفوة (1/762).

(3) البداية والنهاية (11/209).

تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبه، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها، وبارئها وشكره والتهج بذكره؛ وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره⁽¹⁾.

وإذا تأملنا في مخلوقات الله كلها، نجدنا مضطرة ومحتاجة إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بركه وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التبعيد، فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها⁽²⁾.

فالحسن بن علي رضي الله عنه أتقن عبادة التفكير وهو في لحظاته الأخيرة من هذه الحياة الدنيا، وعلمنا معنى عظيماً وكبيراً في المفهوم الشامل للعبادة فقد احتسب نفسه عند ربه، وهكذا يفهم الصحابة معاني الاحتساب عند الله، وكان معاذ رضي الله عنه قد أجاب أبا موسى الأشعري عندما قال له: فكيف تقرأ يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله، فأحسب نومتي كما أحسب قومتي⁽³⁾، فالأكل وجماع الرجل لأهله، إذا احتسبه المسلم عند الله فيه الأجر والمثوبة من الله تعالى، والحسن بن علي يحتسب نفسه عند الله ويودع الدنيا بعبادة التفكير وعبادة الاحتساب في المصائب، فقد كان رضي الله عنه لسان حاله قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ صِلَاتِي وَسُكُوتِي وَمَهَيَاتِي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِئْتُ وَإِنِّي أَرْدُّ لِلتَّائِبِينَ﴾ [الأنعام: 162 - 163].

ج - يا أخي إنني أدخل في أمر من أمر الله لم أدخل في مثله قط، وأرى خلقاً من خلق الله لم أر مثله قط⁽⁴⁾.

قال أبو نعيم⁽⁵⁾: لما اشتد بالحسن بن علي الوجع جزع، فدخل عليه رجل فقال له: يا أبا محمد، ما هذا الجزع؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك علي وفاطمة، وعلى جدتيك النبي صلى الله عليه وسلم وخديجة، وعلى أعمامك حمزة وجعفر، وعلى أخوالك القاسم والطيب وإبراهيم، وعلى خالانتك رقية وأم كلثوم وزينب. قال فسرني عنه⁽⁶⁾.

وفي رواية أن القائل له ذلك الحسين، وأن الحسن قال له: يا أخي، إنني أدخل في أمر

(1) شجرة الإيمان للسعدي، ص 49، والوسطية في القرآن الكريم، للصلاحي، ص 239.

(2) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص 51، الوسطية للصلاحي، ص 239.

(3) البخاري، كتاب: المغازي رقم: 4342. (4) البداية والنهاية (11/210).

(5) هو الفضل بن دكين. (6) البداية والنهاية (11/210).

من أمر الله لم أدخل في مثله قط، وأرى خلقاً من خلق الله لم أر مثله قط. قال: فيكي الحسين عليه السلام (1)، وفي رواية: يا أخي إني أقدم على أمر عظيم وهول لم أقدم على مثله قط (2).

إي والله. وقد بين المولى عليه السلام في كتابه وسنة رسوله تفصيل مسيرة الإنسان منذ خروج روحه إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ولذلك كان السلف يخافون من سوء الخاتمة، فلا يدري أحد بماذا يُحتم له؟ فالأعمال بالخواتيم، والمؤمنون يخافون من سوء الخاتمة عند كل خطوة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 80]، ويخافون من سكرات الموت، وقبض الروح، ومعرفة المصير، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اللهم هون علي سكرات الموت» (3) ومع الخوف من سكرات الموت يكون أيضاً الخوف من صورة ملك الموت، ودخول الروح والخوف منه على القلب (4)، يقول القرطبي: وأما مشاهدة ملك الموت عليه السلام وما يدخل على القلب منه من الروح والفرع، فهو أمر لا يُعبر عنه لعظم هول، وقظاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يتبدى له، ويطلع عليه (5). ومع الخوف الذي ينبغي أن يلازمنا من سكرات الموت وصورة ملكه فإن الأمر الخطير الذي من شأنه أن يزيدنا خوفاً على خوفنا هو: ظهور نتيجة امتحان الدنيا في ذلك الوقت، فهل سنكون ممن تقول لهم الملائكة: ﴿أَلَا تَحْزَنُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ﴾ (6) أم سنكون: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: 50]؟

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». فقالت عائشة: إننا لنكره الموت، فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ بروضان من الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه» (6).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها - فذكر من طيب ريحها - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك، وعلى جسد كنت تعمريته، فيُنطلق به إلى ربه ثم يقول: انطلقوا به إلى

(1) تاريخ دمشق (14/ 109).

(2) تهذيب الكمال (6/ 254)، سكب العبرات (1/ 148).

(3) الترمذي، كتاب: الجنائز رقم: 978.

(4) الإيمان أولاً، ص 94.

(5) التذكرة (1/ 113).

(6) البخاري رقم: 6507.

آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحه - فذكر من ننتها - ويقول أهل السماء: روح غيبة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل⁽¹⁾ وللقبر ضمة وضغطة ولا ينجو منها أحد كما قال رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة لو نجا أحد منها لنجا سعد بن معاذ»⁽²⁾، والقبر - كما قال ﷺ: «حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة»⁽³⁾.

وأما الحشر ومجيء الساعة وقيام القيامة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقُورًا رَكْعَةً﴾ [زلزلة: ٥] ﴿النَّاسُ لَكَ آتُونَ﴾ [الحج: ١] إنه يوم عصيب: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْكَافِرِينَ﴾ [المطففين: ٥] فالجميع سيحشر بداية من أبي البشر حتى آخر إنسان تقوم عليه الساعة⁽⁴⁾: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ نَّجْشُرُ لَكُمْ النَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103] وقد تحدث القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام عن أهوال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفرقان: ١١] ﴿وَجَاءَتْهُمُ يُومِيَهُمْ بِمِثْلِهِمُ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ الْذِكْرُوفُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] يقول: «يوتى بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»⁽⁵⁾، فيا له من مشهد مهيب تنفطر منه القلوب⁽⁶⁾، ولذلك قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: العار خير من النار⁽⁷⁾، ولذلك خشى على نفسه الزكية أن تحاسب بين يدي الله يوم القيامة، وقد قال ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»⁽⁸⁾.

ومن مشاهد يوم القيامة المفزعة قول رسول الله ﷺ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ حتى يُدنيه من العرش»⁽⁹⁾ نعم إنها أهوال عليها قادمون، فإذا كان سيد شباب أهل الجنة يخشى على نفسه في دخوله على أمر من أمر الله لم يدخل في مثله قط، فكيف بأمثالي وأمثالك يا أيها القارئ الكريم؟ فيجب أن نعتبر ونعمل لمثل هذا الموقف العصيب، نسأل الله أن يرحمنا ويعفو عنا برحمته وعفوه، إنه كريم حلِيم وودود رحيم.

(1) صحيح مسلم، صحيح الجامع رقم: 504.

(2) مستد أحمد (55/6) رجاله رجال الصحيح.

(3) سنن الترمذي رقم: 2578، حديث غريب.

(4) الإيمان أولاً فكيف تبدأ به، ص 96.

(5) مسلم، كتاب: صفة النار، صحيح الجامع رقم: 8001.

(6) رحلة إلى الدار الآخرة، ص 390.

(7) البداية والنهاية (12/204).

(8) أخرجه البخاري، ومسلم وأحمد عن مسعود، صحيح الجامع رقم: 2577.

(9) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني في، صحيح الجامع رقم: 8031.

6 - دفته في البقيع :

لما احتضر الحسن بن علي قال للحسين: ادفنوني عند أبي - يعني النبي ﷺ - إلا أن تخافوا الدماء، فإن خفتم الدماء فلا تهريقوا في دماً، ادفنوني في مقابر المسلمين، فلما قبض تسلم الحسن وجمع مواليه، فقال له أبو هريرة: أنشدك الله وصية أخيك فإن القوم لن يدعوك حتى يكون بينكم دماء، وكان مروان بن الحكم قد عارض دفته في جوار النبي ﷺ وقال: لا يدفن هناك أبداً، فلم يزل به أبو هريرة وجابر بن عبد الله، وابن عمر، وعبد الله بن جعفر، والمسور ابن مخرمة وغيرهم حتى رجع، ثم دفتوه في بقيع الغرقد بجانب أمه الزهراء البتول⁽¹⁾.

وقد اختلطت الروايات الضعيفة في حادثة دفن الحسن بن علي ﷺ ووجد أصحاب الأغراض مجالاً للفساد والتزوير، فقد زعم بعضهم بأن السيدة عائشة رفضت دفن الحسن بجانب رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وقالت: لا يكون لهم رابع أبداً، وإنه ليبيتي أعطانيه رسول الله ﷺ في حياته، فإن هذا لا يثبت وإسناده مظلم⁽²⁾.

وقد أثبت ابن تيمية بأن السيدة عائشة أذنت للحسن بأن يدفن في حجرتها، ولكن كره ذلك ناس آخرون، ورأوا أن عثمان ﷺ لما لم يدفن فيها فلا يدفن فيه غيره، وكادت تقوم فتنة⁽³⁾، وما تزعمه كتب التاريخ بأن أبان بن عثمان بن عفان قال: إن هذا لهو العجب العجيب، يدفن ابن قاتل عثمان مع رسول الله وأبي بكر وعمر، ويدفن أمير المؤمنين المظلوم الشهيد ببيع الغرقد⁽⁴⁾، فهذا إسناده ضعيف جداً، وفي منته نكارة⁽⁵⁾.

وهناك روايات ذكرت اعتراض مروان بن الحكم على دفن الحسن بجانب النبي ﷺ، إلا أن أسانيدنا ضعيفة، وقد ذكرها الدكتور محمد صامل السلمي في تحقيقه لكتاب الطبقات⁽⁶⁾، وإنما الرواية الصحيحة في هذا المقام هي ما رواه أبو حازم حيث قال: لما احتضر الحسن، قال للحسين: ادفنوني عند أبي - يعني النبي ﷺ - إلا أن تخافوا الدماء، فإن خفتم الدماء فلا تهريقوا في دماً، ادفنوني عند مقابر المسلمين، قال: فلما قبض تسلم الحسن وجميع مواليه،

(1) الدوحة النبوية الشريفة، ص 98.

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 276).

(3) الفتاوى (27/ 222).

(4) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 355) إسناده ضعيف جداً.

(5) المصدر السابق نفسه (1/ 355).

(6) الطبقات، تحقيق السلمي (1/ 356، 257، 364) فقد بين ضعف أسانيد الروايات.

فقال أبو هريرة: أنشدك الله ووصية أخيك فإن القوم لن يدعوك حتى يكون بينكم دعماً، قال: فلم يزل به حتى رجع. قال: ثم دفنوه في بقيع الغرقد⁽¹⁾، فقال أبو هريرة: رأيتم لو جيء بآبن موسى ليدفن مع أبيه فمُنِعَ أكانوا قد ظلموه؟⁽²⁾ قال: فقالوا: نعم، قال: فهذا ابن نبي الله قد جيء به ليدفن مع أبيه⁽³⁾.

وقد صلى على الحسن بن علي سعيد بن العاص، وكان يبكي، وكان مرضه الذي مات فيه أربعين يوماً⁽⁴⁾، وقد قدم الحسين بن علي سعيد بن العاص للصلاة على الحسن، لأنه كان والياً على المدينة لمعاوية، وقد اعتزل الفتنة ولم يقاتل مع معاوية، وقد ولي إمرة الكوفة لعثمان ابن عفان، وفيه يقول الفرزدق:

تري العُرَّ⁽⁵⁾ الججاجح⁽⁶⁾ من قُريش إذا ما الأمر ذو الحدثان⁽⁷⁾ عالا⁽⁸⁾

قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً⁽⁹⁾

وقد كان سعيد بن العاص أحد من ندبه عثمان لكتابة المصحف لفصاحته، وشبه لهجته بلهجة رسول الله ﷺ⁽¹⁰⁾.

ووقف أبو هريرة رضي الله عنه على مسجد رسول الله ﷺ يبكي وينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا⁽¹¹⁾، وقد اجتمع الناس لجنائزته، حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام⁽¹²⁾، ولو طرحت إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان⁽¹³⁾.

وقد كان الحسن رضي الله عنه، حليماً ورعاً فاضلاً، دعاه ورعه إلى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله، وقال عنه الذهبي: وكان هذا الإمام سيداً وسيماً، جميلاً عاقلاً، رزيناً، جواداً،

(1) الغرقد: مقبرة أهل المدينة، والغرقد كبار العوسج وبه سميت المقبرة.

(2) الطبقات، تحقيق السلمي (340/1) إسناده صحيح.

(3) المصدر السابق نفسه (340/1) إسناده صحيح.

(4) المستدرک علی الصحیحین (3/190).

(5) العُرَّ: جمع أعر: وهو الأبيض.

(6) الججاجح: جمع ججاجح: السيد السمع الكريم.

(7) الحدثان: ما يحدث من نوائب الدهر.

(8) عال: أقتل وقدح.

(9) سير أعلام النبلاء (3/445).

(10) المصدر السابق نفسه (3/448، 449).

(11) البداية والنهاية (12/211)، الدوحة النبوية الشريفة، ص 98.

(12) المصدر السابق نفسه (12/211).

(13) الطبقات، تحقيق السلمي (351/1) إسناده ضعيف.

ممدحاً، خيراً ديناً، ورعاً، محتشماً، كبير الشأن⁽¹⁾، فرحمة الله ورضوانه على هذا السيد الجليل، وجمعنا الله به مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين. ففي سيرته عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن أذكر، ورحم الله العلامة محمد إقبال إذ قال:

في روض فاطمة نما غصنان لم	ينجبهما في الثيرات سواها
فأمير قافلة الجهاد وقطب دائرة	الوثام والاتحاد ابناساها
حسن الذي صان الجماعة بعدما	أمسى تفرقها يحلُّ عُراها
ترك الإمامة ثم أصبح في الديار	إمام ألفتها وحسن عُلاها ⁽²⁾

7 - التحقيق في سنة وفاته وعمره:

كانت وفاة الحسن بن علي على أكثر الآراء في ستة تسع وأربعين من الهجرة⁽³⁾، وقيل: سنة الخمسين⁽⁴⁾، وقيل: سنة إحدى وخمسين⁽⁵⁾ وقد رجح الدكتور خالد الغيث بأن وفاة الحسن بن علي في سنة 51 هـ⁽⁶⁾ وهو قول البخاري⁽⁷⁾، وإليه أميل، وقال جعفر بن الصادق: عاش الحسن سبعاً وأربعين سنة⁽⁸⁾، وعلق الذهبي بقوله: وغلط من نقل عن جعفر أن عمره ثمان وخمسون سنة⁽⁹⁾، وقال الدكتور خالد الغيث: توفي وعمره ثمان وأربعون⁽¹⁰⁾ وأكد ما ذهب إليه بقول ابن عبد البر: أن ولادة الحسن بن علي: في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، هذا أصح ما قيل في ذلك⁽¹¹⁾، وبذلك جزم ابن حجر⁽¹²⁾، وبذلك يكون عمر الحسن عند وفاته ثمانين وأربعين سنة، وأنه توفي سنة 51 هـ. والله تعالى أعلم⁽¹³⁾.

وهكذا خرج الحسن بن علي من الدنيا شهيداً تسبيح بأيدي الغدر والخيانة بعد أن قدم

(1) سير أعلام النبلاء (253/3).

(2) الدوحة النبوية الشريفة، ص 99.

(3) تاريخ خليفة، ص 209، أنساب الأشراف (64/3)، تهذيب الكمال (256/6).

(4) الإنباء بأبناء وتواريخ الخلقاء، فتح الباري (7/120).

(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص 402.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 402.

(7) سير أعلام النبلاء (277/3).

(8) سير أعلام النبلاء (277/3).

(9) سير أعلام النبلاء (277/3).

(10) مرويات خلافة معاوية، ص 402.

(11) الاستيعاب (384/1).

(12) الإصابة (68/2).

(13) مرويات خلافة معاوية، ص 402.

عملاً جليلاً ومشروعاً إصلاحياً فريداً ساهم في وحدة الأمة، وأعاد دورها الحضاري في نشر دين الله في الآفاق، وستظل الأمة الإسلامية مدينة لهذا السيد الجليل الذي حمل لواء الوحدة والإلفة وحفظ الدماء، وساهم في الإصلاح بين الناس، وقدم بجهاده الرائع، وبصبره الجميل، مثلاً يقتدى به على مر العصور، وكرّم الدهور وتوالي الأزمان، فمواقفه الشامخة واستعلاؤه الكبير على حطام الدنيا، حفظها لنا التاريخ ولم تهملها الليالي ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون.



هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب في 21 صفر 1425 هـ الموافق 11/4/2004م الساعة العاشرة إلا ربع ليلاً.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل المتواضع ويشرح صدور العباد لئلا نتفاح به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا يُرِيدُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [فاطر: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أتهدى إلى الله وأنضج إليه بقلب خاشع منيب، معترفاً بإنعامه وفضله وكرمه وجوده وتوفيقه، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً وعباده نافعاً، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَرْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِفَضْلِكَ أَلَيْسَ أَنْتَ بِمَغْفِرٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 19].

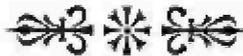
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

ومغفرته ورحمته، ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

18 ذي الحجة 1424 هـ



أهم المصادر والمراجع

- 1 - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1402 هـ.
- 2 - نسب قریش: أبو عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيری، دار المعارف - القاهرة.
- 3 - الدوحة النبوية الشريفة، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1420 هـ - 2000 م.
- 4 - الذرية الطاهرة النبوية: لمحمد بن أحمد بن حماد الدولابي. وأخرج أحاديثه سعد المبارك الحسن، نشر الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى 1407 هـ، 1986 م.
- 5 - الطبقات الكبرى، محمد سعد بن منيع الزهري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- 6 - مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 7 - صحيح ابن حبان، أبو حاتم بن حبان البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1404 هـ.
- 8 - المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1411 هـ.
- 9 - معجم الطبراني الكبير، لأبي القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية 1406 هـ - 1985 م.
- 10 - منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور بن عبد الحفيظ سويد، مؤسسة الريان، بيروت لبنان، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الخامسة 1414 هـ - 1994 م.
- 11 - الحسن بن علي ودوره السياسي، فتبخان كردي، رسالة ماجستير لم تطبع بعد.
- 12 - صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1411 هـ - 1991 م.
- 13 - تسمية المولود، بكر عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الطبعة الثالثة 1416 هـ - 1995 م.

- 14 - تحفة المودود بأحكام المولود، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
- 15 - موسوعة تربية الأجيال، نصر الصنقرى، دار الإيمان - الطبعة الأولى.
- 16 - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1972م.
- 17 - سنن الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، 1398هـ.
- 18 - ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، لأبي العباس أحمد بن محمد الطبري المكي، مكتبة الصحابة - الإمارات العربية.
- 19 - المعجم الصغير للطبراني، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.
- 20 - موسوعة عظماء حول الرسول، خالد العك.
- 21 - سيرة آل بيت النبي الأطهار، مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية.
- 22 - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
- 23 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 - 1992م.
- 24 - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- 25 - لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية 1331هـ - 1992م.
- 26 - البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.
- 27 - تقريب التهذيب لابن حجر.
- 28 - دائرة المعارف البريطانية.
- 29 - جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1382هـ.
- 30 - فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999م.

- 31 - تحفة الأحوذى لشرح سنن الترمذى، محمد عبد الرحمن المباركفوري، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، مطبعة الاعتماد، نشر محمد عبد المحسن الكتبي.
- 32 - منهاج السنة لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
- 33 - التبيين في أنساب القرشيين، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، حققه محمد نايف الدليمي، عالم الكتب، الطبعة الثانية.
- 34 - الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، الناشر: إدارة ترجمان السنة، توزيع دار السلام الرياض، الطبعة العاشرة.
- 35 - نساء أهل البيت، منصور عبد الحكيم، التوفيقية.
- 36 - المرتضى أبو الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن الندوي، دار القلم.
- 37 - السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1417هـ - 1997م.
- 38 - تاريخ الإسلام للذهبي، محمد أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.
- 39 - دلائل النبوة لليهقي.
- 40 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1402هـ.
- 41 - سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر.
- 42 - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين ابن الأثير، أبي الحسن بن علي بن محمد الجزري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.
- 43 - حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 44 - صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلمي، دار التفانس، الطبعة الثالثة، 1408هـ.
- 45 - صفة الصفوة، الإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.
- 46 - التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز عبد الله الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى 1408هـ.
- 47 - من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية 1412هـ - 1992م.
- 48 - السيرة النبوية، لعلي محمد الصلّائي، دار الإيمان - الإسكندرية.

- 49 - صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الترية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، 1405هـ.
- 50 - أسنى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث - القاهرة.
- 51 - العقيدة في أهل البيت بين الإفراط و التفریط، د. سليمان بن سالم بن رجاء الشحي، مكتبة الإمام البخاري، الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
- 52 - السنن الكبرى لليهقي، للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي، طبع دار المعارف، بيروت، لبنان، توزيع مكتبة المعارف - الرياض.
- 53 - الانتصار للصحب والأل من افتراءات السماوي الضال، الدكتور إبراهيم الرحيلي، مكتبة الغرياء الأثرية، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
- 54 - ديوان محمد إقبال، الأعمال الكاملة، سيد عبد الماجد غوري، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 2003م.
- 55 - أحاديث بشأن البطين، عثمان الخميس، رسالة ماجستير لم تطبع حتى الآن.
- 56 - الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لأبي الحين الأمير علاء الدين علي بن بلبان قدم له وضبط نصه كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 1987م.
- 57 - الشريعة للأجري، دراسة وتحقيق د. عبد الله الدميحي، دار الوطن، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
- 58 - النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي.
- 59 - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت - لبنان.
- 60 - تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للمزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، الدار القيمة.
- 61 - شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المتوفى 676هـ - 1349هـ.
- 62 - شرح فتح القدير لكمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام، مطبعة دار الفكر، بيروت - الطبعة الثانية 1397هـ.
- 63 - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد: لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرادوي، دار إحياء التراث العربي.

- 64 - معالم السنن للخطابي لأبي سليمان بن محمد الخطابي، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 1401هـ، مصور عن الطبعة الأولى 1352هـ.
- 65 - الأم للشافعي، لمحمد بن إدريس الشافعي، تصحيح محمد زهري النجار، نشر دار المعرفة، بيروت.
- 66 - المجموع شرح المذهب للنووي، الناشر: دار الفكر.
- 67 - حاشية رد المختار على الدار المختار المعروف بحاشية ابن عابدين، لمحمد أمين عمر الدمشقي الشهير بابن عابدين، الطبعة الثانية، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- 68 - بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، أحمد بن محمد الصاوي المالكي، دار المعرفة، بيروت 1398هـ.
- 69 - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لمحمد أحمد بن عرفة الدسوقي، نشر دار الفكر.
- 70 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 71 - المتقى شرح موطأ مالك لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة 1404هـ، مصور عن الأولى 1322هـ.
- 72 - الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: لعلاء الدين أبي الحسن بن علي بن محمد البعلبي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.
- 73 - إعلام الموقعين لابن القيم، دار الجيل، بيروت - لبنان.
- 74 - مختارات من أدب العرب للندوي، دار ابن كثير، دمشق.
- 75 - حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان - الإسكندرية.
- 76 - ثم أبصرت الحقيقة، محمد سالم الحضر، دار الإيمان الإسكندرية، طبعة 2003 م.
- 77 - دراسات في الفرق، د. أحمد جلي، شركة الطباعة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1406هـ.
- 78 - الإمامة والنص، فيصل نور، كتاب لم يطبع حتى الآن.
- 79 - وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم محمد با عبد الله، دار الراجعية، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى 1415هـ / 1994م.
- 80 - زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، الطبعة الأولى 1399هـ، دار الرسالة.

- 81 - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة 1417هـ - 1996م.
- 82 - مقدمة ابن خلدون.
- 83 - الإمام الزهري، محمد شرّاب، دار القلم دمشق.
- 84 - استخلاف أبي بكر الصديق، جمال عبد الهادي، د. محمد رفعت جمعة، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.
- 85 - أبو بكر رجل الدولة، مجدي حمدي، دار طيبة الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ.
- 86 - عصر الخلافة الراشدة، د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى 1414هـ - 1994م.
- 87 - الأنصار في العصر الراشدي، حامد محمد الخليفة، دار الصحابة، 2003م.
- 88 - الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، علي محمد الصّلابي، دار الإيمان الإسكندرية.
- 89 - الإسلام وأصول الحكم، محمد عمارة.
- 90 - عقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1413هـ - 1993م.
- 91 - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، المكتب الإسلامي، الطبعة السادسة، 1408هـ - 1988م.
- 92 - تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان.
- 93 - الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الطبعة الثانية، الجامعة الإسلامية 1405هـ.
- 94 - الإنصاف فيما يجوز اعتقاده ولا يجوز الجهل به، لأبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، نشر عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى 1986م.
- 95 - الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم بهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية 1418هـ - 1997م.
- 96 - دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، د. عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.
- 97 - صحيح سنن ابن ماجه، لمحمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي.

- 98 - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.
- 99 - معجم الطبراني الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.
- 100 - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، د. ناصر القفاري، دار الرضا بمصر الطبعة الثالثة.
- 101 - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، أبو المعالي الجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى - علي عبد المنعم بمكتبة الخانجي؛ مصر.
- 102 - خلافة علي بن أبي طالب وترتيب وتهذيب كتاب البداية والنهاية، محمد صامل السلمي، دار الوطن الطبعة الأولى 1422هـ = 2002م.
- 103 - تاريخ البعقوبي، دار بيروت - للطباعة والنشر، طبعة 1400هـ - 1980م.
- 104 - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني المعروف بابن الأثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
- 105 - الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، دار البشير، الطبعة الأولى 1405هـ - 1985م.
- 106 - تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، ودار القلم، طبعة 1397هـ.
- 107 - قصة بعث أبي بكر جيش أسامة، د. فضل إلهي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، 1420هـ - 2000م.
- 108 - تاريخ الدعوة إلى الإسلام في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، د. جميل عبد الله المصري، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى 1407هـ 1987م.
- 109 - عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت.
- 110 - الصديق، أبو بكر، محمد حسين هيكل، دار المعارف بمصر، الطبعة 1971م.
- 111 - حركة الردة، د. علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة عمان، الطبعة الثانية 1997م.
- 112 - مشكاة المصابيح، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- 113 - فقه التكمين في القرآن الكريم، د. علي محمد الضلابي، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى 1421هـ - 2001م.
- 114 - تفسير الطبري، لأبي جعفر الطبري.

- 115 - تاريخ دمشق الكبير، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1412 هـ - 2001 م.
- 116 - الخراج لأبي يوسف، منشورات مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ الطبع.
- 117 - مصنف في الأحاديث والآثار، لأبي شيبة، دار التاج، بيروت، لبنان.
- 118 - عقائد الثلاثة والسيمن فرقة، لأبي محمد اليميني، تحقيق ودراسة: محمد عبد الله زربان الغامدي، مكتبة دار العلوم، الطبعة الأولى 1414 هـ.
- 119 - تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر دار صادر، بيروت، لبنان.
- 120 - مختصر النحلة الاثني عشرية، لمحمود شكري الألوسي، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة 1373 هـ.
- 121 - علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين، د. محمد عمر الحاجي، دار الحافظ بدمشق، الطبعة الأولى 1998 م.
- 122 - فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة، 1991 م، دار الفكر، دمشق.
- 123 - المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة للزمخشري، تحقيق سيد إبراهيم صادق دار الحديث، إمام جامعة الأزهر.
- 124 - النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب، لمحمد عبد الواحد المقدسي، تحقيق: عبد الرحمن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- 125 - الرياض النضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشهرير بالمحب الطبري، المكتبة القيمة - القاهرة.
- 126 - أضواء البيان في تاريخ القرآن، صابر حسن محمد أبو سليمان، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2000 م.
- 127 - تيسير الكريم المتأن في سيرة عثمان بن عفان، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1424 هـ 2003 م.
- 128 - الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، عبد الرحمن عبد الكريم العاني، د. حسن فاضل زعين، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - طبعة 1989 م.
- 129 - أوليات الفاروق للقرشي، د. غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي - بيروت، مكتبة الحرمين الرياض، الطبعة الأولى 1403 هـ - 1983 م.

- 130 - الخلفاء الراشدون للخالدي، دار القلم دمشق.
- 131 - الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم البهناوي، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية 1418هـ - 1997م.
- 132 - أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 1402هـ - 1983م.
- 133 - مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، يحيى إبراهيم يحيى، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى 1410هـ.
- 134 - المدينة النبوية، فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد حسن شراب، دار القلم، دمشق الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.
- 135 - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النفايس، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ - 1987م.
- 136 - عثمان بن عفان، لصادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثالثة 1410هـ - 1990م.
- 137 - شهيد الدار، عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمّار - الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
- 138 - التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي الأندلسي، د. محمود يوسف زايد، دار الدوحة، الطبعة الأولى 1405هـ - 1985م.
- 139 - مجلة البحوث الإسلامية، العدد (10).
- 140 - أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز نور ولي، دار الخضري، المدينة الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.
- 141 - عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ضمن الرسائل المنبرية، للبهيج إسماعيل الصّابوني، نشر محمد أمين رمح، 1970م.
- 142 - رياض النفوس، للمالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان طبعة عام 1403هـ - 1983م.
- 143 - الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، الطبعة الأولى 1414هـ - 1993م.
- 144 - ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية، للدكتور صالح مصطفى مفتاح المزيهي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثالثة 1994م.

- 145 - الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، د. علي محمد الصّلابي، مكتبة الصّحابة، الشّارقة، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
- 146 - فتنة مقتل عثمان، د. محمد عبد الله الغبّان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 1419هـ - 1999م.
- 147 - تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الطبري والمحدثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض - الطبعة الأولى 1415هـ.
- 148 - عثمان بن عفان الخليفة الشاكر الصاير، عبد الله الشيخ، الطبعة الأولى 1412هـ - 1991م.
- 149 - تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، تحقيق: محمود شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة 1393هـ.
- 150 - منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين، مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة رقم 253.
- 151 - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، مكتبة النهضة المصرية.
- 152 - لواعج الأنوار البهية، للسفاريني، المكتب الإسلامي.
- 153 - الوصية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع دار المطبعة السلفية ومكتبها، نشر قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة 1401هـ.
- 154 - الثقات لابن حبان، محمد بن حبان، مكتبة العلم، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1393هـ.
- 155 - استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري، دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة.
- 156 - أحكام القرآن لابن العربي، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- 157 - شرح الطحاوية، للعلامة محمد بن علي بن محمد الأذري، المكتب الإسلامي، بيروت.
- 158 - التاريخ الصغير للبخاري.
- 159 - عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة 1412هـ.

- 160 - العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر ابن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الثقافة، قطر - الدوحة، الطبعة الثانية 1989م.
- 161 - تثبيت دلائل النبوة للهمداني.
- 162 - الفصل في الملل والنحل، لأبي محمد ابن حزم الظاهري، مكتبة الخانجي، مصر.
- 163 - دول الإسلام، للذهبي.
- 164 - الوافي بالوفيات للصدفي.
- 165 - مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1402هـ.
- 166 - سنن سعيد بن منصور، دار الصعيدي، الرياض، الطبعة الثانية، 1420هـ.
- 167 - كتاب أهل البغي من الحاوي الكبير للماوردي.
- 168 - المنتقى من منهاج الاعتدال، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، دار البيان، وحققه وعلق على حواشيه: محب الدين الخطيب.
- 169 - الفتن، نعيم بن حماد.
- 170 - أحداث وأحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز دخان، مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى 1424هـ - 203م.
- 171 - تهذيب ابن عساكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ - 1987م.
- 172 - عقيدة الإمام ابن تيمية، علي العلياني، مكتبة الصديق، الطبعة الأولى 1412هـ 1991م السعودية.
- 173 - الإمامة والسياسة المنسوب لابن تيمية، مؤسسة الحلبي، القاهرة.
- 174 - الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، لأبي العباس أحمد بن محمد ابن علي بن حجر الهيتمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ 1997م.
- 175 - تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- 176 - وقعة صفين لابن مزاحم، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية - القاهرة 1382هـ.

- 177 - تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، لأبي يعلى محمد الفراء، تحقيق دار النبلاء - عمان، الطبعة الأولى 1422هـ.
- 178 - دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، د. محمد ضيف الله بطاينة، دار الفرقان، الأردن عمان.
- 179 - الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود، تحقيق عبد المتعم عامر، مراجعة د. جمال الدين الشيال، مكتبة المتنبى بغداد.
- 180 - نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار البلاغة لبنان.
- 181 - معاوية بن أبي سفيان، صحابي كبير، وملك مجاهد، منير محمد الغضبان، دار القلم دمشق الطبعة الثالثة 1417هـ - 1996م.
- 182 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم، الطبعة الأولى 1398هـ.
- 183 - الأساس في السنة، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة.
- 184 - الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين اليبهقي، الناشر: حديث أكاديمي، نشاط أباد فيصل أباد.
- 185 - المحن لابن أبي العرب.
- 186 - بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود، عبد الله الجميلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية 1414هـ - 1994م.
- 187 - الإمامة والرد على الرافضة، تحقيق علي ناصر فقيهي.
- 188 - تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب.
- 189 - الحكومة الإسلامية للخميني.
- 190 - مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني.
- 191 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
- 192 - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 193 - كتب حذر منها العلماء، لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الهيمي - السعودية، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.

- 194 - السيف اليماني في نحر الأصفهاني، وليد الأعظمي، الطبعة الثانية، 1410هـ - 1989م، دار الوفاء، مصر.
- 195 - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار صادر.
- 196 - الأدب في الإسلام، نايف معروف، دار التفانس، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.
- 197 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- 198 - منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه، السيد محمد نوح، الطبعة الأولى 1411هـ 1990م جامعة الإمارات العربية المتحدة.
- 199 - التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق 1411هـ - 1991م، الطبعة الأولى.
- 200 - الإيمان أولاً فكيف تبدأ به، مجدي الهلالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر.
- 201 - عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.
- 202 - تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، هذبه: عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1409هـ - 1989م.
- 203 - الرقائق، لمحمد أحمد الراشد، دار البشير - مصر.
- 204 - صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1988م، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
- 205 - السلسلة الصحيحة، للألباني، المكتبة الإسلامية.
- 206 - رهبان الليل، د. سيد بن حسين العفائي، مكتبة معاذ بن جبل، مصر.
- 207 - ما ذُبان جائمان، لابن رجب، تحقيق: محمد صبحي حلاق، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى 1413هـ - 1992م.
- 208 - جواهر الأدب للهاشمي، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان.
- 209 - صحيح الترغيب والترهيب، للمتذري.
- 210 - الأخلاق بين الطبع والتطبع، لأبي عبد الله فيصل بن عبده الحاشدي، دار الإيمان الإسكندرية.

- 211 - صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1997م.
- 212 - جهاد النفس، علي بن محمد الدهامي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 213 - جامع العلوم والحكم، لابن رجب.
- 214 - الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، محمد رضا، المكتبة العصرية، لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
- 215 - علموا أولادكم حب آل بيت النبي، محمد عبده يماني، دار القبة للثقافة الإسلامية، جدة الطبعة الثانية 1418هـ - 1998م.
- 216 - منهج الإسلام في تزكية النفس، د. محمد خير فاطمة، دار الخير، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 217 - مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1392هـ.
- 218 - أمراض النفس، دراسة تربوية لأمراض النفوس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك، د. أنس أحمد كرزون، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة 1424هـ.
- 219 - الجواب الكافي، لابن القيم.
- 220 - جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، الطبعة الرابعة 1419هـ - 1998م.
- 221 - المحدث الفاصل للرامهرمزي.
- 222 - قواعد في التعامل مع العلماء، عبد الرحمن بن معلّ اللويحق، دار الوراق، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.
- 223 - الداء والدواء لابن القيم.
- 224 - التعريفات للمرجاني.
- 225 - سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي النسائي، دار الفكر - بيروت.
- 226 - الزواجر لابن حجر الهيتمي.
- 227 - الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي، دار المدار الإسلامي - لبنان، الطبعة الأولى.

- 228 - أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- 229 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، أبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالمغرب.
- 230 - التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية، تونس.
- 231 - الفوائد لابن القيم، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الريان للتراث، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.
- 232 - تفسير ابن كثير، دار الفكر، ودار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.
- 233 - تفسير السعدي العمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض.
- 234 - معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين للإمام أبي سعيد أحمد بن محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2003م - 1424هـ.
- 235 - محاسن التأويل للقاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.
- 236 - نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الثويري، مطبعة كوتسا توماسي بالقاهرة.
- 237 - صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م.
- 238 - قيادة الرسول السياسية والعسكرية، أحمد راتب عرموش، دار النفائس، الطبعة الأولى 1401هـ - 1981م.
- 239 - ولاية مصر، أبو يوسف محمد يوسف الكندي، تحقيق د. حسين نصار، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- 240 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة - بدون تاريخ.
- 241 - المجروحين من المحمدين، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد، تحقيق: إبراهيم محمود زايد، حلب دار الوعي.
- 242 - تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بيروت، دار إحياء التراث.

- 243 - الكامل في ضعفاء الرجال، للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، دار الفكر، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1405هـ.
- 244 - المعرفة والتاريخ، ليعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1401هـ.
- 245 - فقه السيرة، منير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث، مكة المكرمة.
- 246 - الصراع مع اليهود لأبي فارس، دار الفرقان الطبعة الأولى 1411هـ 1990م.
- 247 - مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، خالد محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، السعودية - الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م.
- 248 - مجموعة الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني، دار الوفاء، الطبعة الأولى 1411هـ - 1997م.
- 249 - السنة لأبي بكر الخلال، تحقيق عطية الزهراني، دار الراية، الطبعة الأولى 1410هـ.
- 250 - المطالب العلية بزوائد المسانيد الثمانية، المطبعة العصرية، 1390هـ - 1970م.
- 251 - أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد بن عبد العزيز قاسم الحداد، دار الغرب الإسلامي، لبنان، الطبعة الثانية 1999م.
- 252 - جامع الأصول من أحاديث الرسول، للإمام مبارك بن الجزري، تحقيق حامد الفقي، إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض 1370هـ.
- 253 - مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد سعد اليوبي، دار الهجرة.
- 254 - اعتبار المآلات ومراعات نتائج التصرفات، د. عبد الرحمن بن معمر السنوسي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، رجب 1424هـ، السعودية.
- 255 - أسباب النزول للواحدي، علي بن أحمد الواحدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 256 - رسالة الألفة بين المسلمين، لابن تيمية.
- 257 - الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، عبد العزيز بن أحمد بن حامد غراس للتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى.
- 258 - نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، مصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية.
- 259 - الشيخان أبو بكر وعمر رواية البلاذري في أنساب الأشراف، تحقيق د. إحسان صدقي العمدة، المؤتمر للنشر، السعودية، الطبعة الثالثة 1418هـ 1997م.

- 260 - الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، فتحي عبد الكريم، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1404هـ - 1984م.
- 261 - الذاكرة التاريخية للأمة، د. قاسم محمد.
- 262 - الدور السياسي للمصفاة في صدر الإسلام، السيد عمر، الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م.
- 263 - أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، د. عبد الله عبد الرحمن الخرعان، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى 1424هـ.
- 264 - دراسات في الأهواء والفرق والبدع، وموقف السلف منها، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مركز دار أشبيليا، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.
- 265 - وجوب التعاون بين المسلمين، لعبد الرحمن السَّعدي، دار المعارف، الرياض، طبعة 1402هـ.
- 266 - سنن الدارمي، لأبي عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- 267 - النظريات السياسية، محمد ضياء الرئيس.
- 268 - قضاء الحوائج، لأبي بكر ابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، تحقيق محمد نجير رمضان يوسف.
- 269 - فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 1391هـ، 1972م.
- 270 - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للفلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت.
- 271 - العبودية لابن تيمية.
- 272 - المدينة في العصر الأموي، محمد محمد شرَّاب، مؤسسة علوم القرآن - دمشق.
- 273 - مواقف المعارضة في خلافة يزيد، محمد الشيباني، دار البيارق، عمان، الأردن.
- 274 - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- 275 - أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، طبعة 1410هـ - 1989م.

- 276 - الوسطية في القرآن الكريم، علي الصّلابي، دار الصحابة، الإمارات، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001 م.
- 277 - التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن السعدي.
- 278 - المرتضى: سيرة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية 1419هـ - 1998 م.
- 279 - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، د. علي حسن الخربوطلي، دار المعارف بمصر.
- 280 - المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، لأبي العباس أحمد عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين مستو، يوسف بدوي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1417هـ.